مكتبة الدراسات الأدبية

٧٠

جورج ديمتري سليم

إيليا أبو ماضي

(١٨٨٩ - ١٩٥٧)

دراسات عنه وأشعاره المجهولة

دار المعارف

إيليا أبو ماضي

(١٨٨٩ - ١٩٥٧)

دراسات عنه وأشعاره المجهولة

مكتبة الدراسات الأدبيّة

٧٠

إيليا أبو ماضي

(١٨٨٩ - ١٩٥٧)

دراسات عنه وأشعاره المجهولة

تأليف وجمع

جورج ديمتري سليم

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

الإهـــداء

إلى جوزيت

وإلى جبران ولورانس ومى

وإلى محبي الأدب المهجرى

البَابُ الأولـ

دراسات عنه

مقدمة الباب الأول

جمعت فى هذا الكتاب – لتكون فى متناول سهل – مقالات ونبذات لى عن المهجرى أبى ماضى ، نشرتها « الأديب » و « النهار » البيروتيتان ، و « البيان » الكويتية ، وأضفت إليها قطعتين جديدتين : مقالا عن الطيار لندبرج ، وموجزاً مفصلا لحياة أبى ماضى .

وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أتدارك القليل الذى سها علىّ أو سها على الطبّاع إثباته فى حينه . ولمن يهمه معرفة مكان وتاريخ نشر المقالات والنبذات ، أثبت البيان التالى ، وهو يطابق محتوى الكتاب :

١	« الأديب »		نوفمبر ١٩٧٢ ، ص ٢٢ – ٢٥ .
٢	« البيان »		أبريل ١٩٧٤ ، ص ٨٧ – ٩٠ .
٣	« البيان »	(ا)	أغسطس ١٩٧٥ ، ص ٢٥ – ٢٩ .
		(ب)	أكتوبر ١٩٧٥ ، ص ٢٦ – ٣١ .
٤	« الأديب »	(ا)	أكتوبر ١٩٧٤ ، ص ٢ – ٦ .
		(ب)	فبراير ١٩٧٥ ، ص ٣٠ – ٣٣ .
		(حـ)	أغسطس ١٩٧٥ ، ص ٢ – ٥ .
٥	« النهار »		١٩٧٤/١/٢٠ ، ص ٦ – ٧ من الملحق .
٦	« النهار »		١٩٧٤/٦/١٦ ، ص ٦ – ٧ من الملحق .
٧	« الأديب »	(ا)	يوليو ١٩٧٣ ، ص ٥٤ .
		(ب)	ديسمبر ١٩٧٣ ، ص ٥٤ – ٥٥ .
٨	« الأديب »		ديسمبر ١٩٧٤ ، ص ٢ – ٤ .
٩	« الأديب »		نوفمبر وديسمبر ١٩٧٥ ، ص ٥٨ .
١٠	« الأديب »		تحت الطبع
١١			لم تنشر

١٢	« البيان »		نوفبر ١٩٧٣ ، ص ٣٨ — ٤٠ .
١٣	« الأديب »	(ا)	نوفبر ١٩٧١ ، ص ٥٠ — ٥١ .
		(ب)	مارس ١٩٧٢ ، ص ٥٩ .
		(حـ)	يناير ١٩٧٥ ، ص ٤٩ — ٥٠ .
١٤	« البيان »		تحت الطبع
١٥			لم ينشر

ختاماً ، أرجو أن أكون قد أسهمت إسهاماً إيجابيًّا متواضعاً فى مجال دراسة الأدب العربى بكتابى هذا .

واشنطن العاصمة — **جورج ديمترى سليم**

شتاء ١٩٧٥ م

(١) حتى نفهم أبا ماضى

« ليس فى حياة أبى ماضى أثر ، أو مظهر لما تعود الناس رؤيته أو انتظاره فى حيوات الشعراء . من « صخب » ، فقد مرت أيامه كلها على هذا الأديم ، دون حادثة أو تجربة غير عادية . لقد عاش وعمل وهاجر وتزوج ورزق أولاداً ، وكان موفقاً إلى حد بعيد ، فى معيشته وعمله وهجرته وزواجه وأولاده [١] » .

هكذا استهل عبد اللطيف شرارة دراسته التحليلية عن إيليا ظاهر أبى ماضى ، وهو حكم صحيح إذا كان مرجعه النظرة العابرة فى حياة الشاعر وأشعاره ، تلك النظرة التى تنتهى بتصويره لنا شاعراً ذا « فلسفة قائمة على المزاج » . معرضة لما يتعرض له المزاج من تقلب واضطراب [٢] » .

ونحن نتساءل أصحيح أن يكون سر التناقض والاضطراب الذى أوصل أبا ماضى إلى التشكك والحيرة كامناً — كما يقول شرارة — « فى طبيعة فلسفته .... وفى التحول العام الذى طرأ على البيئة التى كان يعيش فيها ، أى على الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، فى سنى ما بعد الحرب الأولى [٣] » ؟ أم أن لهذا التناقض والاضطراب أسباباً أخرى أقوى لا دخل لمزاج أبى ماضى ولا للبيئة الأمريكية فيهما ؟

كان أبو ماضى — كما يقول لنا عيسى إبراهيم الناعورى — « ضنيناً جداً بالحديث عن نفسه وعن حياته . حتى إننى حينما أردت إصدار الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٥١ ، كتبت إليه أرجو أن يوافينى بموجز عن حياته . لأقدمه إلى القراء ، وبصورة له أنشرها فى الكتاب ؛ فكتب إلى — بعد انتظار غير قصير — يقول : يعز على وأنا أجيبك على رسالتك ألا يكون مع جوابى رسم لى ، فإنى مهمل هذه الناحية كل الإهمال . أما سيرة حياتى فليس فيها ما يستحق النشر ، أو على الأقل هكذا أعتقد أنا ؛ إذ ليس فيها ما ينقع فضول أحد » . ويتابع الناعورى حديثه فيقول : « وليس صحيحاً أن حياته ليس فيها ما ينقع فضول أحد ، فإنه لم

يصل إلى المنزلة التي وصل إليها إلا بجهاد عصامي طويل ، تقلب فيه على الشوك والجمر والحراب طويلا قبل أن يعرف جنباه الفراش المريح . أتراه كان يخجل بجهاده هذا ، وهو مصدر فخر عظيم لمثله ؟ [٤] » .

فالناعوري حين شرع في دراسة الشاعر – كما نرى – كان يدري أن هناك مؤثرات في حياة أبي ماضي جعلت منه هذا الشاعر الإنساني الكبير . لذلك حاول أن يتعرف عليها ويستقيها من الشاعر نفسه حتى تكون دراسته سليمة . ولكنه لم يوفق . وما كان هذا ليرده عن محاولة أخرى هي فهم شاعره فهماً صحيحاً .

لم تكن حياة أبي ماضي كلها سعادة وهناء ، ولكنها كانت حياة متأرجحة بين السعادة حيناً والشقاء حيناً آخر . بل لعل الشقاء كان له الكفة الراجحة في حياته . لمست نادرة جميل سراج هذا في شاعرنا ، فقالت : « هو ، كما سبق أن قلت ، باسم مستبشر أمام الناس ، كئيب حزين في قرارة نفسه ، يظهر للملأ خلاف ما يبطن من هم وغم ، ولعمري إن في عمله هذا لإنسانية وكرم نفس وعلوًّا في الأخلاق والطباع ، وفيه في الوقت نفسه كبرياء واعتداد لا يستبعدان عن نفس شاعرة رقيقة كنفس إيليا . . . أي إيثار هذا الذي يدعو الشاعر إلى أن يستّر عبرته حتى لتكاد تحرقه في جوفه ويلتهب بنارها جفناه خشية أن يسبب ألماً لمن معه ؟ [٥] » .

ووصف لنا إحسان عباس ومحمد يوسف نجم أبا ماضي في سياق تحليلهما لقصيدة « الشاعر والملك الجائر » ، فكتبا : « القصيدة تحمل صورة رومانطيقية في أكثر أجزائها ، فلم اختار أبو ماضي أن يكون واقعيًّا جدًّا في هذا الموقف؟ . . .

وليس يعتذر عن هذا الخطإ أن يقال إن الشاعر (أبا ماضي) يريد أن يصور قوة الموت وجبروته ، وتساوي الناس أمامه ، فهذا موضوع مبتذل ، والتجديد فيه شاق ، وليس هو الموضوع الأساسي للقصيدة ، بل هذا خطأ آخر وقع فيه الشاعر ، الذي كان حائر النفس مسلوب الخاطر أمام الموت ، فانزلق الموضوع من يده نحو الموت وسطوته وجبروته . وهذا التحول بالموضوع جر وراءه أخطاء أخرى ، منها : أنه هون من شأن الخلود الذي أحرزه الشاعر ، ومنها أنه بسط سيطرة الموت على الطبيعة ، على الغاب ، على الصالح والطالح دون تمييز ، فأفقد الإنسان ثقته في كفاحه ، وأفقده ثقته في الطبيعة وكمالها [٦] » .

نقرأ هذا التحليل فنعجب بالمحللين إذ نجدهما قد تغلغلا فى نفسية أبى ماضى وكشفاها لنا ، ولم يكن هذا بالسهل ، وإن عجزا فى الوقت نفسه عن تبيين البواعث التى دفعت أبا ماضى إلى أن يكون له « نظرته المفلسفة القائمة على عجز الإنسان أمام الطبيعة[٧] » .

لم يبق أمامنا إذن إلا الرجوع إلى الوراء وعرض أهم الأحداث التى وقعت لأبى ماضى فى حياته ، تلك الأحداث التى ظلت مجهولة للآن والتى لا شك تلقى ضوءاً كافياً على أشعاره ، وتساعد على فهمه فهماً كما يجب .

هاجر إيليا محيدثة لبنان إلى إسكندرية مصر عام ١٩٠٠ ، صبيًّا له من العمر أحد عشر عاماً ، فترعرع هناك بدنيًّا وأدبياً وكان يبيع السجاير والدخان . وفجأة ، عام ١٩٠٩ ، يتوفى الله طانيوس ، رابع الإخوة ، وهو بجانب إيليا وفى ريعان الشباب ، فيتكفل هذا بدفنه ويرثيه بقصيدة « البدر الآفل »[٨] التى منها هذه الأبيات المتفرقة :

أبعدك يعرف الصبر الحزين	وقد طاحت بمهجته المنون ؟
عجيب أن تعيش بنا الأمانى	وأنا للأمانى نستكين
وما أرواحنا إلا أسارى	وما أجسادنا إلا سجون
وما فى الكون مثل الكون فان	كما تفنى الديار كذا القطين
فيا لهفى لأملك حين يدوى	نعيك بعد ما طال السكون
ولهف شقيقك النائى بعيداً	إذا ما جاءه الخبر اليقين
ستبكيك الكواكب فى الدياجى	كما تبكيك فى الروض الغصون
ويبكى إخوة قد غبت عنهم	وأم ثاكل وأب حزين

ونحن لا نعرف عن طانيوس شيئاً ، ولكننا نستطيع أن نقول بشىء من التأكيد إن وفاته كانت من الأسباب التى دفعت أخاه إيليا إلى التغرب ثانية . فى العام التالى ، بعدما نشر هذا الأخير « ديوان تذكار الماضى » ، سافر إلى أمريكا وحط رحاله فى سنسناتى أوهايو قرب أخيه الأكبر مراد ، وكان هذا الأخ قد سبقه هناك منذ زمن . وفى هذه المدينة الجديدة بدأ أبو ماضى من جديد ، فقسم وقته بين تجارة السمانة

وبين النظم . ونظن أن الحياة سارت مسراها العادى حتى آخر مارس (آذار) ١٩١٦ عندما قدم مترى (ديمترى) ، ثالث الإخوة ، إلى سنسناتى . ونحن لا نعلم كيف جاء مترى ولماذا ، ولكن مراسل جريدة « السائح » النيويوركية ، فى عدد ١٩١٦/٤/٣ ، ص ٣ ، يخبرنا بأنه :

« لم يكن فى الحسبان أن يفاجئنا البرق بخبر ارتجت له الأبدان ألا وهو نعى المأسوف على صباه الغض المرحوم مترى ضاهر أبو ماضى شقيق صديقينا العزيزين مراد وإيليا فى سنسناتى أوهايو .

وجد الشاب الفقيد صريعاً فى غرفته فى سنسناتى التى كان قد قدم إليها قبل ثلاثة أيام . وكان أول من رآه على هذه الحالة رفيقه فى المنامة جورج ناصيف ، فدعا بعضهم من الشارع فرأوه ، وأسفاه عليه ، ممدداً لا حراك فيه ، وأثر الرصاص فى رأسه ، والمسدس على الأرض بقربه . فجاء الإخوان على الأثر والأصدقاء ، وبكوا الزهرة فى كمها ذابلة وما نفع البكاء !

مات الذكى الفؤاد والقوى الهمة غير متجاوز العشرين من عمره . مات غير آسف على دنيا كلها متاعب وأهوال ، كلها أحزان وويلات ، فتركها ساخراً بها هازئاً بزخارفها ، ولكن — رحمه الله — لم يرحم مهجتى أخوين كان يحرسانه كحدقة العين ، ويدأبان فى إنجاحه ، ويسهران على حياته ، فتركهما رهن البكاء والعويل » .

هذا ما ذكرته « السائح » ، أما « مرآة الغرب » النيويوركية الصادرة فى اليوم نفسه ، فتقول ، ص ٣ :

« وقد تعددت الإشاعات عن وفاة هذا الشاب الأديب النشيط ، ولكن الحقيقة لم تصل إلينا حتى الآن من شقيقيه المصابين بفقد جناحهما وعزيزهما الذى بالكاد يبلغ العشرين من عمره .

وفى بعض الإشاعات أن الشاب كان ميالا إلى الانخراط فى السلك العسكرى فمنع عنه ، ومن أجل ذلك انتحر . وهناك قوم يقولون إن فى فاجعته مكيدة من أعدائه ، على أننا فى شك من مثل هذا الخبر الأخير » .

ويتابع مراسل « السائح » فى عدد ١٩١٦/٤/٦ ، ص٣ ، سرد الحادث الأليم

فيقول : «جاء السبت (٤/١) وهو ميعاد دفن فقيد الشباب المرحوم متري أبي ماضي ، فصلى على الجثة كاهن إبوسكبالى . ونقلت إلى النعش المعد لنقلها ، فدرجت عربة النعش ووراءها عربات الأزهار المقدمة من الأصدقاء والمعارف فى سنسناتى ، ثم عربات عديدة لجمهور غفير من معظم الوطنيين . وسار الموكب المؤثر إلى المدفن ، إلى المكان الأخير الذى يوضع فيه الفقيد . فأكمل الكاهن الصلاة . ووقف الشقيق الشاعر إيليا أبو ماضى عند القبر فرثى شقيقه بعبارات أثارت عواطف الحزن فى القلوب ، وبكاه بقصيدة بليغة من الدموع فأبكى الأحشاء على الشاب الذابل ، ثم عاد الجميع والحزن مالئ الصدور» .

لقد كانت الرزايا لأبى ماضى بالمرصاد وهو لا يدرى . فلما نزلت عليه هذه الفاجعة تشجع . ووقف للمرة الثانية فى حياته عند قبر أخ أصغر ثان ، وألقى [٩١] .

لوعة فى الضلوع مثل جهنم   تركت هذه الضلوع رمادا
بت مرمى للدهر بى يتعلم   كيف يصمى القلوب والأكبادا
كيف ينجو فؤاده أو يسلم   من تمادى به الأسى فتمادى ؟
أنا لولا الشعور لم أتألم   ليت هذا الفؤاد كان جمادا
كيف لا أبكى وفى العين دموع ؟   كيف لا أشكو وفى القلب صدوع ؟
قل فى الناس من صبر   مختارا

* * *

لحظة ثم صار ضحكى وجيبا   ونشيجاً ، والنوم صار سهادا
رب ، لما خلقت هذى الخطوبا   لم لم تخلق الحشى فولاذا ؟
كلما قلت قد وجدت حبيباً   طلع الموت بيننا يتهادى
صرت فى هذه الحياة غريباً   ليت سهدى الطويل كان رقادا
فتجلد أيها القلب الجزوع   أو تدفق كلما شاء الولوع
عندما أو دما هدر   أو نارا

* * *

كان بين الكرى وبينى صلح   فأراد القضـــاء أن نتعادى

لم أكد أخلع السواد وأصحو　　من ذهولى حتى لبست السوادا
فى فؤادى، لو يعلم الناس، جرح　　لا يُلاشى حتى يلاشى الفؤادا
يا خليلى، هيهات ينفع نصح　　بعدما ضيع الحزين الرشادا
أنت لا تستطيع إحياء الصريع　　وأنا حمل الأسى لا أستطيع
ذا الذى صير الكدر　　أكدارا

ثم يذكر أخاه طانيوس فيقول :

يا ضريحًا على ضفاف «الوادى»　　جاد من أجلك الغمام البلادا
فيك أودعت منذ ست فؤادى　　وبرغمى أطلت عنك البعادا
غير أنى وإن عدتنى العوادى　　ما عدتنى بالروح أن أرتادا
أنبتت حولك الزهور الغوادى　　والليالى أنبتن حولى القتادا
وذبول الغصن فى فصل الربيع　　لو رآه شجر الروض المريع
جمد الماء فى الشجر　　محتارا

وتحرك هذه المأساة المؤلمة بعض الشعراء الأصدقاء أيضاً ، فينظم نعمة الحاج « إلى البلبل النائح »[١٠] ليعزى بها صديقه إيليا ، ويفتتحها بهذا المقطع :

خل عنك النواح وانف عنك الكدر
من تولى استراح من شقاء البشر
فعلى الراقد الرقاد الطويلا　　رحمة الله بكرة وأصيلا
ووداعاً قولوا ، وكفوا العويلا　　ذاك حكم القدر

وينظم « غصن » صديق آخر هو فارس شلنك[١١] .

كان لابد بعد الذى كان أن يضيق إيليا بسنسناتى كما ضاق بالإسكندرية من قبل ، فيتحين فرصة لهجرة ثالثة . وتأتيه الفرصة فى الصيف ، فينتقل إلى مدينة نيويورك على أثر دعوة من بعض الشباب العربى الفلسطينى يعهدون إليه بتحرير « المجلة العربية » التى كانوا يصدرونها هناك .

ولم يكن هذا الخطب الأليم هو الوحيد الذى تلقاه شاعرنا فى فترة الحرب العالمية الأولى ، أى ما بين يونيو (حزيران) ١٩١٤ ونوفمبر (تشرين الثانى)

١٩١٨ . فقد قيل لنا إن إبراهيم ، خامس الإخوة ، توفى خلال هذه الحرب فى الحيدثة ، مسقط رأس الشاعر[١٢] . ونحن لا نعرف بعد كيف ومتى توفى بالتمام ، وإن كنا نرجح أن وفاته كانت بعد أبريل (نيسان) ١٩١٦ . ولاشك أن هذه الوفيات المتتابعة فى العائلة الماضية أثرت فى نفس إيليا فنظم قصائد مثل « فى عصر الرشيد » (١٩١٦) ، و« إذا مت » (١٩١٧) ، و« أنة نائح » (١٩١٨)[١٣] .

ولكن يظهر أن الدهر الذى عبس له زمناً ، وقسا عليه ، بدأ يبتسم له ويرأف بحاله . فيفرح إيليا فى الغربة عندما يخطب دوروثى (دورا) ، ابنة نجيب موسى دياب صاحب جريدة « مرآة الغرب » النيويوركية ، فى ١٩١٨/٤/١٥[١٤] ، ثم عندما يقترن بها بعد سنتين ، فى ١٩٢٠/٤/٢٥[١٥] . ويفرح أيضاً عام ١٩٢١ ، عندما يصله من لبنان أن أخته الوحيدة جنى (أوجينى) ، صغرى الإخوة ، قد اقترنت بإبراهيم نعمة الخورى نعيمة[١٦] . ويرزق فى العام التالى بـ « ريتشارد » ، أول أنجاله ، فيسر ، ويكتب إلى أمين الريحانى من نيويورك بتاريخ ١٩٢٢/٢/٢٨ : « أنا كما تركتنى ، إلا أنى صرت يوم الخميس الموافق ٢٣ شباط (فبراير) أباً ، وصارت زوجتى أماً . فقد رزقنا غلاماً هو عندى أجمل قصيدة نظمتها الحياة فى حياتى[١٧] » .

ويمر عام تقريباً يجىء بعده ربيع ١٩٢٣ بغير المنتظر . أخته أوجينى التى كانت تملأ قلبه وقلب مراد بعواطف الحياة والأمل يتوفاها الله إثر ولادتها الأولى ، فى قوسايا البقاع بلبنان[١٨] .

إذن فقد انقلبت عليه الأيام مرة ثانية بعد أن كان قد أمن جانبها . وكأن الذى أصابه فى إخوته لا يكفيه ، إذ به يجد أن « إدوارد » ، نجله الثانى الذى جاء إلى هذا العالم فى ١٩٢٤/١/١٧ . « قد خلق مريضاً بعاهة دائمة ، عاجزاً عن القيام بأى عمل[١٩] » .

لم يكن فى لبنان ، بعد فقد جنى ، من يستطيع ملء الفراغ الذى تركته فى حياة ظاهر (ضاهر) وسلمى أبى وفاة أربعة أولاد ، ماتوا كلهم فى ريعان الشباب ودون إنجاب . لذلك رحل الوالدان الثاكلان ، خريف عام ١٩٢٣ ، إلى العالم الجديد ، ليكونا قريبين من ابنيهما الأكبرين فى سنيهما الأخيرة .

وأقام الوالدان فى مدينة نيويورك مع إيليا ، ينعمان بمرآى ابنيهما وحفيديهما حتى كانت أواخر عام ١٩٣٠ ، عندما قرر الوالد « أن يغادر هذه البلاد . . . مدفوعاً بعامل الحنين إلى مراتع صباه وشبابه ، فعاد إلى الوطن برغم توسلات نجليه[٢٠] » . وتمضى أشهر يصل بعدها إلى زوجته وابنيه ، فى يناير (كانون الثانى) ١٩٣١ ، نعيه غير المتوقع من المحيدثة . وكان لهذه الوفاة المفاجئة ، بعيداً عن العائلة ، وقعها فى إيليا الذى رثا أباه بقصيدة منها هذه الأبيات المتفرقة [٢١] :

أبى ! خاننى فيك الردى فتقوضت	مقاصير أحلامى كبيت من التبن
فليس سوى طعم المنية فى فمى	وليس سوى صوت النوادب فى أذنى
أبحت الأسى دمعى وأنهبته دمى	وكنت أعد الحزن ضرباً من الجبن
أحتى وداع الأهل يُحْرَمُه الفتى ؟	أيا دهر هذا منتهى الحيف والغبن !

ولكن من عادة الدهر ألا يستقر على حال مهما طال . إذ تبسم له ثانية بعد تجهم . ففى ١٩٣٣/٥/١ يسعد الشاعر بروبرت ، مولوده الثالث والأخير [٢٢] . وتستقيم له الأيام بعد ذلك ، فيهنأ بها بعد أن تحمل الكثير من أذاها . ولا يعكر صفو هذا الهناء إلا فجيعتان ليس لهما ، على ما نظن ، هول فجائعه السابقة . فأما الفجيعة الأولى فهى وفاة حميه بمدينة نيو يورك فى ١٩٣٦/٧/١١ ، إثر عملية جراحية ، وله من العمر — كما قيل — ستة وخمسون عاماً [٢٣] . وأما الفجيعة الثانية فهى وفاة والدته قريبة منه فى ١٩٤٣/٣/٢٢ ، وهى فى سبعينياتها أو ثمانينياتها[٢٤] . وتفيدنا جريدتا « السائح » و « الهدى » بتاريخ ١٩٣٦/٧/١٦ ، ص ٢ و ٣ على التوالى ، بأن أبا ماضى كان قد ودع حماه عند القبر بقصيدة مؤثرة ، لم أوفق إلى العثور عليها بعد . أما والدته فلم يرثها هو ، حسب ما جاء فى « السائح » بتاريخ ١٩٤٣/٣/٢٩ ، ص ٢ ، بل رثاها صديقان له : توفيق فخر مساعده فى تحرير « السمير » ، وفوزى البريدى صاحب جريدة « الإصلاح » النيويوركية ، ومرافقه فى سفرته إلى لبنان عام ١٩٤٨ .

بقى الآن ، وعلى ضوء ما تقدم ، النظر فى الفكرة القائلة بإلحاد أبى ماضى وكفره . لقد استسهل الأب رفائيل نخلة اليسوعى الأمر ، كما استسهله غيره أيضاً ، فحكم على أبى ماضى ، حكماً نظنه فاصلا ، بأنه « كافر متحذلق » ، « يجهد

مخيلته لبث إلحاده السمج » ، وبأنه « قد سخر شاعريته السامية لنشر إلحاده وشكه الفاضحين في أنحاء العالم العربي[٢٥] » ، دون أن يحاول البحث عن بواعث هذا الكفر ، ولو فعل لما صب غضبه على أبي ماضي كما صبه ، بل لقام مدافعاً عنه كما قام الأب لويس شيخو اليسوعي من قبله مدافعاً عن المعري ، حين كتب « تبرئة أبي العلاء من وصمة الكفر الشنعاء[٢٦] » .

وهنا يجب علينا أن نقف لحظة لنتساءل : أليس من الإنصاف لأنفسنا وللأديب المدروس أيًّا كان ، إذا جهلنا تفاصيل حياته ووقائعها ، وتغيبت علينا مكوناته النفسية ومسبباتها ، ولم يكن أمامنا إلا المعلوم من إنتاجه الأدبي نعتمد عليه اعتماداً كليًّا لدرسه ، أليس من الإنصاف — أن نتثبت في أحكامنا عليه ، ونتحفظ في إصدارها ؟

فهم هذا زهير ميرزا ، فكتب في دراسته القيمة تحت عنوان « الله ومشيئته » : « ليس هناك وضوح في رأي الشاعر في هذا الموضوع الخطير ، فلست تلمح إلحاداً وكفراً كما لا تلمح إيماناً واضحاً[٢٧] » . أما أنا فأستطيع أن أقول إن أبا ماضي كان مؤمناً ، غير أن إيمانه كان أكثر وضوحاً في شبابه منه في كهولته وشيخوخته . تشهد بذلك قصيدة مصرية له ما زالت مخطوطة[٢٨] ، جاء فيها :

أنكــرت ربك هــبــا زئــاً   هبلتك أمك جئت نكــــرا
وزعمت أن الله وهـــــم   مر في الأذهـــان مــــرا
ونما مع الأجيــــــال حتى   صار رب النـــاس طـــرا
فعلام ذهنك مــــا بــه   أثر لـــه ، أفكنت صخـــرا ؟
إني لأبصر في الصخـــو   روكل شيء منـــه أثرا
حاشا المهيمن أن يكـــو   ن كما زعمت ، لقيت شــرا
قصرت عن إدراكــــه   فحسبت بــالــرحمن قصرا
وكذاك ذو الطــرف الحسيـ   ـر يخال بــالأضواء حسرا

* * *

قل للأُلى نبــذوا التقى   واستملحوا الكفــر الأمــرا
من ذا الذي أرخى الظــلا   م ، وأطلع القمر الأغــرا ؟

ومن الذى نظم الكـــوا　　كب فى السما بدرًا فبدرا ؟
ومن الذى أرسى الجبـــا　　ل ، وسير الأمواه بحـــرا ؟
ومن الذى نشر الغمـــا　　م وساقه للأرض قطرا ؟
وعجـــائب وغـرائب　　لا أستطيع لهن حصـــرا
أفكل ذلك صـــدفـة　　جاءت لأمر ليس يدرى ؟
إنى تتبعت المشـــا　　هد وهى فوق الأرض تتـــرى
فرأيت هـذى الشمس تط　　لع ثم تغرب وهي حســرى
ولقد نظـرت البحـر يخ　　طـر لا ينى مدًّا وجــزرا
لا يستقــر وكل مـا　　فيـه أراه مستقــرا
والليل يقفـوه النهـا　　ر ويقتفيـه الليل إثـرا
يتنـــاوشـــان كلاهما　　أعمـــارنـــا كرًّا وفـرا
واليوم يمضى لا يعـو　　د كأنمـــا قد حل قبـــرا
والمرء يـولد غير مخـ　　تار ، وبعد يمـوت قســرا
هذا وذاك وكلهـــا　　تدعوالحكيم بـــأن يقـرا
أو بعـد ذلك يستطيـ　　ع المرء بـالديـان كفـرا ؟
رب السمـــاوات العلى　　والموجد الأشيـــاء طـرا
إنى لأرجـــو أن تثـو　　ب إلى الهدى فأنـال أجـــرا
من لم يعمـــر قلبـــه الـ　　إيمان ظل الدهـــر قفـــرا

نعم ، كان أبو ماضى مؤمناً حقًّا ، فلولا هذا الإيمان الذى ملأ قلبه فى صباه لما صمد فى هذه الحياة بعد الذى أصابه فيها . وكم كان صادقاً حين قال فى قصيدة[٢٩] تكشف عن شخصيته :

فما حطمت يد الأيـــام روحى　　وإن حطمت أباريقى ودنى

الحواشي

(١ – ٣) عبد اللطيف شرارة ، « إيليا أبو ماضي : دراسة تحليلية » . بيروت ، دار بيروت/ دار صادر ، ١٩٦٥ ، ص ٦ ، ٢٨ ، ٣٤ على التوالي .

(٤) عيسى الناعوري ، « إيليا أبو ماضي رسول الشعر العربي الحديث » . ط ٢ . بيروت ، منشورات عويدات ، ١٩٥٨ ، ص ١٦ – ١٧ .

(٥) نادرة جميل سراج ، « دراسات فى شعر المهجر : شعراء الرابطة القلمية » . القاهرة، دار المعارف ، ١٩٥٧ ، ص ٣٣٩ ، أو ١٩٦٤ ، ص ٣٣٦ .

(٦ – ٧) إحسان عباس ومحمد يوسف نجم . ، « الشعر العربي فى المهجر : أميركا الشمالية » . بيروت ، دار صادر / دار بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ١٦٥ و ١٥٢ على التوالى .

(٨) راجع القصيدة فى « ديوان تذكار الماضى ، نظم إيليا ظاهر أبو ماضى » ، الجزء الأول . الإسكندرية ، المطبعة المصرية ، ١٩١١ ، ص ٥٩ – ٦٠ .

(٩) راجع القصيدة كلها فى « ديوان إيليا أبو ماضى » ، الجزء الثانى . نيويورك ، مطبعة مرآة الغرب اليومية ، ١٩١٩ ، ص ١٦٦ – ١٦٨ ، و عنوانها « مصرع القمر » . نشرت أصلا بعنوان « دمعة حارة » فى « السائح» ٢٤/٤/١٩١٦، ص٤ . راجع كذلك «السائح» ٢٧/٤/١٩١٦ ، ص ٣ ، تحت عنوان « واجب الشكر » .

(١٠) نشرت القصيدة أصلا فى « السائح » ١٥ / ٥ / ١٩١٦ ، ص ٤ ، ثم فى « ديوان نعمة الحاج » ، الجزء الأول . نيويورك ، المطبعة التجارية السورية الأمريكية ، [١٩٢١] ، ص ١٥٣ – ١٥٤ .

(١١) القصيدة فى « السائح » ٦ / ٤ / ١٩١٦ ، ص ٤ .

(١٢) جرجى إبرهيم نصر ، « أمير شعراء المهجر : إيليا أبو ماضى ، ١٨٨٩ – ١٩٥٧» ، « المشرق » البيروتية ، ت ٢ – ك ١ (نوفمبر – ديسمبر) ١٩٦٩ ، ص ٦٥٢ .

(١٣) نشر أبو ماضى هذه القصائد الثلاث فى « الفنون » النيويوركية ، آب (أغسطس) ١٩١٦ ، ص ٢٤٤ ؛ « السائح » ١١ / ١٠ / ١٩١٧ ، ص ٤ ؛ و « السائح الممتاز » ١٧ / ١ / ١٩١٨ ، ص ٢ ، على التوالى . ثم ضمنها « ديوان إيليا أبو ماضى » ، الجزء الثانى ، ١٩١٩ ، ص ٢٨ ، ١٩٠ ، ١٥٦ . والملاحظ أن أبا ماضى كان يغير أحياناً عناوين قصائده ، عندما ينشرها فى ديوان . فقصيدة « إذا مت » أصبحت « ابنة الفجر » ، و «أنة نائح » أصبحت « يا جارتى » . والعنوانان الجديدان – كما نرى – خاليان من النغمة الحزينة . وأحب أن أشير هنا أيضاً إلى المثل اللاتينى Per aspera ad astra الذى أدرجه أبو ماضى فى نهاية قصيدة « عصر الرشيد » ، ص ٣٢ من الديوان المذكور ، والذى ترجمته « خلال الصعاب إلى النجوم » .

(١٤) « السائح » ١٠ / ٤ / ١٩١٨ ، ص ٢٠ راجع كذلك « السائح » ٢٢/٤/١٩١٨ ، ص ٥ ، التي نشرت تحت عنوان « مداعبة شعرية » قصيدتين : الأولى لندرة حداد نظمها بمناسبة خطبة صديقه إيليا ، والثانية لأبي ماضي يرد بها على ندرة .

(١٥) « السائح » ٢٦ / ٤ / ١٩٢٠ ، ص ٢ .

(١٦) جرجي إبرهيم نصر ، ص ٦٥٦ .

(١٧) « السائح » ٢٧ / ٢ / ١٩٢٢ ، ص ٢ ، و« الريحاني ومعاصروه : رسائل الأدباء إليه » ، جمعها ألبرت الريحاني . بيروت ، دار الريحاني ، ١٩٦٦ ، ص ١٩٨ .

(١٨) « السائح » ١٢ / ٤ / ١٩٢٣ ، ص ٢ .

(١٩) جورج صيدح ، « أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية » . ط ٣ . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٤ ، ص ٢٩٥ . راجع كذلك خيرية خيري ، « إيليا أبو ماضي يقول . . . » ، مجلة « الجيل » القاهرية ، ١٤ / ١١ / ١٩٥٥ ، ص ٣٥ .

(٢٠) « السائح » ٢٩ / ١ / ١٩٣١ ، ص ٢٣ .

(٢١) « الخمائل » . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٥ ، ص ١٠٩ .

(٢٢) « الهدى » النيويوركية ٥/٥/١٩٣٣ ، ص ٣ .

(٢٣) « الهدى » ١١ / ٧ / ١٩٣٦ ، ص ١ ، و « السائح » ١٣ / ٧ ، ص ٢ . لم تذكر هاتان الجريدتان تاريخ ميلاد دياب أو سنه عند الوفاة ، أما جريدة الـ «نيويورك تايمز» بتاريخ ١٤ / ٧ ، ص ٢٠ ، فتفيدنا بأن عمره كان ٥٦ عاماً .

(٢٤) « السائح » ٢٢ / ٣ / ١٩٤٣ ، ص ٣ ؛ ٢٩ / ٣ ، ص ٣ ؛ « الهدى » ٢٣ / ٣ ص ٣ . نرجح هذه السن إذا كان صحيحاً أن الوالد كان له من العمر ٧٦ سنة عندما توفي ، حسب ما ذكره جرجي إبراهيم نصر ، ص ٦٥٢ .

(٢٥) الأب رفائيل نخلة اليسوعي ، « الشاعر إيليا أبو ماضي ، ١٨٩٠ — ١٩٥٧ » ، « المشرق » ، ك ٢ – شباط (يناير – فبراير) ١٩٦٨ ، ص ٨٤ ، ٧٧ ، ٨٦ .

(٢٦) الأب لويس شيخو اليسوعي ، «تبرئة أبي العلاء من وصمة الكفر الشنعاء» ، « المشرق » ، ١ / ١،٢ / ١٩٠١ ، ص ١٠٦٨ — ١٠٧٢ .

(٢٧) « إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر : شعر ودراسة » . ط ٢ . (دمشق) ، دار اليقظة العربية ، ١٩٦٣ ، ص ٨٦ .

(٢٨) تفضل صديقي الدكتور روبرت ماضي فوضع مخطوطات والده بين يدي والتي منها هذه القصيدة .

(٢٩) قصيدة « وقائلة » في « الخمائل » . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٥ ، ص ٣٨ .

(٢) تبرئة أبي ماضي

هناك قصيدة فى ديوان « الخمائل » يتجلى فيها شك إيليا ظاهر أبي ماضى وحيرته تجلياً واضحاً . هذه القصيدة هى القصيدة الثالثة فى الديوان ، وهى تقع فى ٥٧ بيتا[١] ، اختار لها ناظمها عنوان « الدمعة الخرساء » . وقبل أن نباشر النظر فى هذه القصيدة[٢] ، اسمح لى أيها القارئ العزيز — لضيق المكان — أن أوردها لك مختصرة بالشكل الآتى :

سمعت عويل النائحات عشية	فى الحى يبتعث الأسى ويثير
يبكين فى جنح الظلام صبية	إن البكاء على الشباب مرير
قالت، وقد سلخ ابتسامتها الأسى:	صدق الذى قال «الحياة غرور»
أكذا نموت . وتنقضى أحلامنا	فى لحظة ، وإلى التراب نصير ؟
وتموج ديدان الثرى فى أكبد	كانت تموج بها المنى وتمور ؟
خير إذن منا الألى لم يولدوا	ومن الأنام جلامد وصخور
وتوقفت ، فشعرت بعد حديثها	أن الوجود مشوش مبتور
الصيف ينفث حره من حولنا	وأنا أحس كأنني مقرور
ساقت إلى قلبي الشكوك فنغصت	ليلى ، وليس مع الشكوك سرور
فأجبتها : لتكن لديدان الثرى	أجسامنا ، إن الجسوم قشور
لا تجزعى ، فالموت ليس يضيرنا	فلنا إياب بعده ونشور
إنا سنبقى بعد أن يمضى الورى	ويزول هذا العالم المنظور
فتبسمت ، وبدا الرضى فى وجهها	إذ راقها التمثيل والتصوير
عالجتها بالوهم فهى قريرة	ولكم أفاد الموجع التخدير
لكنني لما أويت لمضجعى	خشن الفراش على وهو وثير
(سلب الفؤاد رؤاه والجفن الكرى .	هم عرا ، فكلاهما موتور)
حامت على روحى الشكوك كأنها	وكأنهن فريسة وصقور

ولقد لجأت إلى الرجاء فعقنى — أما الخيال فخائب مدحور
ياليل ! أين النور ؟ إنى تائــه — مر ينبثق ، أم ليس عندك نور؟
«أكذا نموت، وتنقضى أحلامنــا — فى لحظة ، وإلى التراب نصير ؟ »
«خير إذن منا الألى لم يولدوا — ومن الأنام جنادل وصخور »

نظم أبو ماضى هذه القصيدة فى نيويورك ، صيف ١٩٣٢ . وهى كما نرى محاورة دارت بينه وبين امرأة وصفها لنا الشاعر بأنها « متجهمة » ، « مرتاعة » ، « متحيرة » ، « واجمة » ، « ذاهلة » ، « فى مقلتيها دمعة » ، لأنها « سمعت عويل النائحات عشية ، يبكين فى جنح الظلام صبية » . ثم يفيدنا شاعرنا بأن هذه المرأة «ساقت إلى قلبه الشكوك ونغصت ليله ، بسبب حديثها » .

وليس من الصعب علينا التعرف على هوية هذه المرأة ، التى لم يذكر لنا اسمها الشاعر ، إذا وضعنا أمامنا ، جنباً إلى جنب ، تأريخاً دقيقاً لقصائد أبى ماضى ، وكذلك تأريخاً لوقائع حياته . فلم تكن هذه المرأة إلا دوروثى (دورا) ، شريكة حياته ، التى لم يكن حظها فى هذه الحياة بأسعد من حظ إيليا ، الذى رأيناه سابقاً[٣] . فقد كان لها ، هى الأخرى ، نصيبها الخاص والكافى من الشقاء .

فنحن نعلم أنه ما كاد ينقضى عام على زواجها من إيليا حتى مرضت أمها كاترين ، واضطرت إلى دخول مستشفى « روزفلت » بمدينة نيويورك. وهناك بقيت ثلاثة أشهر طريحة الفراش تعانى آلام السرطان . فلما عجز أشهر الأطباء عن معالجتها ، وازدادت وطأة المرض عليها ، أسلمت الروح صباح الثلاثاء ١٩٢١/٨/١٠ ، ولها من العمر ٤٣ سنة ، تاركة وراءها رجلها نجيب وخمس بنات وولد ، أكبرهم دوروثى .

كان هذا أول مصاب أليم لدوروثى مع إيليا . وفى هذا المصاب الأليم ، كتب إيليا ، كصحفى ، فى افتتاحية عنوانها « فقيدتنا » : « سدد القضاء أحد سهامه ، ورمى به قلوبنا فأصاب حبتها . لذلك تشعر هذه الجريدة التى طالما آست أصدقاءها فى المصائب والملمات أنها بحاجة إلى عاطفة كل صديق » . وكشاعر ، نظم إيليا الأبيات الآتية فى حماته :

مضت التى كانت كزنبقة الربى — فى طهرها وأريجهــا وصفاتهــا

فبكت عليها الزهر فى جنــاتها ... وبكت عليها الطير فى وكناتهــا
وكأنما الأغصان أثقلها الأسى ... أفما تراها قوست قاماتهـــا ؟
ومشى النسيم إلى الزهور معزيًا ... يبكى ، وتمسح كفه عبراتهــا
فكأنه ممن ربوا فى ظلهـــــا ... وكأنما الأزهـــار من فتياتهـــا
والله ليس تنى النفوس حقــوقهـا ... حتى تفيض اليوم مع حسراتهــا
إن كان قد سلب الحمام حياتها ... هيهات يسلبنا الردى حسناتهــا

أما مصيبة دوروثى الثانية ، فكانت يوم وضعت نجلها الثانى إدوارد ، فى ١٩٢٤/١/١٧ ، لتجده إنساناً عاجزاً كل العجز فى هذه الحياة .

ثم تأتيها صدمة جديدة ، فجر الاثنين ١٩٣٢/٣/٢٨ ، عندما تنتقل شقيقتها أولغا — رابع بنات نجيب موسى دياب ، وعقيلة فريد إلياس مسلم — إلى رحمة الله إثر عملية الزائدة المعوية ، وهى شابة فى عقدها الثالث . فتبكى دوروثى على أختها مع ذويها من هول الفاجعة .. وعلى حافة القبر ، فى مقبرة غرينوود — يقول لنا محرر جريدة « مرآة الغرب » النيويوركية — « انبرى صهر الفقيدة الأستاذ إيليا أبو ماضى يخاطب الأخت بالدموع والزفرات ، مودعاً من كانت كالفجر ابتسامة ، والعصافير إنشاداً ، والزهور أخلاقاً ، فبكى وأبكى » .

زهرة ولت ، وما ولى شذاهـــا ... خفيت عنا وما زلنا نراهـــــا
فى الأقاحى وأزاهير الــــربى ... فبهاها رائع مثل بهـــــاهـــا
والدرارى كلمـــــا لاحت لنـــا ... فلقد كان سناهـــــا كسناهـــا
والسواقى وهى تشدو للضحى ... فلكم أصغت إلى همس حصـــاها
والحيا ينهل ماء فى الثــــرى ... وأريجًا ورواء فى ثـــــراهـــــا
روع الحى فأمسى ســـــاهراً ... حائراً يسأل : ماذا قد عراها ؟
بالكف المـــوت من قـــاسية ... كيف غالت فى الدجى فجر صباها ؟
كيف لم تشفق على إخوتهـــا ... وذويهـــا ؟ كيف لم ترحم أباها ؟
قد محا أفراحنا صرف الردى ... وطوى آمالنا لما طواهـــــا
فحملنا النار فى أكبادنـــــا ... ونفت أعيننا عنها كراهـــــا
زهرة ، بل روضة كان التقى ... والندى والطهر من بعض حلاهــا

نظـــر الله إليهـــــا بعدمـــا خلع الحسن عليهـــا فـــاشتهاها
فدعاها ، فمضت من عـــــالم لم يكن غـــير طريق لحمـــاها
هل رأيتم أو سمعتم نجمـــــة قبلها قد أصبح القبر سمـــاها ؟

لم يكن فقد أولغا سهلا على دوروثى ، فقد ظلت أشهراً بعد هذه الكارثة ترى شبح الموت ماثلا أمامها ، وتسمع صوت النائحات يرن فى أذنيها . وكانت تجلس إلى إيليا موجعة تريد جواباً ، فيحاول هذا أن يصبرها ، لكن ألمها يحز فى نفسه ، وهمها يكبر همه ، وتحيرها يزيد حيرته ، وتساؤلها يقوى تساؤله ، وشكوكها التى كانت تسوقها إليه كانت تضاعف شكه . وكان نتيجة طبيعية لهذه الأزمة النفسية ، التى مرت بها دوروثى وإيليا معها ، أن تتولد قصيدة « الدمعة الخرساء » ، أو قصيدة « الشك » كما أحب أن أسميها .

قرأ أبو ماضى مرة مقالا عنوانه : « هل يولد الشعراء شعراء ؟ » ، فأوحى إليه هذا المقال بمقال بدأه بهذه العبارة : « عثرت فى مطالعتى على هذا المقال ، فاستهوانى عنوانه ، لأنه سؤال ، ولأن وراء كل سؤال شكاً . والشك فاتحة الإيمان » .

هذا هو رأى أبى ماضى الصريح فى الشك . وشك الرجل ، كما تدل عليه تفاصيل حياته ، ما كان فى يوم ما شك اختيار ، وإنما شك اضطرار .

كان أبو ماضى حياً عندما اتهمه بعض الناس بأنه كان ملحداً كافراً . وكان هذا الاتهام عادة ما يوجه إلى الرجل عقب اختلاف أو خلاف يقوم لسبب أو لآخر بينه وبين هؤلاء ، وكان هذا الاتهام هو أسهل الطرق وأشنعها التى توصل إليها هؤلاء للانتقام من الرجل فى حياته .

أما وقد مضى الرجل إلى ربه ، وانقضى خمسة عشر عاماً على وفاته ، فأى عذر لنا ، بل أى حق — نحن الذين لا نعرفه إلا من دواوينه ، ولا تربطنا به إلا الرابطة الإنسانية — أن نتابع ترديد اتهام قديم بثه بعضهم ضد الرجل لغرض فى نفوسهم ، قبل أن نقوم بدراسة علمية موضوعية حقة للرجل وإنتاجه ؟

توفيت أخته الوحيدة جنى — كما علمنا — فى ربيع ١٩٢٣ ، إثر ولادتها الأولى . فلما وصله نعيها صعق ، وأمسك القلم وخط :

« عجز عقلي عن ضبط العاطفة . لأنه محدود ، وهي غير محدودة .

هي زوبعة لا تقيد بسلاسل .

هي نار سرمدية لا تكافح ولا تغلب .

لذلك لم يستطع العقل ، وهو السلطان الأكبر ، أن يمنعها من العويل والصراخ ، وعجزت أنا عن أن أكون أصم .

ذلك يوم قال الناعي : ماتت « جنى » !

إنني أحس كأن الحزن يعتصر قلبي زفرات ، ويستقطره عبرات ، وأشعر كأن روحي طائر مهيض في أشراك ، أو زهرة تخنقها الأشواك . وكأني لما بي من الحزن عليك أرسف في قيود من الحديد ، ولا قيود ولا أغلال . ولكنها الحسرات في النفس تثقل الخطى ، وتوهن القوى .

كنت في دنياي كالحالم يرى نفسه سائراً في المروج الخضراء ، لا يقع بصره إلا على مشهد جميل ، ولا يطرق سمعه إلا صوت رخيم . فلما جاءني نعيك استيقظت لألمس الأشواك في روحي ، وأحس بوخزها وأبكي . . .

أنا لا أعرف ما بعد الموت ، وربما كان ليس لي أن أعرف . ذلك سر خفي ، ذلك هو اللغز الأكبر . ولكنني أعرف أن في العالم فكرتين ساريتين يعول عليهما الناس . وفي كلتيهما تعزية للروح الكئيبة مثل روحي .

الأولى ، فكرة المؤمنين بالبعث والمعاد ، القائلين إن بعد هذه الحياة حياة أخرى ، أبهى وأجمل ، وأسمى وأكمل ، وإن الموت هو الجسر الذي يعبر عليه الناس إلى تلك الحياة .

والفكرة الثانية ، هي فكرة الفلاسفة الذين يثبتون لإخوانهم البشر أن الإنسان مادة ، وأن المادة لا تفنى ، وأن ما يكون اليوم ولا يكون غداً ، هو كائن موجود ، ولكن في شكل غير شكله الأول .

فأنا على الاعتقاد الأول ، أغبطك لأنك عبرت ذلك الجسر إلى الحياة التي لا حزن فيها ولا غم ، وسأظل أسقي شجرة الأمل في نفسي إلى أن تنطلق من قفصها الترابي ، فتلتقي روحي وروحك ، حيث لا تحذران الفراق .

وأنا على اعتقاد القائلين بتحول المادة وخلودها ، وسأظل مؤمناً بوجودك إيمانى بوجودى ، ولا أرى فى التحول بأساً عليك ، فأنت لا تصيرين إلا إلى حسن جميل ، لأنك كنت وما تحبين إلا الحسن الجميل ، وما فيك إلا الجميل الحسن » .

هذا هو معتقد أبى ماضى ، وهو معتقد واضح ، ليس فيه إنكار للآخرة والمعاد ، ولا إنكار لله خالق العباد . فكيف نستطيع إذن أن نتهم الرجل بالكفر والإلحاد ؟ لست أدرى !

على أنه إذا أصررنا على اتهام الرجل بالشك والإلحاد ، بعد كل الذى أثبتناه آنفاً ، لا يبقى أمامنا سوى اللجوء إلى طريقة أخرى هى « طريقة التحليل الإحصائى الكمى » . و « طريقة التحليل الإحصائى الكمى» هذه ، فى الدراسات الأدبية ، اتجاه علمى حديث يهدف إلى دعم هذه الدراسات باستخلاص الحقائق من النصوص الأدبية موضوعياً ، وقياسها رقمياً .

فلو أخذنا شاعرنا أبا ماضى ، وقسمنا حياته إلى مراحل ، تنهى كل منها بتاريخ نشر ديوان ، ثم حصرنا كل الألفاظ التى لها علاقة بالأصل « ش ك ك » بمعنى « نقيض اليقين » — كما هو مبين أدناه — وبعدها حسبنا عدد مرات ترددها فى كل من هذه المراحل ، لانتهينا إلى الجدول التالى الذى يبين لنا تطور « الشك» عند أبى ماضى ، كفكرة عالقة بذهنه ، مترددة فى نفسه :

المرحلة	١	٢	٣	٤	٥		
الديوان	تذكار	الثانى	جداول	خمائل	تبر		
النشر	١٩١١	١٩١٩	١٩٢٧	١٩٤٠	١٩٥٧؟	مجموع	
شك (فعل)	٣	٢	—	—	—	٥	(—)
شك (اسم)	١	٨	٢	٣	—	١٤	(—)
شكوك	١	١	—	٣	—	٥	(٢)
مجموع الفكرة	٥	١١	٢	٦	—	٢٤	(٢)

والملاحظ من هذا الجدول أنه :

(ا) تكررت كلمة « شكوك » خمس مرات فى دواوين أبى ماضى الخمسة

المعروفة ، منها ثلاث فى ديوان « الخمائل » . وهذه كلها فى قصيدة « الدمعة الخرساء » .

(ب) يتأرجح الشك عند الشاعر صعوداً هبوطاً على التوالى ، فهو أشد فى المرحلتين ٢ و ٤ منه فى المرحلتين ١ و ٣ ، ثم إنه أشد فى المرحلة ٢ منه فى المرحلة ٤ .

(ح) ينعدم الشك كلية فى المرحلة ٥ الأخيرة .

فإذا قارنا كميًّا « الشك » عند أبى ماضى بـ « الموت » عنده ، وجدنا أن فكرة الشك ترتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة الموت ، بل هى صورة حقيقية لها ، كما يتبين من الجدول الآتى :

المرحلة	١	٢	٣	٤	٥	مجموع	
مات	٦	٢٨	٧	١٣	١٥	٦٩	(٣)
موت	١٣	٣٠	١٨	٢٢	١٢	٩٥	(—)
مجموع الفكرة	١٩	٥٨	٢٥	٣٥	٢٧	١٦٤	(٣)

فالواضح من هذا الجدول (وفيه أتينا ، للإيجاز ، بكلمتين فقط من الأصل « م و ت » ، ولم نأت بتلك من أصل « م ن ن » و « م ن ى ») :

(ا) أن فكرة الموت لازمت الشاعر طول حياته .

(ب) أنها تسلطت عليه أكثر فى المرحلتين ٢ و ٤ منها فى المراحل ١ و ٣ و ٥ .

(ح) أنها فى المرحلة ٢ أشد منها فى المرحلة ٤ .

(د) أنها فى المرحلة ٥ الأخيرة تقف منفردة لا يقابلها « شك » .

هذا عن فكرتى « الشك » و « الموت » . أما عن فكرتى « الإيمان » و « الكفر والإلحاد » ، فيمكن أن يقال ، بناء على الجدول التالى ، إن الفكرة الأولى أقوى عند أبى ماضى من الثانية ، وأنها تتجه اتجاهاً تزايديًّا لتصل ذروتها فى المرحلة ٤ ، والثانية تتجه اتجاهاً تناقصيًّا لتنعدم فى المرحلة ٥ .

المرحلة	١	٢	٣	٤	٥	مجموع	
آمن (فعل)	—	٢	١	٢	١	٦	(٢)
إيمان	١	١	٢	٣	٢	٩	(٢)
مؤمن	—	—	١	٢	—	٣	(١)
مجموع الفكرة	١	٣	٤	٧	٣	١٨	(٥)
			* * *				
كفر (فعل)	١	١	—	—	—	٢	(١)
كفر (اسم)	١	٢	—	—	—	٣	(٢)
كافر	—	٢	١	١	—	٤	(٢)
كفران (مصدر)	٢	—	—	—	—	٢	(٢)
إلحاد	١	—	١	—	—	٢	(١)
مجموع الفكرة	٥	٥	٢	١	—	١٣	(٨)

فإذا أردنا تلخيص الجداول الأربعة السابقة فى جدول واحد ، بحيث يظهر أمامنا المجموع الكلى للفكر الأربع مرتباً ترتيباً تنازليًّا ، ثم أدخلنا فى حسابنا هذه المرة الكلمات القوافى (وهى الكلمات التى يمكن أن يقال عنها — مع التحفظ — إن أبا ماضى اختارها دون غيرها للضرورة الشعرية ، والتى بينا عدد مرات ورودها بين قوسين بعد كل مجموع فى الجداول السابقة) لانتهينا إلى الجدول التالى الذى لا يحتاج إلى إيضاح :

الفكرة	مرات ورودها	منها كقافية
موت	١٦٤	٣
شك	٢٤	٢
إيمان	١٨	٥
كفر وإلحاد	١٣	٨

الحواشي

(١) القصيدة فى الأصل كانت ٥٨ بيتاً ، فلما أعيد نشرها فى « الخمائل » ،نيويورك ، مطبعة السمير اليومية ، ١٩٤٠ ، سقط منها بيت ، وضعته بين قوسين فى النص التالى . وهنا أيضاً يجب الإشارة إلى أن القصيدة لا تظهر فى « الخمائل » طبعة دار العلم للملايين ، ولكنها تظهر ملحقة بـ « الجداول » مع قصائد أخرى .

(٢) راجع تحليلا فنيا للقصيدة فى « الشعر العربى فى المهجر : أميركا الشمالية » ، تأليف إحسان عباس ومحمد يوسف نجم . بيروت ، دار بيروت / دار صادر ، ١٩٥٧ ، ص ١١٠ — ١١٢ .

(٣) راجع مقالة سابقة فى « الأديب » البيروتية ، نوفبر (تشرين الثانى) ١٩٧٢ ، ص ٢٢ — ٢٥ .

(٣) نساء ثلاث فى حياة أبى ماضى

(١)

« سمعته – وأنا جالسة أمامه وجهاً لوجه يقول لى :

السحب تركض فى الفضاء الرحب ركض الخائفين
والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبين
والبحر ساج صامت فيه خشوع الزاهدين
لكنما عيناك باهتتان فى الأفق البعيد
سلمى ، بماذا تفكرين ؟
سلمى ، بماذا تحلمين ؟

ولم يقل لى صاحب هذه الأبيات ، الشاعر العربى المعروف إيليا أبو ماضى ، من هى سلمى . كنا جالسين حول مائدة فى مطعم « النجم الشرقى » فى حى بروكلين بنيويورك . وسألته عن أحب قصائد الغزل التى كتبها . فأخذ منى القلم والورقة التى أمامى ورفع نظارته عن عينيه واسترسل فى كتابة القصيدة كلها . ثم ألقاها باسماً ، وكأن ذكرى هذه الأبيات حركت فى نفسه عاطفة قديمة . فسألته ما هى أكبر قصة حب فى حياته ؟ فأجابنى ضاحكاً : « شوها الفضيحة هايدى » .

هذا ما كتبته الصحفية المصرية خيرية خيرى فى مجلة « الجيل » القاهرية ، أواخر عام ١٩٥٥ ، بعدما زارت أبا ماضى قبل وفاته بسنتين ، وكان شاعرنا وقتذاك فى شيوخته ، قد بلغ من العمر السادسة والستين ، ومضى على نظمه لهذه القصيدة ٣٤ سنة .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يختار فيها أبو ماضى قصيدة « المساء » عندما يطلب إليه الاختيار من أشعاره . فقد اختار القصيدة نفسها من قبل لتكون ضمن « مجموعة الرابطة القلمية لسنة ١٩٢١ » . وما كان إصراره على الاختيار نفسه لولا مكانة سلمى عنده .

فمن هى ، يا ترى ، سلمى هذه التى ردد أبو ماضى اسمها فى قصيدة « المساء » ،

والتي ضن على الصحفية بالحديث عنها ؟ من هي هذه المرأة التي ظل إيليا يذكرها حتى آخر أيامه ، وظل قلبه ينبض بحبها ؟ من هي هذه الأنثى التي تغنى بها شاعرنا واستحقت منه قصيدة بكاملها ، أودعها ديوانه « الجداول » ، وخلد فيها اسمها ؟

إن سلمى هذه ليست من نسج خيال أبي ماضي ، كما تعود أن يفعل الشعراء أحياناً ، بل هي امرأة حقيقية عرفها أبو ماضي معرفة شخصية وثيقة ، فعرف آمالها وآلامها في الحياة . سلمى هذه هي سلمى ابنة جرجس إسكندر ، من محيدثة لبنان . هي أم مراد ، والدة إيليا نفسه . تذكرها أبو ماضي أيام كانت شابة في ضحاها ، ثم تصورها — وكان يومها في غربته بعيداً عنها — واقفة على أبواب الشيخوخة ، جالسة ورأسها بين يديها تتطلع إلى الأفق البعيد ، فكان نظمه لهذه القصيدة ، وتصويره لأمه هذا التصوير الدقيق الحي :

أرأيت أحلام الطفولة تختفي خلف التخوم ؟
أم أبصرت عيناك أوجاع الكهولة في الغيوم ؟
أم خفت أن يأتي الدجى الجاني ولا تأتي النجوم ؟
أنا لا أرى ما تلمحين من المشاهد ، إنما
أظلالها في ناظريك
تنم يا سلمى عليك

إني أراك كسائح في القفر ضل عن الطريق
يرجو صديقاً في الفلاة ، وأين في القفر الصديق ؟
يهوى البروق وضوءها ويخاف تخدعه البروق
بل أنت أعظم حيرة من فارس تحت القتام
لا يستطيع الانتصار
ولا يطيق الانكسار

هذي الهواجس لم تكن مرسومة في مقلتيك
فلقد رأيتك في الضحى ورأيته في وجنتيك
لكن وجدتك في المساء وضعت رأسك في يديك

وجلست فى عينيك ألغاز ، وفى النفس اكتئاب
مثل اكتئاب العاشقين
سلمى ، بماذا تفكرين ؟

لتكن حياتك كلها أملا جميلا طيبا
ولتملأ الأحلام نفسك فى الكهولة والصبا
مثل الكواكب فى السماء ، وكالأزاهر فى الربى
ليكن بأمر الحب قلبك عالماً فى ذاته
أزهاره لا تذبل
ونجومه لا تأفل

مات النهار ابن الصباح ، فلا تقولى : كيف مات ؟
إن التأمل فى الحياة يزيد آلام الحياة
فدعى الكآبة والأسى ، واسترجعى مرح الفتاة
قد كان وجهك فى الضحى مثل الضحى متهللا
فيه البشاشة والبهاء
ليكن كذلك فى المساء

ولا يفوتنا بعد قراءة « المساء » إلا أن نلاحظ شدة التشابه بين أفكار هذه القصيدة وكلماتها وبين أفكار وكلمات قطعة « ابسمى » ، التى أدرجها أبو ماضى فى « الخمائل » ، والتى تكاد تكون ملخصاً لـ « المساء » ، ولاشك أيضاً أنها موصولة بها .

ففى الاثنتين « سماء ومساء ، نجوم وغيوم ، أحلام وابتسام ، زهر وستر » . أما « الضوء ، والظلام ، والجنات ، والأريج ، والتهلل » الذى تطالعنا به قصيدة « المساء » فيرادفه فى « ابسمى » : « النور وتواريه ، والروض ، والشذا ، والفرح » .

لقد ردد إيليا فى « ابسمى » على سلمى ، وهى فى شيخوختها ، ما خاطبها به من قبل فى « المساء » ، وهو يحاول أن يخفف عنها ما لاقته من مآس فى حياتها :

ابسمى كالورد فى فجر الصباء	وابسمى كالنجم إن جن المساء
وإذا ماكفن الثـلج الـثرى	وإذا ما سـتر الغـيم السماء
وتعرى الروض من أزهـــاره	وتوارى النور فى كهف الشتاء
فاحلمى بالصيف ثم ابتسمى	تخلق حولك زهراً وشـــذاء
وإذا سر نفوساً أنهـــا	تحسن الأخذ فسرى بالعطـــاء
وإذا أعياك أن تعطى الغنى	فافرحى ، إنك تعطين الرجـــاء

وبرغم أننا لا نعرف شيئاً مفصلا عن أم إيليا ، كفتاة وامرأة وزوجة وأم وجدة ، فإن الوقائع الرئيسية فى حياتها أمامنا لا تنقصنا . فقد تزوجت سلمى ابن بلدتها ظاهر (ضاهر) بن إيليا بن طانيوس أبى ماضى ، وأنجبت ستة أولاد هم : مراد ، إيليا ، مترى (ديمترى) ، طانيوس ، إبراهيم ، جنى . ثم فجعت الأربعة الصغار وهم فى ريعان الشباب . ومن قرية المحيدثة ، انتقلت إلى قوسايا البقاع لتسكن هى وزوجها مع ابنتها جنى ، عندما تزوجت هذه الابنة . فلما توفى الله جنى ، ربيع ١٩٢٣ ، رحلت سلمى ، خريف نفس العام ، إلى الولايات المتحدة بصحبة رجلها ، لتستقر معه فى مدينة نيويورك . وهناك ، بعد حوالى سبع سنوات من العيش أمريكا ، حن الزوج إلى مراتع صباه وشبابه ، فرجع وحده إلى المحيدثة ، ليلقى ربه بعد أشهر من رجوعه ، مخلفاً وراءه سلمى فى رعاية إيليا . ومع إيليا بقيت حتى وفاتها المنزل رقم ٢٥٣ شارع ٨٤ فى بروكلين .

لقد عاشت سلمى قرب إيليا ما يقرب من عشرين عاماً ، تنعم بمرآه وبمرآى أولاده الثلاثة أحفادها و « دورا » أمهم ، وبمرآى ابنها الأكبر مراد وقرينته سليمة ، بين الحين والحين . ولما جاء دفنها فى مقبرة جبل الزيتون ، مارس (آذار) ١٩٤٣ ، وقف توفيق فخر ، المحرر يومئذ فى جريدة « السمير » ، يرثيها وتبعه فى الرثاء ، فوزى البريدى ، صاحب جريدة « الإصلاح » النيويوركية .

هذا ما نستخلصه عن سلمى أبى ماضى ، من المراجع التى بين أيدينا . إلا أن هناك شيئاً آخر مهماً ، غير ما ذكرناه ، نعرفه عن سلمى ، ونستخلصه من أدب أبى ماضى نفسه . ذلك هو أن إيليا كان محباً لسلمى ، رفيقاً بها ، شفيقاً عليها ، وأن هذا الشعور الجميل الذى كان يكنه إيليا لها ليظهر جلياً

واضحاً فى قصيدة « المساء » ، كما يظهر فى قصيدتين أخريين ، قصيدة « هى » وقصيدة « وثبة خيال » . أما القصيدة الأولى فقد أودعها شاعرنا « الجداول » أيضاً ، وأما الثانية فما زالت مجهولة غير متداولة . ومع أن هاتين القصيدتين ترجمتا عن الإنجليزية بتصرف ، إلا أنهما تعبران عن شعور إيليا نحو والدته ، وتقومان دليلاً آخر على حبه لها . نسمعه فى ختام « هى » يقول :

وأنت ــ قال الصحب واستضحكوا ــ	هل لك حسنــــاء تحبيهـــــا ؟
قال : أجل ، أشرب سر التى	بالروح تفدينى وأفديهـــــنا
صورتها فى القلب مطبوعـــــة	لا شىء حتى الموت يمحوهـــا
لا ترضـــــانى ريـــاء ولا	تلثمنى كذبـــــاً وتمويهـــــا
يضيع مالى ، ويزول الصبى	وحبها باق وحبيهــــــــــــا
قد وهبتنى روحهـــــــا كلها	و لم تخف أنى أضحيهـــــا
سر التى لا غـــــــادة بينكم	مهما سمت فى الحب تحكيهـــــا

. . . .

فصاح رب الدار : ياسيدى ،	وصفتها ، لم لا تسميهــــــــا ؟

أتخجل باسم من تهوى ؟
أحسناء بغير اسم ؟
فأطرق غير مكترث
وتمتم خاشعاً . . . : أمى

ويقف إيليا فى « وثبة خيال » ــ أو قصيدة « كيف ودع البطل المجنح أمه » كما هى معنونة أيضاً ــ طالباً دعاء أمه ، مشجعاً إياها ، فيقول على لسان الطيار الأمريكى تشارلز لندبرج ، قبل ركوبه الطائرة لعبور المحيط الأطلسى :

حان المسير عن الحمى ، أماه مالَكِ واجمَهْ ؟
أفتجزعين من الكوارث . والكوارث نائمه ؟
المجد يدعونى إليـــــه ، وقد لمحت علائمـــه
فى الشاطئ الثانى ، فقومى ودعينى بـــــاسمه
إنى تزودت الرجـــــاء ، وحبذا منك الدعاء .

* * *

تبكين ؟ ما سبب البكاء ، وأى خير فى الدموعْ ؟
صونى لآلئ مقلتيكِ . فلست أرضى أن تضيع
لا تتركى الإيمان تسحقه المخاوفُ فى الضلوع
واصغى إلى صوت الرجاء يقول فى غدٍ الرجوع
أمى ! اللقاء غداً . إذن فإلى اللقاء ، إلى اللقاء

* * *

أما إذا خاب الرجاء ، وخاننى ذاك المضـــاء
وجميع أحلامى تلاشت واضمحلت كالهبـــاء
وأراد يصرعنى القضاء . ونـــال منى مـــا يشاء
فهويت من أوج السماء إلى الحضيض .. إلى العفاء
لا تعولى كالنادبات ، فلن يردنى البكـــاء

داعب « مداعب » مرة أبا ماضى ، عام ١٩٢٤ ، بمقالة طريفة نشرها فى « السائح » ، تحت عنوان « حلم مزعج . الحكم على محرر « المرآة » بالإعدام . محكمة شعبية فى السماء » ، افتتحها بقوله :

« توفيت والدتى بالأمس ، فنعيتها إلى أبناء أمتى على صفحات الجرائد العربية ، وذيلت النعية بهذه العبارة : « لا لزوم لإرسال أزهار » .

كان ذلك لأننى أردت اتباع المبدأ الجديد ، وهو تحويل تلك الأموال الطائلة التى كان ينفقها السوريون على الأزهار إلى مساعدة المشاريع الخيرية المفيدة .

ولا تخفى أن صاحب هذه الفكرة الحميدة هو محرر « مرآة الغرب » .

فلما طالع أبو ماضى المقالة ، بعث إلى مداعبه برد ، ظهر فى العدد التالى بعنوان « صدى الحلم المزعج » ، جاء فيه :

« قرأت فى اليقظة حكايتك الكرى ، فسرتنى منها أمور ، وساءتنى أمور ...

ساءنى ، بل أغضبنى ، ارتعاشك واضطرابك ، واستيحاشك عند رؤيتك شبح والدتك يقترب منك . وكان يجب أن تبتهج روحك برؤية خيالها ، كما كنت تبتهج وهى معك فى هذه الدنيا ، لا أن يغمى عليك من الخوف . ليت شعرى ،

إذا كان المرء يرتاع من رؤية أمه فى الكرى أوفى اليقظة ، فبأى الناس يستأنس؟ » .

هذا هو شعور إيليا تجاه والدته سلمى ، المرأة الأولى والكبرى فى حياته ، شعور ابتهاج وشعور استئناس دام معه فى هذه الدنيا على الأيام حتى الممات .

(٢)

أما المرأة الثانية فى حياة شاعرنا أبى ماضى فهى أخته أوجينى ، أو جنى كما كان يحلو له أن يدعوها هو وأخوه الأكبر مراد . ونحن لا نعلم عن جنى إلا أقل القليل ، فمعلوماتنا عنها محدودة للغاية . كل ما نعلمه أنها كانت شقيقة إيليا الوحيدة ، وأنها كانت أصغر أفراد العائلة ، وأنها« تعاطت مهنة الخياطة ، واقترنت ١٩١٨ (هذا ما يذكره جرجى إبرهيم نصر ، والأرجح أنه ١٩٢١) بالشاب إبرهيم نمر الخورى نعيمة ، من قرية قوسايا البقاع ، وأسكنت والديها معها » .

ولأن إيليا كان يعز جنى كثيراً ، فقد خلدها فى مقالتين نشرهما فى جريدة « مرآة الغرب » . أما المقالة الأولى فقد ظهرت بعنوان كبير « أختى ! » . وتحت هذا العنوان الكبير ، طبع الإهداء الآتى بالحرف الصغير : « مرفوعة إلى النجمة الصغرى فى سماء العائلة » . ولن أترجم للقارئ ما كتبه أبو ماضى فى مقالته هذه بإمضاء « الجندى المجهول » ، بل أكتفى — لضيق المكان — بإيراد افتتاحية المقالة وكذلك ختامها كما خطها أبو ماضى بنفسه ، فهذا فى رأيى أجدى . قال :

« الدنيا أم » ، أجل ، والدنيا أخت أيضاً !

تشاءموا عند ولادتها ، أما أنا فقد قدست وأقدس وسوف أقدس الساعة التى قدستها بولادتها .

نعم ، إن أمى عنوان الحنان والحب والدموع ، ولا غرو ، فأنا ثمرة أحشائها ، وسند ضعفها ، وخادم هنائها وشيخوختها . أما أختى فمثال الانعطاف الفائق والدائم والشافى ، فى حين لست ثمرة أحشائها ، ولا سند ضعفها ، ولا خادم هنائها ، ولا رفيق شيخوختها . . .

الفتى « يترك أباه وأمه و يلتصق بامرأته» ، والفتى يهجر أهله وموطنه ومبادئه . . . من أجل أنانيته . أما الفتاة الأخت التي تسمو بنكران ذاتها على العصافير والأرواح والملائكة ، فتظل ، أينما كانت وحيثما تذهب ، تائقة إلى موطنها ، متلهفة لوالديها وإخوانها ، متعطشة أبداً إلى نسمات بلدها أو قريتها أومزرعتها .

هي مثال تعاليم المسيح العلوية .

هي جمال الحياة المعنوية الروحية .

هي الأب والأم والأهل والوطن .

هي — هي أختي ! » .

ونحن لا ندرى المناسبة التي أوحت إلى إيليا بكتابة هذه الكلمة ، ولكننا نرجح أنها كانت زواج جني ، كما توحى إلينا به المقالة .

أما المقالة الثانية ، فقد نشرت بعد عام ونصف على نشر المقالة الأولى ، بالعنوان نفسه ، مصدرة هذه المرة بصورة جني . والمقالة مرثاة تفجع فيها إيليا على شقيقته حين وصله من لبنان خبر وفاتها ، وهي عروس ، إثر ولادتها الأولى .

وكان على قدر حبه لجني مقدار تفجعه عليها .

كتب يناجيها ، ونفسه في منتهى الألم والحزن :

« يا أختي !

جاء نيسان (أبريل) يبشر الناس بولادة الأزهار في الخمائل والروابي ، وجاءني بمصرعك ، وأنت أحب إليّ من كل ريحانة وزهرة .

وجد الناس ربيعهم ، أما أنا فقد أضعت في نيسان ربيعي .

ونبت الورد والبنفسج والأقحوان في الحدائق ، وعلى ضفاف الأنهر ، وجوانب الغدران ، ونبت الشوك والعوسج والقتاد في قلبي .

وكان بيني وبينك هذا الأقيانوس الذي تجتازه السفن الكبرى والصغرى في أيام ، فأصبح بيني وبينك أوقيانوس لا يعبر بالسفن ولا بالطيارات في دهور ، هو أقيانوس الأبدية .

لا أقول كما يقول الناس إن الموت جبار غشوم ، وظالم لا يرحم ، ولكنى أقول إن الإنسان مخلوق ضعيف .

وأنا ، يا أختى ، إنسان .

وددت ألا أبكى ، وددت ألا أتألم ، فكأننى وددت أن أكون جماداً . وما لى أن أكون كما أشاء لأن أمرى ليس فى يدى ، وإن خلت أنه فى يدى .

وددت ألا أبكى ، فإذا صوت خفى فى نفسى يهيب بى ، كأنه يبرر ضعفى : « لم خلق القلب إذا كان لا يتزلزل ؟ ولم خلقت الدموع إذا كانت لا تسيل ؟ »

فأحنيت رأسى خاشعاً وبكيت !

مضى على زمان طويل بالنسبة إلى عمرى ، أو إلى عمر الإنسان ، وأنا أعلل الحياة والموت بما يعللهما البشر ، ولكن فى لحظة واحدة كلمح الوهم ، أضعت كل ما عرفته من المقاييس العقلية ، وصرت كلى قلباً دامياً يتوجع .

ذلك يوم قيل لى إنك انتقلت من الحيز الذى أنا فيه .

وكنت أحسب أن الدمع يجلب الدمع ، والأسى يجلب الأسى ، وأن فى ذلك السقم والضنك والحسرة . ولكننى أدركت ، ويا هول ما أدركت ، أن الحزن لا لغة له إلا الدموع ، وأنها ألفاظ لا توجد فى المعاجم ، بل حيث القلوب الصديعة والأرواح المعذبة ، وإنه إذا كانت قوة الألفاظ فى اتساقها وانتظامها ، فقوة الدموع فى انفراطها وانتثارها . فأنا لو اجتمع لى كل ما فى الكتب من صور المعانى ، لما استطعت أن أترجم عن أيسر ما خامرنى من الحزن عليك ، يا أختى ، فهو ليس أسف النفس على ضائع ، ولكنه حزن يخالطه الخوف على حب فوجئ بالزوال . هو جزع النفس على أسمى وأعذب ما تحيا به وتسر ، على حب الأخت ، الذى إذا ذهبت الأخت ذهب معها جزء من الروح ، وهو هذا الحب .

وطالما قال لى عقلى ، فأقنعنى : « إن الحياة أول الموت ، وإن فى المجىء الذهاب ، وفى الشروق الغياب ، وإن الموت غاية كل حى » . فكنت هكذا أقول لكل من فجع بحبيب ، أو أصيب بنسيب ، لكى أصرفه عن اليأس . ولكننى لما نعيت إلى ، خذلنى عقلى ، وخذلنى لسانى ، وأدركت أن ما كنت

أداوى به اليأس ، وأعالج به الجزع ، هو هو اليأس نفسه ، والجزع كله .

ذلك يوم تيقنت أنى هذه الدنيا بلا أخت .

وكنت أقول لنفسى ، إن البكاء ضعف ، وإنه يهد عزم الباكى ، ولا يجدى المبكى ، وإن بعض الدموع فى بعض المواقف إهوان . ولكنى لما فاجأنى النعى لم أستطع أن ألجم جواد الدمع فبكيت . وكان دمعى سخيناً حارًّا كأنما مقلتاى ذبيحان يشخبان بالنجيع .

عجز عقلى عن ضبط العاطفة ، لأنه محدود ، وهى غير محدودة .

هى زوبعة لا تقيد بسلاسل .

هى نار سرمدية لا تكافح ولا تغاب .

لذلك لم يستطع العقل ، وهو السلطان الأكبر ، أن يمنعها من العويل والصراخ ، وعجزت أنا عن أن أكون أصم .

ذلك يوم قال الناعى : ماتت « جنى » !

إننى أحس كأن الحزن يعتصر قلبى زفرات ، ويستقطره عبرات ، وأشعر كأن روحى طائر مهيض فى أشراك ، أو زهرة تخنقها الأشواك ، وكأنى لما بى من الحزن علياك أرسف فى قيود من الحديد ، ولا قيود ولا أغلال . ولكنها الحسرات فى النفس تثقل الخطى ، وتوهن القوى .

كنت دنياى كالحالم يرى نفسه سائراً فى المروج الخضراء ، لا يقع بصره إلا على مشهد جميل ، ولا يطرق سمعه إلا صوت رخيم . فلما جاءنى نعيك استيقظت لألمس الأشواك فى روحى ، وأحس بوخزها وأبكى .

عزيز علىّ ، يا أختى المحبوبة ، وأنت أختى الوحيدة ، أن تكون هذه خاتمة الرجاء بلقائك بعدما مرت السنوات على هذا الرجاء .

وعزيز على أن يغيب ذلك المحيا الوسيم تحت أطباق الثرى .

ووجيع أن يقف ذلك القلب عن الخفقان .

ولكنى على ما بى من الحزن المذيب أشعر أنك لا تزالين جزءاً من نفسى . فأنت حية عندى ما دمت أنا حيًّا .

وأكبر ما يعزيني هو أنك عشت كريمة ومت كريمة .

أنا لا أعرف ما بعد الموت ، وربما كان ليس لى أن أعرف . ذلك سر خفى ، ذلك هو اللغز الأكبر . ولكنى أعرف أن فى العالم فكرتين ساريتين يعول عليهما الناس . وفى كلتيهما تعزية للروح الكئيبة مثل روحى .

الأولى ، فكرة المؤمنين بالبعث والمعاد ، القائلين إن بعد هذه الحياة حياة أخرى ، أبهى وأجمل ، وأسمى وأكمل ، وإن الموت هو الجسر الذى يعبر عليه الناس إلى تلك الحياة .

والفكرة الثانية ، هى فكرة الفلاسفة الذين يثبتون لإخوانهم البشر أن الإنسان مادة ، وأن المادة لا تفنى ، وأن ما يكون اليوم ولا يكون غداً ، هو كائن موجود ، ولكن فى شكل غير شكله الأول .

فأنا على الاعتقاد الأول ، أغبطك لأنك عبرت ذلك الجسر إلى الحياة التى لا حزن فيها ولا غم ، وسأظل أسقى شجرة الأمل فى نفسى إلى أن تنطلق من قفصها الترابى ، فتلتقى روحى وروحك ، حيث لا تحذران الفراق .

وأنا على اعتقاد القائلين بتحول المادة وخلودها ، وسأظل مؤمناً بوجودك إيمانى بوجودى ، ولا أرى فى التحول بأساً عليك ، فأنت لا تصيرين إلا إلى حسن جميل ، لأنك كنت وما تحبين إلا الحسن الجميل ، وما فيك إلا الجميل الحسن .

سأعطف على الزنبقة فى الحقل لأنها نقية مثلك ، ولعل قطرات الندى اللماعة عليها بعض أمانيك .

وأفتح باب روحى للفجر لعله ابتسامتك .
وألتفت إلى البرق المتهلل ، منتبه الحواس ، لعله خطرة من خطرات روحك .
وأصغى بكليتى إلى النسيم السارى فى الرياض لعله يحمل أنفاسك .
وأميل بسمعى إلى كل طائر غرد لعله يردد اسمك .
وأستزير الأحلام فى الكرى لعل فيها خيالك .

سأراك فى الزهرة النضرة ، وقطرة الندى ، والفجر الضاحك ، والطائر

الغرد ، والكوكب المتألق ، لأنك كنت لى هذه كلها فى حياتك .

وسوف يتجدد حزنى عليك ما قال قائل : « يا أختى !! » .

هذه هى مرثاة إيليا فى جنى ، وهى فى الحق قصيدة عاطفية منثورة نلمس فيها مدى معزة إيليا لأخته ، وعمق الأثر الذى تركته وفاتها فى حياته .

(٣)

بقى أن نتحدث عن دوروثى ، المرأة الثالثة والأخيرة فى حياة أبى ماضى . ودوروثى ، أو « دورا » كما تُدْعى تدليلا ، هى البنت الكبرى لنجيب موسى دياب وكاترين سابا . وهى أخت عايدة وسلمى وأولغا وأليس وجورج . تعَرَّف عليها إيليا عام ١٩١٨ ، حين عمل محرراً بجريدة والدها — جريدة «مرآة الغرب» النيويوركية ، ثم خطبها فى ٤/١٥ من نفس العام ، وبعد عامين اقترن بها فى ١٩٢٠/٤/٢٥ وهو على وشك إتمام الحادية والثلاثين ، فأنجبت له رتشرد فى ١٩٢٢/٢/٢٣ ، وإدوارد فى ١٩٢٤/١/١٧ ، وروبرت فى ١٩٣٣/٥/١ ، وظلت إلى جانبه حتى وفاته ١٩٥٧ . فلابد إذن أن يكون لدوروثى — وقد شاركت إيليا حياته أربعين سنة — أثرها فى حياة إيليا ، وبالتالى فى أدبه .

ولعله من المفيد ، قبل محاولة التعرف على دوروثى فى أشعار زوجها ، محاولة التعرف — قدر المستطاع — على أبى ماضى أيام عزوبته .

يظهر لنا من أشعار شاعرنا التى نظمها أيام الشباب الغض أنه كان شاباً مستقيماً ، لم يعاقر الخمر ، ولم يواصل النساء . اسمعه يقول عن نفسه ، فى أحد مطالعه ، وكان فى الثالثة والعشرين :

لا الغيد تصبينى ، ولا الأقداح مهما تغالى فيهما المُدّاح

واسمعه يقول ، وهو فى نفس السن :

أبت نفسى النزول إلى الدنايا وقلبى أن يميل إلى التصابى
فما دانيت أقداح الحميا ولم أهمم بغانية كعاب
وما منع الزهادة فىّ أنى حديد ناظرى ، غض إهابى

وما كان الشباب ليزدهيني لأني ما أمنت على شبابي
أضن به على الشهوات ضني على «هند» بشعري والـ« رباب »
ربيع العمر إن يذهب جزافاً أكن من بعده صفر الوطاب

واسمعه يصف بعض أقران عصره ، وكان فى نفس السن أو دونها :

ألهتهم الدنيا ، فهذا بالطلى صب ، وهذا بالحسان متيم
والخمر فاتكة . فكيف بناعم ترف ، يكاد من النسائم يسقم ؟ !
قد أصبحوا وقفاً على شهواتهم يستسلمون لها ، ولا تستسلم
لم يفهموا معنى الحياة وكنهها إن البلية أنهم لم يفهموا
فليقلعوا عن غيهم ، إنى أرى خور الشيوخ بهم ، ولما يهرموا

واسمعه وهو فى الخامسة والعشرين يقول ، بعدما وصف تلك اللقاءات اللذيذة البريئة التى قضاها مع حبيبة له فى « مسرح العشاق » :

ظن الأنام بنا الظنو ن ، وما اجترحنا من نكير
قد صان بردتها الحيا ءُ ، وصانني شرفى وخيرى

واسمعه مخاطباً « أخت المهاة » :

يا « هند » ، كم ذا الأنام تعذلنا وما أثمنا ، ولا بنا وزر
فابتدرت «هند» ، وهى ضاحكة : ماذا علينا ، وإن هم كثروا ؟
ذرهم ، وإن أجلبوا وإن صخبوا ولا تلمهم ، فما هم بشر
فقل لمن يكثر الظنون بنا : ما كان إلا الحديث والنظر

على أن مثالية أبى ماضى هذه فى حبه للمرأة ، كما تبديها لنا الأبيات السابقة ، لا تنسجم وما جاء فى قصيدتين أخريين . قال فى « واقعة حال » ، وكان فى الثالثة والعشرين أو دونها :

للوجد أضحى مسكناً قلبى ، وجسمى للضنا
وبات للآمال وال آلام رأسى وطنا
فقدت صبرى فى الهوى ومهجتى ، و الوسنا
وغادة ، لو قيل : من جن بها ؟ قلت : أنا

تمنعني الوصل كمـــا يمنعني الدهر الهنـــا
عانقتهـــا ، ولم أكـــن عانقت قبلا غصنـــا
وبت أجني بفمـــي من فمهـــا مثل المنى
والدهر عنـــا غافـــل ونحن في يقظتنـــا
ولا تسل عمـــا جرى منـــا ، وكان بيننـــا

وقال في « حكاية قديمة » ، وكان في السابعة والعشرين :

وقربها مني وقربني الهوى إلى أن ظننا أننا واحد فرد
كأني ما ألصقت ثغرى بثغـــرها ولا بات زندى وهو في جيدها عقد
ولم نشتمل بالليل ، والحي نائم ولم نستتر بالروض ، والليل ممتد
ولا هزنا شدو الحمائم في الضحى ولا ضمنا بيت ، ولم يَحْوِنا بُرْد

فكيف نفسر عدم الانسجام هذا ؟ أكثر الظن أن أبا ماضي كان أحد ثلاثة في هاتين القصيدتين : إما مقلداً ، وإما قاصًّا راوياً ، وإما شاطحاً بخياله .

استمع إليه في « روح الصب » المجهولة يعارض أحمد شوقي (١٨٦٨ — ١٩٣٢) في غزليته المعروفة « مضناك جفاه مرقده » ، وكان أبو ماضي وقتئذ في الثالثة والعشرين أو دونها :

أأقوم الليـــل وتـــرقده ؟ ظلم حـــاشاك تؤيـــده
فارحم من بـــات على خطر وكفى بالهجـــر تهـــدده
ما ذنبي عندك ؟ ما وزرى ؟ قل لي فعساى أفنـــده
قسماً بالحب ، ومصدره عيناك ، وروحي مـــورده
بالسحر ، وطرفك مكتمـــه بالورد ، وخدك مـــرقده
بالحسن ، وشخصك واحـــده بالشعر ، و « عبدك » سيده
ألا أشفقت على دنف قد أشفق منـــه عـــوده ؟
من كان رجاؤك يمسكـــه وأمسى واليأس يبـــدده
يطوى الأحشاء على حـــرق ويبيت أسى يتـــوسده
قمـــر كالرئم مقلـــده رئم كالغصن تـــأوده

وضّاح الطلعـــة رائعهـــا   بسام الثغـــر منضده
ممشــوق القامة أهيفهـــا   مفلوك الخصـــر مصفـــده
أوشكت لفرط محـــاسنه   – غفرانك ربى – أعبده
يا روح الصب ومهجته   ما ضرك لو تتعهده ؟
أيروقك أن يفنى أسفاً   فى الحب ويبقى حسده ؟
مر طيفك يطـــرقنى سحراً   أحمد مولاى وأحمـــده
أو عدنى زورتـــه وامطل   كى أقضى عمــــرى أرصده

واستمع إليه بعد هذا فى « حكاية حال » المجهولة ، وكان فى نفس السن عندما نظمها :

فضممت خصراً قد حكى بدنى   أرأيتم طيفا يضم هبـــا ؟
وإذا بها من قحتى نفـــرت   فلزمت عند نفارهـــا الأدبـــا
قالت : أراك أسأت . قلت : إلى   جسدى الذى حملتـــه التعبا
قالت : وثم طمعت . قلت لها :   فى العفو منك ، إذا اللسان كبا
قالت : وما ترجو ؟ قلت لهـــا :   لافضة أبغى ولا ذهبــــــا
ما ثم غير الوصل من طلب   إن كنت ممن يقبل الطلبـــا
قالت : رجوت المستحيل ، إذاً   أخشى عليك الويل ، والعطبـــا
فأجبتها – والدمع منسجم :   واحسرتى ، إن لم أنل أربـــا !
لا تعجلى فى قتل نفس فتى   ما زال غضًّا يافعًا رطبا !
فتحولتْ عنى ، وقد ضحكت   ضحك الرضى ، وتمايلت عجبـــا
وتقدمتْ ، والثغر مبتسم   فكأنه لم يعرف الغضبـــــا
فأعدتُ من ولهى لهـــا قبلى   فأعار قلبى خدها اللهبـــــا
وهصرتُ قَدًّا خلته غصنـــا   ورشقت ريقًا خلتـــه ضربـــا
ياليلة سمح الزمـــان بهـــا   ووفّى ، فرَدّ علىَّ ما سلبـــا
مازلت أبصر من محاسنهـــا   روضًا ، ومن إحسانها سحبـــا
حتى انجلى جنح الظلام ، وقد   هجم الصباح ، أفقت مكتئبا
حلم ، وما الدنيا سوى حلم   يا حبذا لو لم يكن كذبا

لاحظ محمد عبد الغنى حسن على أبى ماضى وهو يكتب عن « نفحات الحب ولفحات العشق فى أدب المهجر » ، لاحظ عليه « أنه لم يتناول « الحب » فى شعره عن تجربة ، ولم يعالج العشق عن خبرة ذاتية ، وإنما تناولهما عن حكمة نظرية . وفلسفة غير عملية » ، ثم قال : « ولعله كان مشغولاً بفلسفة العشق عن العشق ذاته » .

ولاحظ زهير ميرزا الشيء ذاته تقريباً ، فقال : « إن شعر الشاعر — فى مختلف القصائد والمقطوعات — لا يعدو ما نسميه « النسيب » من حيث إنه يقول دون أن نستشعر عاطفة الشاعر الخاصة تجاه مخلوقة بعينها ، أو حبيبة وقف عليها حياته وشعره ، وكأن الشاعر الكبير لم يعرف الحب ، ولم يستوحه فى منظومه ! » .

أما نازك الملائكة ، فقد علقت على شعر أبى ماضى عامة بقولها : « إن القصيدة عنده فكرة قبل كل شيء ، والعاطفة بإزائها ثانوية تماماً ، حتى إننا لنفتقد شعر الحب فى ديوان « الجداول » (١٩٢٧) افتقاداً شبه تام » .

فإذا بحثنا عن الأسباب التى أفقدت شعر الحب عند أبى ماضى — أو كادت تفقده عنده — قد نجد أن أوجهها هو ذلك التحول الجذرى المبكر فى مفهوم أبى ماضى للشعر ، أو — إذا استشهدنا برأيه وهو يقدم لـ « ديوان نعمة الحاج ، الجزء الأول » ، عام ١٩٢١ — هو ذلك الانتقال الطبيعى من « دور المجانسة والتقليد » إلى « دور الابتكار والتوليد » الذى يمر به كل شاعر حقيقى .

فبعد أن شبب أبو ماضى بالمرأة زمناً ، ونظم « فى الغزل والنسيب » ، وأفرد لهذا الفن باباً مستقلا فى « ديوان تذكار الماضى » (١٩١١) ختمه بالبيتين :

أنـــا إمــام الذين هـــاموا وأى قوم بلا إمام ؟
فليس قبلى ، وليس بعـــدى ولا ورائى ، ولا أمـــامى

نراه ينبذ هذه « الإمامة » ، وشعرها معها ، من أجل الشعر الحق . اسمعه يقول فى « ديوان إيليا أبو ماضى ، الجزء الثانى » (١٩١٩) ، الذى كان صدوره قبل زواجه بعشرة أشهر :

أنا ما وقفت لكى أشبب بالطلى مالى وللتشبيب بالصهبـــاء ؟
لا تسألونى المدح أو وصف الدمى إنى نبذت سفاسف الشعراء

لم يفهموا بالشعـــر إلا أنـــه ... قد بات واسطـــــة إلى الإثراء
فلذاك ما لاقيت غير مشبب ... بالغانيات ، وطالب لعطـــــــاء
شقّ القريض بهم ، وما سعدوا به ... لولاهم أضحى من السعداء

بعد هذا القليل الذى استخلصناه من أشعار أبى ماضى عن عزوبته ، أحب أن أقدم للقارئ قصيدة لشاعرنا ، خفيفة الروح مجهولة ، ترتبط بموضوعنا ، أوحاها إليه شيطان الشعر لينشدها فى حفلة عرس صديق له . قال ، وكان فى السابعة والعشرين :

أوحى لى الشيطان قبل النــــوم ... كيما أحدثكم حديث اليـــوم
باسْم العريس سألتكم ، يا قومى ... أن تسمعوا ، فصياحكم ينكينى !

إن كان أغضب بعضكم تنبيهى ... فلسوف أرضيه بما أرويه
من غـــير تزويق ، ولا تمويـــه ... ولسوف أخلط جدكم بمجونى

إنى محـــدثكم عن العـــزاب ... وأخص منهم معشر الأصحـــاب
فأنا بهم أولى ، وهم أولى بى ... الله يعطيهم كما يعطينى !

يقضون جل الوقت فى القهـــوات ... يتحدثون بحسن كل فتـــــاة
هذا عن الماضى ، وذا بالآتى ... من غير تقدير ولا تخمين

فتظنهم من طحنهم والجعجعه ... فى معمعان وغى ، ولا من معمعه
لكنما ملأت رءوسهم الجعـــه ... فعلا صياحهم وسب الـــدين

فإذا بهم مرت فتاة تهـــرع ... باتت قلوبهم هوى تتقطع
فتألبـــوا من حولهـــا وتجمعوا ... مثل الجيوش على « كروبتكين » *

هذا يقول لها : أنا مضناك ... لولاك ما عرف الهوى لولاك
ويقول ذا : إنى قتيل هــــواك ... كُفِّى الصدودَ ، فنظرة تكفينى

ولربما اختلفوا من الأشجــــان ... مثل اختلاف القوم فى « البلقان »
فتشاتموا جهراً بكل لســـان ... وتطاعنوا بالفرد والسكين !

---

* كروبتكين هو القائد العام للقوات الروسية فى الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ — ١٩٠٥) .

ولقد تكون قبيحـــة شـــوهاء   وكبيرة في سنها شمطـــاء
قد خلّفتْ أبناؤها الأبنـــاء   فكأنما كانت مع « التكوين »

فإذا علت صيحاتهم في إثـــرها   راحت تتيه على عجائز دهـــرها
حتى إذا هي خبرت عن عمرهـــا   قفزت من الستين للعشرين !

فتنتهم بجمالها المصنـــــوع   فتـــوهمـــوا أن الجمال طبيعي
ما كان جمعهم سوى مخـــدوع   لم يعشقوا ، والله ، غير دهون

يتقاتلون ، ولوسألتهم : لمـــا   يتقاتلون ؟ وجدت كُلاًّ أبكمـــا
لو يعقلون لمـــا غووا ، لكنما   لا عقل عند الأعزب المسكين

إن اللبيب من الإشارة يفهـــم   وهم وإن سكتوا ولم يتكلموا
فلأن أوجههم تخبر عنهم   « كاد المريب أن يقول : خذوني ! »

ياقوم ، هذي عيشة العزاب   في الدهر بين مصائب وصعاب
وسوى أمور تركها أحرى بي   أخشى تثير شجونهم وشجوني

كم أعزب بالسهد أنهك جسمه   نام الورى عنـــه ، فأرق همه
حتى إذا ضم الفراش وضمـــه   طلع الصباح فهب كالمجنـــون

رهن الشقاء، فليس يفتح جفنه   ليرى ، ولكن كي يبال ردنـــه
ويظل يقرع سنه ، ولو انـــه   في الروض بين الورد والنسرين

ما من يرقع ثوبه إما انخرق   ما من ينفس كربه ولو اختنق
لا تسألوني عنه إن جن الغسق :   ما حال من أمسى بغير خدين ؟

الليل والحانات تنهب صحتـــه   وحبائل الشيطان تنهب فضتـــه
إن جئت تنصحه ليترك خطتـــه   يوماً ، فقد غنيت في الطاحـــون

تالله لو تحوي النساءَ جهنمُ   ما خاف أن يأوي إليها المجـــرم
بل كان يأثم كل من لا يـــأثم   فالنار برد مع وصال العين

ما الخلد كوثره الذى يتبجس ... كلا ، ولا لألاؤه والسندس
لكنه تلك الجوارى الكنس ... الموجدات حنينكم وحنينى

ولذا أهنئ صاحبى بقرانه ... وأود من قلبى إلى أقرانه
من غيد هذا العصر أو شبانه ... أن يخلدوا بالعز والتمكين

كان أبو ماضى على وشك إتمام التاسعة والعشرين عندما طلّق العزوبة ليخطب فتاة أحلامه دورا فى حفلة بدار والدها . وتعذر على ندرة حداد – صديق إيليا الذى كان يكبره بثمانى سنوات – حضور هذه الحفلة ، فأرسل إلى إيليا قصيدة عتاب طريفة ، جاء فيها :

قالوا علقت ، فقلت وا ... لهفى على ذاك الصديق
من كان يؤنس وحشتى ... فى وده الصافى الحقيق
ولّى و خلّف مهجتى ... بين التمزق والحريق
من لى بمرْجِعه إلىّ ... ولو برمى المنجنيق ؟
أنسيت يا « إيليا » ليا ... لينا وأوقات الرحيق ؟
ومجالسًا كانت تضيء ... بشعرك الزاهى الرقيق ؟
نسلو بها ألم الحيا ... ة ، وما بها من شرضيق
نشكو العزوبة إنما ... شكوى الغريق إلى الغريق
أسفى عليها إنها ... لمعت ومرت كالبروق
ماذا دعاك إلى النوى ... وإلى مغادرة الرفيق ؟
إنى عهدتك خاليًا ... والقلب ليس بمستفيق
لا يعرف الحب المذيـ ... ـب ولا ممارسة الخفوق
عُدْ يا صديقى عن الجفا ... ء ، بحرمة الود العتيق
وارجع ، ولا تطع الهوى ... مازلت فى نصف الطريق
ليس الهزار وإن شدا ... فى سجنه مثل الطليق

فما كان من إيليا إلا أن بعث إلى ندرة قائلا – على الوزن والقافية :

يا صاحبى « ندره » الحبيب ... وأنت لى أوفى صديق

لا تــرميني بالعقــو ق فلست بالخل العقــوق
ما إن صددْتُ ولا جفوْتُ ولا سلوْت عن الــرفيق
لكن حقــوق الحب عـ ـدى أذهلتني عن حقــوقي
يا ليت يجرى فى عــروقـ ـك ما تغلغل فى عــروقى
إن القلوب بــلا هــوى مثل الكؤوس بــلا رحيق
إن الحيــاة بــلا شريـ ـك كالطــريق بلا رفيق
« ندره » وأنت الشــاعر السـ ـبّاقُ للمعــنى الــرقيق
إياك أن تعصى الغــرام بحرمــة البيت العتيــق
إن الشبــاب وأنت منـ ـه اليوم فى ثــوب أنيق
أخلق بــه طــرح الزها دة ، إنها قيــد الطليق
فاذهب وفتش عن فــؤا د مثل قلبك فى الخفــوق
بين الأزاهر فى الــربى أو فى الغمــائم والبــروق
وارجع بمن تهــوى إلىّ وكن رفيــقى فى الطــريق

كان أبو ماضى إذن ، كما نراه ، من المؤمنين بالزواج ، المُحَبِّذين له ، المقدمين عليه ، ومن الـمُنَبِّهين أيضاً – فى ذات الوقت – بعدم خلو الزواج من بعض المنغصات ، فى بعض الأحيان . اسمعه فى القصيدة الآتية المجهولة ، التى نظمها قبيل خطوبته بشهرين ، يروى حديث أحد الأزواج التجار :

رأيتــــــه مــرتبكــا كغــــــارق فى لجــة
فقلت : مــــا لصــاحبي فى قلق وحيــــــرة ؟
أخائف من نكبــــة أم واقع فى نكبــــــة ؟
أجــاب : لا هـــذا ولا ذاك ، إنمــــا بليتى
صبيــــــة طائشــــة كثيــــــــرة التعنت
وضعتهــــــا فى مكتبي فحكمت فى « رقبتى »
ثرثــــــارة ، لسـانهــا مثل لســـان الحيــــة
سخيـــــــة وإنمــــــا بــــــــذهبي و فضتى
تنفق ممــــــا أكسبه فى سنـــة ، فى لحظـــة

على حذاء ، أو على ثــوب جديد « المـــوضة »
أو حليـــــة غـــريبة في الشكل ، أو قبعـــــة
كـــأنهـــا ، ولم تكن شريكتي في ثـــــروتي
خـــادمتي ، لكنهـــا تأمـــرني بسلطــــة
كأنني خـــــادمهـــا كــــأنهـــا سيدتي
إذا رأت مليحـــــة جالســـة في غــــرفتي
عضت على بنـــانهـــا ورقصت كـــالمـــوجة
وأقبلت كـــــاشرة عن نـــابهـــا كاللذئبة
تنظر نحـــوي مـــرة ومـــرة نحـــو التي . . .
حتى أرى منـــزلتي حقيرة في مقلـــــتي
وتستشيط ضيفـــتي فـــأستحي من ضيفتي
كم مـــرة نصحتهـــا فـــرفضت نصيحتي
تـــريد أن أحبهـــا كما أحب مهجـــتي
وما لهـــا من شيمـــة تكسبهـــــا محبتي
لـــكنني أخـــافهـــا خـــوفي من المنيـــة

* * *

فقلت ســــريرتي : هذا رجـــل كـــالأمة
لو أنني مكــــانـــه طـــردتهـــا من خدمتي
فمـــال عـــني ضـــاحكًا مستهـــــزئًا بفكـــرتي
وقال : مـــا أنصفتني ولم تكن ذا فطنـــة
يا صاحبي ، كلفتـــني ما ليس في مقـــدرتي
إني إذا طـــــردتهـــا أخشى من الفضيحـــة
وأن تســـوء سمعتي فإنهـــا عقيلتي ! !

آن لنا أن نرجع إلى دوروثي ، ونحاول التعرف عليها في أشعار زوجها . ولكن هذا التعرف لن يكون سهلا ميسوراً . ذلك لأن إيليا تجنّب تسمية دورا في أشعاره ، كما تحاشى الإشارة إليها صراحة . فعل ذلك لأنه – كبعض الأدباء – أحب أن يقرأ الناس له ، وكره أن يعرفوا عنه .

وقع إيليا فى غرام دورا أوائل ١٩١٨ ، على ما يظهر ، فلما تسنى له الخروج معها والجلوس إليها منفرداً . نظم غراميته « بلاء أم نعمة ؟ » . وفيها عَبَّرَ عن هواه لها ، ووصف ، فى أبلغ وصف ، تَرَدُّدهُ وتَهَيُّبَهُ فى لقائه الأول معها اسمه، يخاطبها ، وقد كنى عنها بـ « ابنة كولومبس » لمولدها الأمريكى :

أحب معــــانقةَ النرجس لعينيك يـــا « ابنة كولومبس »
وأهوى الشقيقَ ولثمَ العقيق لخدك والثغـــــر الألعس
أعنـــدك إن غبتِ عن نـــاظرى مشيتُ من الصبح فى حندس ؟
وأن الظلام ، على هـــوله ، إذا جئتِ حـــال إلى مُشْمِس ؟
وفى الصدر قلبًا ، ولا كالقلوب، متى شئت يسعد أو يتعس ؟
وددتُ الإفاضة قبل اللقـــاء فلمـــا لقيتُكِ لم أنبس
وبتُّ وإيـــاكِ فى معزل كأنى وإيـــاكِ فى مجلس
ولو أن ما بىَ بالطـــود دُكَّ وبـــالأسد الـــورد لم يفرس
هممتُ ، فأنكـــرنى مقـــولى وشاء الغـــرامُ فلم أهجس
كأنىَ لَسْتُ أميرَ الكـــلام ولا صاحبَ المنطق الأنفس
جلالكِ ، والليل فى صمتــه ، فلا غرو أن رحتُ كالأخـــرس

* * *

ومــــرت بنـــا ساعة خلتنا خلعنـــا الجسومَ عن الأنفس
وأنـّا من الـــروض فى جنـــة وأنـّـا من العشب فى سندس
كذاك الهوى فعله فى النفوس كفعل المدامـــة فى الأرؤس
تنبـــه فيها وفىَّ الهـــوى فلو نعس النجـــم لم ننعس
وكل فؤاد شديد الغـــرام إذا رضتـــه بـــالهوى يسلس
فمالت فطوّقهـــا ســـاعدى منعمـــة بضـــة الملمس
وإن العفاف لنِى بـــردها وإن الإبـــاء لنِى معطسى
وقلت ـــ وكفى فى كفهـــا : ألا صرحى لى أو فـــاهمسى
بـــلاء هو الحب أم نعمـــة ؟ أجابت : تجلد ولا تيـــأس

واسمعه يقول لها فى غرامية أخرى :

عيناك والسحر الذى فيهمـــا ... صيرتـــانى شـــاعراً ساحرا
علمتنى الحب ، وعلّمتُـــهُ ... بدرَ الدجى والغصنَ والطـــائرا
إن غبتِ عن عينى ، وجن الدجى ... سألت عنك القمر الزاهـــرا

واسمعه يقول لها بعد خمس سنوات تقريباً من العيش معها ، وبعدما دهمتهما معاً بعض الرزايا والبلايا :

تعالى نسرق اللذات ما ساعفنا الدهر
وما دمنا وما دامت لنا فى العيش آمال
يريد الحب أن نضحك ، فلنضحك مع الفجر
فمن يعلم بعد اليوم ما يحدث أو يجرى ؟
تعالى قبلما تطمر أحلامى الأعاصير

واسمعه يقول لها ، وقد جاء العيد :

أى شىء فى العيد أهدى إليكِ ... ياملاكى ، وكل شىء لديك ؟
أسواراً ؟ أم دملجاً من نضار ؟ ... لا أحبّ القيود فى معصميك
أم خموراً ؟ وليس فى الأرض خمر ... كالتى تسكبين من لحظيك
أم وروداً ؟ والورد أجمله عندى ... الذى نشقت من خديك
أم عقيقاً كمهجتى يتلـــظى ؟ ... والعقيق الثمين فى شفتيك
ليس عندى شىء أعـــز من الروح ... وروحى مـــرهـــونة فى يديك

واسمعه يتحسر على أيام لهوه معها فى غابة زالت :

لله فى الغـــابـــة أيـــامنـــا ... مـــا عـــابهـــا إلا تلاشيهـــا
طوراً علينـــا ظل أدواحها ... وتـــارة عطف دواليهـــا
وتـــارة نلهـــو بأعنابهـــا ... وتـــارة نحصى أقـــاحيها
وإن تضـــاحكنـــا سمعنا الصدى ... يضحك معنـــا من أقـــاصيها
نسير من كهف إلى جـــدول ... نكتشف الأرض ونطـــويهـــا
وتختبى « هند » ، فأشتاقهـــا ... وأختبى عنها ، فأغـــريهـــا

كم أوهمتنى الخوف من طارئ — تشجى بذا نفسى ، فتشجيها
فرحت أعدو نحوها مشفقاً — فكان ما حاذرت تمويها !
فاعجب لأطواري وأطوارها — تعبث منى وأجاريها !
يا لهفة النفس على غابة — كنت و « هند » نلتقى فيها
جنة أحلامى وأحلامها — ودار حبى وتصابيها
أنا كما شاء الهوى والصبا — وهى كما شاءت أمانيها

واسمعه يتلهف أيضاً على أيام جميلة قضاها معها فى ميلفورد بنسلفانيا :

هذه « مفرد » ، قد لاحت رباها — فَانْسَ ، ياقلب ، الليالى وأذاها
ذهبت عشرون فى فرقتها — ليتها فيها انقضت لافى سواها
كم جلسنا تحت صفصافاتها — أشتكي وجدى ، وتشكولى هواها
نتناجى ويدى فى يدها — فإذا لاح خيال نتلاهى
أنا دنيا من شباب وهوى — وهى كالروضة قد تمت حلاها
أحسن الأيام فى العصر انقضت — آه ، لو ينشرها من قد طواها

على أن دورا لم ترد فقط بهذه الصورة السلبية فى أشعار إيليا . فقد جاءت أيضاً وهى تلومه وتعاتبه ، وتدفعه وتناقشه ، وتُذكّره وتحادثه . قال :

لم أنْسَ حين مشت إلىّ تلومنى — لما رأتنى باسماً متهللا
قالت : أتطرب ، والمنايا حُوَّم — فى الأرض ، كيف رمت أصابت مقتلا؟
انظر ، فقد خلت البيوت من الشبا — ب ولا جمال لمنزل منهم خلا
فسألتها : أوَليس من أجل العلى — وهنائنا ، خاضوا الوغى؟ قالت : بلى
ياهذه ، أإذا بكيت لبعدهم — يتبسمون ؟ أجابت الحسناء : لا
كفى الملام إذن ، فما أنا جاهل — ما تعلمين ، وكيف لى أن أجهلا ؟

كسل إيليا فترة عن قول الشعر ، فإذا بدورا له

قائلة : هجرت الشعر حتى — تغنى بالسخافات المغنى
أتى زمن الربيع ، وأنت لاه — وقد ولى ، ولم تهتف بلحن
ونفسك كالصدى قاع بشر — ومثل الفجر ملتحفاً بدجن

فما لك ليس يستهويك حسن		وأنت المرء تعشق كل حسن
أتسكت ، والشباب عليك ضاف		وحولك للهوى جنات « عدن » ؟
ركود الماء يورثه فســـــاداً !		فقلت لهـــا : استكيني واطمئني
ألا تعني ، اتركيني في سكوني		ولومي من يضج بغير طحن

وتوانى مرة أخرى ، فعادت

. . . تعاتبني على		صمتي ــ و بعض القول حز مواسي :
اثنان مالاقيت أقسى منهمــا		صمت الدجى ، والشاعر الحساس
فأجبتهــا : أقسى وأهول منهما ،		في مسمعي ، هذا العتاب القاسي
قالت : أظنك قد نسيت . فقلت : لا		ما كنت بالناسي ولا المتناسي

وأخذت تسائله يوما :

. . . أي المذاهب مذهبي ؟		وهل كان فرعاً في الديانات أم أصلا ؟
وأي نبي مرسل أقتدي به ؟		وأي كتاب منزل عندي الأغلى ؟

وقامت تُذكّره مرة :

و . . . في وجهها ألق الضحى		والسحر والصهباء في أقوالهـــا
قالت : أينسى النازحون بلادهم ؟		ما هاج حزن القلب غير سؤالهـــا

ولا نستبعد أبداً أن تكون دورا — أيام كانت خطيبته — هي تلك «المليحة» التي ساجلته وجادلته في قصيدة « الشاعر » افتتاحية ديوانه الثاني . أما تلك المرأة « المتجهمة ، المرتاعة ، المتحيرة ، الواجمة ، الذاهلة » في قصيدة (الدمعة الخرساء) ، والتي حاول أبو ماضي تسكين روعها ، فإنها دورا زوجته .

لنقرأ تسكين إيليا لدورا بعد أن استمع إلى حديثها :

لا تجزعي ، فالموت ليس يضيرنا		فلنا إياب بعده ونشـــــور
إنا سنبقى بعد أن يمضي الـــورى		ويزول هذا العالم المنظــــــور
فالحب نــور خالد متجـــدد		لا ينطوي إلا ليسطع نــــــور

فإذا طوتنا الأرض عن أزهـــارها ... وخلا الدجى منا ، وفيه بدور
فسترجعين خميلة معطــــارة ... أنا فى ذراها بلبل مسحـــــور
يشدو لهـــا ، ويطير فى جنباتها ... فتهش إذ يشدو وحين يطير
أو جدولا مترقـــرقـــًا مترنمــا ... أنا فيه موج ضـــاحك وخريــر
أو ترجعين فراشـــــة خطارة ... أنا فى جناحيها الضحى المـــوشور
أو نسمة أنا همسها وحفيفها ... أبدًا تطوف فى الربى وتدور

لقد أحب إيليا دورا امرأته حبًّا ألهمه أن يخلد شخصها فى شعره ، كما خلد فيه أمه سلمى ، وأخته جنى فى نثره . ولا ريب فى أن تخليد أبى ماضى لنسائه الثلاث ، فى أدبه ، إنما هو تخليد متواضع ، لا افتعال فيه ولا عيب ، وهو يعكس بحق ما دعا إليه ، عام ١٩٢٩ ، فى مقاله « المرأة فى الشعر العربى » ، حيث كتب :

« تقرؤهم — وهم الشعراء الذين دقت أفهامهم ، وصفت أرواحهم — فإذا المرأة عندهم إما طرف كحيل ، وخد أسيل ، وشعر طويل ، وخصر نحيل ، وإما بدر يضحك عن لؤلؤ ، أو غصن يرفل فى الخز ويمشى ويتكلم ، أو ظبية تفترس الأسود ، وتشق بألحاظها القلوب قبل الجلود !

ثم تقرؤهم — وهم العشاق الذين لطفت مشاعرهم ، وأنار الحب قلوبهم — فيشجيك منهم أنهم لا يرون فى المرأة غير ما يراه منها شاب جاهل ينظر إليها من نافذة الهوى الفانى . فهى إما هاجرة تتجنى — ولا شىء فيها غير أنها هاجرة تتجنى يجب استعطافها واسترحامها ، وإما ممنوعة دونها الرقباء — فيجب ذم الرقباء والشكوى منهم ، وإما أنها دانية مطاوعة — ولا شىء غير أنها دانية مطاوعة .

أما قلب المرأة وما فيه من الأحاجى والأسرار ،

وأما وجدان المرأة وما فيه من الأشواك والأزهار والآصال والأسحار ،

وأما عواطف المرأة وهى تيار لا يتكشف إلا عن تيار ،

وأما نفس المرأة وما فيها من نور ونار ،

وأما المرأة نفسها وهى ذلك الكائن العجيب الجبار ،

فليس لها أثر بين فى الشعر العربى منذ كان حداء وخببًا ورجزًا ، إلى أن صار قصائد وموشحات على كل وزن ولحن . . .

إن المرأة التى عرفت فى الشعر العربى هى التى كان يمكن أن يقال عنها إنها جميلة . أما المرأة فى أدوارها الأخرى — فى طفولتها وكهولتها ، وأما البنت والأخت والزوجة ، فقد خلا الشعر منها إلا قليلا لا ينقع غليلا . . .

وكيفما عللنا هذا الأمر ، فإننا نرى فى الشعر العربى القديم صورة صادقة للزمان الذى قيل فيه . ولا يعاب شعرهم على ما فيه من الفراغ الهائل من هذه الناحية . . . أما الذين يحق لنا أن نلومهم فهم الشعراء العصريون الذين ما برحوا يصورون المرأة فى شعرهم — على ما بلغت وبلغوا هم من الحضارة — كما كان يصورها شعراء الجاهلية وغيرهم ممن جروا على آثارهم . . .

إن المرأة أكثر من وجهها ، وشعرها ، وخديها ، وثغرها ، وجيدها ، ونحرها ، وقامتها ، وخصرها . . . فليس أحق من الشعراء بالتنقيب عما فى نفس المرأة وقلبها من الكنوز الثمينة . فإذا لم يفعلوا — وهم الأمراء فى مملكة الأرواح — حق للناس أن يثوروا عليهم ثورة هوجاء تدحرجهم عن عروشهم ، لأنهم لم يحسنوا سياسة مملكتهم . . .

لقد تبوأت المرأة مكانها فى الشمس ، فيجب أن تتبوأ مكانها فى الشعر» .

(٤) الحزب الوطنى المصرى وأبو ماضى

(بمناسبة ذكرى مرور قرن على ميلاد مصطفى كامل)

(١)

يوافق ١٤ أغسطس (آب) من هذا العام ذكرى مرور قرن على ميلاد المصرى الخالد مصطفى كامل (١٨٧٤ – ١٩٠٨) . ولعله من المناسب فى هذه الذكرى الطيبة ، عرض صفحة منسية ، أو بالأحرى مجهولة ، من حياة المهجرى إيليا ظاهر أبى ماضى (١٨٨٩ – ١٩٥٧) تتصل اتصالا وثيقاً بـ « الحركة الوطنية » التى كان مصطفى كامل باعثها فى مصر أوائل هذا القرن .

والحديث عن أبى ماضى والحركة الوطنية يبدأ بعام ١٩٠٠ ، عام شاءت الأقدار فيه لإيليا أن يهاجر عن لبنان ، وأن ينزل مصر . وكان إيليا إذ ذاك صبيًّا فى الحادية عشرة من عمره ، متفتح قلبه للحياة .

ونزول إيليا بثغر الإسكندرية ، فى هذه السن المبكرة ، وفى تلك الفترة بالذات من تاريخ مصر ، ترك فيه أثرًا أى أثر . فقد عرضه لأشياء ما كان ليتعرض لها لو أنه بقى فى ضيعة المحيدثة الوادعة التى ولد بها ونشأ ، وأمضى فيها ما يزيد على عقد من الزمان .

كان أول ما تعرض له إيليا ، حال نزوله فى الإسكندرية ، حديث الناس المتواصل عن « الاحتلال » ، وعن « الجلاء » ، وعن « مصطفى كامل » ، وعن « اللواء » . وعلم الفتى مما سمعه ، وكذلك مما قرأه — فقد كان قادرًا على القراءة — أن فى ١٨٨٢/٧/١١ ، ضرب الأسطول البريطانى الإسكندرية بمدافعه ضرباً متوالياً . فلما سلمت المدينة ، أبحر الأسطول شرقاً ، وعبر قناة السويس حتى وصل إلى الإسماعيلية . وهناك نزلت الجنود البريطانية وباغتت أحمد عرابى وجنوده ، ثم فتحت طريقها إلى القاهرة العاصمة ، ودخلتها فى ١٨٨٢/٩/١٤ . فكان الاحتلال ، وكانت تولية البريطانيين لأنفسهم على مصر حكاماً .

ولم يمض وقت يذكر على إيليا إلا وقد عرف أيضاً أن « اللواء » الذى يتخاطفه الناس حال ظهوره فى المدينة إنما هو جريدة يومية سياسية ، لها فى مصر من العمر ما له فيها . فقد بدأت تصدر فى القاهرة فى ١٩٠٠/١/٢ . وعرف إيليا كذلك ، أن « مصطفى كامل » الذى يتردد اسمه على الألسنة ، إنما هو صاحب « اللواء » ومحرره الذى يكتب جله من ترجمة وإنشاء ، وأنه مؤلف له رواية « فتح الأندلس » (١٨٩٣) ، ومجموعة أعمال بعنوان « مصر والاحتلال » (١٨٩٦) ، وكتاب « المسألة الشرقية » (١٨٩٨) ، وأن له مدرسة فى القاهرة باسمه يديرها بنفسه . وهو محام فى ٢٦ ربيعاً ، نال شهادة الحقوق من فرنسا عام ١٨٩٤ ، ولكنه لم يحترف المحاماة ، بل وقف نفسه على خدمة وطنه . ثم هو بليغ بالفرنسية بلاغته بالعربية ، كثير السفر إلى أوربا — فرنسا خاصة — ليخطب على منابرها ، وليكتب فى صحفها ، داعياً رجال السياسة والقلم الأوربيين إلى تعضيد مصر فى مطالبها .

فوق كل هذا ، لمس إيليا أن لمصطفى كامل منزلة خاصة لدى الإسكندريين ، سجلوها للأجيال القادمة فى هذه العبارة المختصرة التى حفروها على وسام من فضة ، أهدوه إياه عام ١٨٩٦ ، والتى تقول : « برهان الإخلاص من أهالى الإسكندرية ، للوطنى الغيور مصطفى كامل » .

لقد كان مصطفى كامل فى الثانية والعشرين عندما منحه الإسكندريون هذا الوسام ، وكان ذلك عقب أول خطبة سياسية له فى مدينتهم ، خطبة قال عنها يومها محرر « المؤيد » : « الأولى التى أقدم على إلقائها شاب مصرى غيور ، عرف واجب الوطن وضرورة التفانى فى حبه المقدس ، بعد أن مر على الاحتلال الأجنبى أربعة عشر عاماً » .

انتهى إلى إيليا اليافع كل ما سبق ، فى سنته الأولى بمصر ، فبدأ يعجب بالسياسى الشاب مصطفى كامل ، وبالحركة الوطنية التى تزعمها ، وبـ « اللواء » الذى كان حجراً أساسيًّا فى بنائها .

ومر عام ١٩٠١ ، وجاء عام ١٩٠٢ ، واقترح مصطفى كامل على صفحات جريدته الاحتفال بالعيد المئوى لتولية الشعب محمد على والياً على مصر . وأقيم الاحتفال فى الإسكندرية ، وحضره ثلاثة آلاف ونيف . ودُعى إليه مصطفى كامل

للخطابة . فوقف يذكر المصريين بالمجد الذى كان لهم فى الماضى القريب ، وبالذل الذى صاروا إليه :

« نحن نرى من العار والخيانة عدم المطالبة بالجلاء ، نحن نرى من الجبن والاستماتة عدم المطالبة بالدستور ، أى بالنظام الذى تتمتع به الأمم المتمدنة ..»

هذه حياة محمد على ، لنا أن نستنبط منها ما يفيد البلاد فى الحال والاستقبال ، لنا أن نضربها مثلا للأبناء والناشئين ليعلموا أن مصر كانت من القوة والبأس بمكان ، وأنها تكون كذلك لو طرقوا أبواب الاتحاد والوئام ، وسلكوا مسالك العزم والإقدام » .

كلمات قوية ، نطق بها شاب ، كان لها دويها داخل مصر وخارجها .

ثم مر عام ١٩٠٣ ، وجاء عام ١٩٠٤ ، ومعه جاءت « مدام جولييت آدم » لزيارة مصر ، بناء على دعوة من مصطفى كامل .

وأمَّلَ مصطفى كامل يومها أن يكون لزيارة الكاتبة الفرنسية الشهيرة مفعولها فى الأوساط السياسية ، عند عودتها إلى بلدها . ولكنه خذل . فما كاد يمضى شهر على مغادرة « مدام آدم » مصر ، إلا وكانت فرنسا تعقد فى ٨/٤ « اتفاقاً وديًّا » مع غريمتها بريطانيا ، تتعهد لها فيه بإطلاق يد بريطانيا فى مصر ، مقابل تعهد بريطانيا بعدم عرقلة أمور فرنسا فى مراكش .

ثم مر عام ١٩٠٥ ، وجاء عام ١٩٠٦ مليئاً بالأحداث .

ففى فبراير (شباط) أضرب طلبة كلية الحقوق عن الدراسة احتجاجاً على سياسة التعليم التعسفية التى فرضتها عليهم السلطات المحتلة .

وفى أبريل (نيسان) افتتح « نادى المدارس العليا » الذى كان « من أعظم مظاهر الوطنية ذلك العصر . . . فيه ظهرت قوة الشبيبة ووحدتها . . . وفيه تأسست « جمعية رعاية الأطفال » ، وفى قاعاته اجتمعت وقتاً ما لجنة إنشاء « الجامعة المصرية » ، وفيه تأسست « مدارس الشعب » لتعليم العامة ، وقام أعضاء النادى بالتدريس فيها ، وفيه نشأ مشروع النقابات الزراعية . . . وكان فوق ذلك معهداً قوميًّا لنشر المبادئ الوطنية الصادقة وبثها فى نفوس الجيل » .

وفى مايو (أيار) وقعت « حادثة العقبة » (حادثة طابة) . فقد طلبت بريطانيا

من تركيا ، باسم مصر ، سحب جنودها من « طابة » عندما عزمت تركيا على مد خط حديدى إلى العقبة ، رأته بريطانيا يهدد مصالحها فى مصر . فلما سحبت تركيا جنودها ، ضاعفت بريطانيا قواتها الاحتلالية ، وزادت فى نفقاتها العسكرية التى كانت مصر فى غنى عن تحملها .

وفى يونيو (حزيران) وقعت « حادثة دنشواى » ، تلك الحادثة التى لا تنسى فى تاريخ الاحتلال . فقد بدأت بخروج خمسة ضباط بريطانيين إلى بلدة « دنشواى » للتسلى بصيد الحمام ، وانتهت بالحكم على « واحد وعشرين منهما : حكم بالإعدام على أربعة منهم ، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبها لمدة خمس عشرة سنة على واحد ، وبالسجن سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مع التشغيل مدة سنة مع الجلد خمسين جلدة على ثلاثة ، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة » .

وقعت الحادثة المحزنة يوم ١٣ ، ونفذت الأحكام الظالمة يوم ٢٨ ، ومصطفى كامل يستشفى فى باريس . فلما بلغته الأنباء ، غضب ، وثار ، وقام يدافع عن مصر وأهلها بكل ما أوتى من قوة ، غير عابئ بما تتطلبه منه صحته . فكتب مقالة بعنوان « إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن » ، نشرتها جريدة « ل فيجارو » الفرنسية ، فصل فيها وقائع الحادثة وملابساتها ، وإجراءات المحاكمة ، وفظاعة تنفيذ الحكم ، وبعدها قال ما ترجمته :

« جئت أسأل الذين يجاهرون فى كل آن ذاكرين الإنسانية ، مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط ، إذا حدثت فظائع فى بلاد أخرى دون فظيعة دنشواى ألف مرة ، أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده لأن يسقط إلى الأبد تلك المدنية الأوربية فى أعين العالم كافة !

جئت أسأل الأمة الإنجليزية إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها فى مصر يلجأون — بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاماً — إلى قوانين استثنائية ووسائل همجية — بل أكثر من همجية — ليحكموا مصر ، ويُعلِّموا مصر ماهية كرامة الإنسان » .

لقد « كانت هذه المقالة — كما ذكر المؤرخ عبد الرحمن الرافعي — هى فى ذاتها من أهم حوادث الحركة الوطنية » .

ثم جاءعام١٩٠٧ ، فاستقال « لورد كرومر » — أو بالأحرى أقيل — من منصبه كحاكم مصر ، ليخلفه « سير إلدن غورست » . أما مصطفى كامل ، الذى كانت شهرته وقتئذ قد بلغت الآفاق ، فيراه المصريون يصدر فى القاهرة ، إلى جانب « اللواء » القديم ، « لواءين » جديدين بلغتين عالميتين : « ل تاندار إجيبسيان » بالفرنسية ، و « ذى إجيبشان ستاندرد » بالإنجليزية ، ليتمكن من إيصال كلمة مصر إلى أبعد مدى .

ويرونه كذلك فى نهاية العام يقف لآخر مرة فى الإسكندرية ، أمام سبعة آلاف حاضر ، ليلقى أهم خطبة ألقاها فى حياته ، ويختمها داعياً « كل واحد منكم للدخول فى « الحزب الوطنى » حتى تتسع دائرة العمل لخدمة مصر » .

ولكن العلة التى كانت قد تملكت من جسم مصطفى كامل لم تمهله أن يعيش طويلا ليدعم حزبه بعد هذه الدعوة . ففى ١٩٠٨/٢/١٠ أسلم الروح ، بعد أن أهلك جسمه جهاده المستميت فى سبيل مصر ، وكان فى ربيعه الرابع والثلاثين . فحزن عليه المصريون حزناً لم يحزنوا مثله على سياسى قبله . فكان البكاء ، وكان الرثاء ، وكان إيليا ظاهر أبى ماضى من الباكين ، ومع الراثين .

بكيت ، ولكن بالدموع السخينة ... وما نفدت حتى بكيت بمهجتى
على « الكامل » الأخلاق ، والندب « مصطفى » ... فقد كان زين العقل ، زين الفتوة
نعاه لنا الناعى ، فكادت بنا الدنى ... تميد لهول الخطب ، خطب المروءة
وذابت قلـــوب العالمين تلهفاً ... وسالت دموع الحزن من كل مقلة
أجل ، قد قضى فى « مصر » أعظم كاتب ... فخلف فى الأكباد أعظم حسرة
فتى ، وأبى ، لو أن فى الناس مثله ... لهان علينا وقع هذى الرزيئة
ولو كان يُفْدَى بالنفوس من الردى ... جعلنا فداه كل نفس أبيـــة
فتى مات غض العمر ، لم يعرف الخنا ... ولم ينطوِ فى نفسه حب ريبة
وقد كان مقداماً جريئاً ، ولم يكن ... ليبغى الردى غير النفوس الجريئة
وكان جواداً ، لا يضن بحاجة ... لذلك أعطى روحـــه للمنيــــة
سلام على « مصر » الأسيفة بعده ... فقد أودعت آمالها جوف حفـــيرة

خطيب «بلاد النيل» ، مالك ساكتاً ... وقد كنت تلقى خطبة إثر خطبة ؟
تطاولت الأعناق حتى اشرأبت ... فهل أنت مسديها ولو بعض لفظة ؟
نعم ، كنت لولا الموت فارج كربها ... فيا للردى من غاشم متعنت !
تفطرت الأكباد حزناً كأنما ... رماتك سهم حل فى كل مهجة
وما حزنت أم لفقد وحيدها ... بأعظم من حزنى عليك ولوعتى
تناديك «مصر» الآن ياخير راحل ... ويا خير من يرجى لدفع الملمة
عهدتك تأبى دعوة غير دعوتى ... فما لك تأبى «مصطفى» كل دعوة ؟
فقدتك ريانًا ، فيا طول لهفتى ... لقد كنت سيفى فى الخطوب وجنتى
أجل ، طالما دافعت عن «مصر» مثلما ... يدافع عن مأواه نحل الخلية
فأيقظتها من رقدة بعد رقدة ... وأنهضتها من كبوة تلو كبوة
وقويت فى أبنائها الحب نحوها ... وكنت لهم فى ذاك أفضل قدوة
رفعت «لواء» الحق فوق ربوعها ... فضم إليه كل ذى وطنية
لئن تك أترعت القلوب محبة ... فإنك لم تخلق لغير المحبة
فنم آمنًا وفيت قومك قسطهم ... فيا طالما ناموا وأنت بيقظة
سيُبقى لك التاريخ ذكراً مخلداً ... فقد كنت خير الناس فى خير أمة
عليك من الرحمن ألف تحية ... ومن أرض «مصر» ألف ألف تحية

(٢)

أحدثت وفاة مصطفى كامل فراغاً هائلا فى الحركة الوطنية سرعان ما ملأه رجلان قديران ، كان محمد فريد (١٨٦٨ – ١٩١٩) واحداً منهما .

ومحمد فريد – كما يقول لنا مؤرخنا الرافعى – « زميل مصطفى المخلص ، وصديقه الوفى ، وعضده الأكبر فى بعث الحركة الوطنية . لازمه وأيده فى جهاده (منذ تعاهدا عام ١٨٩٦) ، وبذل له ما بذل من العون الأدبى والمادى ، وظل وفيًّا له طول حياته . وقد صحبه فى كثير من رحلاته ، واجتمعا بها معاً برجال السياسة والصحافة وكتابها المشهورين ، وناب عنه خلال صيف ١٩٠٧ فى الإشراف على « اللواء » وإدارة جريدتى « ليتندار إجيبسيان » و « ذى إجيبشيان استاندرد » حينما

سافر مصطفى إلى أوربا ، وكان يراه خير خليفة له فى قيادة الحركة الوطنية ، فاختاره وكيلا للحزب الوطنى فى أول جمعية عمومية له (انعقدت فى ١٩٠٧/١٢/٢٧) . وأوصى بانتخابه رئيساً بعده » .

فلما انتخب محمد فريد رئيساً للحزب فى ١٩٠٨/٢/١٤ ، كان أول عمل قام به إرسال برقية إلى «سير إدوارد جراى» ، وزير خارجية بريطانيا ، ينبئُه فيها بأن :

« الجمعية العمومية للحزب الوطنى انتخبتنى رئيساً بدل المرحوم مصطفى كامل باشا ، وكلفتنى بأن أجدد احتجاجها على احتلال القطر المصرى بلا حق ، وتعلن عزمها على السير فى خطة المرحوم الرئيس حتى تفى إنجلترا بوعودها » .

واتضح لبريطانيا ، أن الحركة الوطنية التى أمَّلَت لها الخمود بموت مصطفى كامل لن تخمد ، بل ستشتد ، ولهذا قررت أن تقاومها بـ «سياسة الوفاق » التى قوامها التعاون بين « سير إلدون غورست » ، حاكم مصر الفعلى ، وبين الخديوى عباس حلمى الثانى (١٨٧٤-١٩٤٤ ، حكم ١٨٩٢-١٩١٤) ، حاكمها الشرعى.

وتصدى محمد فريد لهذه السياسة فى خطب ومقالات ، كان بعضها شديد اللهجة ، أحرجت الخديوى والاحتلال معاً ، كما واصل أيضاً سياسة سلفه ، فسافر إلى أوربا فى ١٩٠٨ وفى العامين التاليين ، للدفاع عن قضية مصر .

على أن أهم سفرة قام بها محمد فريد للدعاية لمصر فى الخارج ، بعد ما تولى رئاسة الحزب ، كانت سفرته عام ١٩١٠ . إذ أنه فى هذه السفرة -كما لخصها الرافعى- « ظل بعيداً عن الوطن نحو ثمانية أشهر قضاها متنقلا بين عواصم أوربا . مجاهداً مدافعاً عن القضية المصرية . . . فقد وقف خطيباً فى باريس ، ثم فى ليون ، ثم فى لندن ، يعلن للرأى العام حقيقة المطالب الوطنية ، ويترجم عن آمال مصر . ويدافع عن حقها فى الحرية والاستقلال . ثم حضر مؤتمر السلام فى استوكهلم ، ورفع صوت مصر بين مجموعة الأمم التى اشتركت فيه ، ورجع إلى باريس يعد معدات المؤتمر الوطنى الذى اعتزم عقده فيها ، حتى إذا منعته الحكومة الفرنسية بادر إلى عقده فى بروكسل . وبعد انتهاء المؤتمر عاد إلى باريس ، ثم قصد إلى ألمانيا ، ليبعث المسألة المصرية فى صحافتها ودوائرها السياسية ، وعرج على الأستانة لكى يُحكِم روابط الود بين مصر وتركيا ، ويحبط مساعى إنجلترا فى دفع تركيا إلى

الاعتراف بالاحتلال . هذا إلى أحاديثه فى مختلف الصحف الأوربية ، ومقالاته فى الصحف المصرية عن مشاهداته وخواطره وملاحظاته فى رحلاته ، وما تضمنته من الدروس الوطنية والآراء السديدة » .

و يتابع الرافعى كلامه عن محمد فريد فيقول : « قام الزعيم بهذه الجهود الموفقة مدة غيبته عن الوطن ، فلا غرو أن قوبل من الشعب عند عودته بأعظم مظاهر التقدير والحفاوة ، فاستقبله المواطنون بالإسكندرية استقبالا رائعاً يوم ٢٨ ديسمبر (كانون الأول) على ظهر الباخرة ، وعلى رصيف الميناء ، وفى الطريق إلى فندق « متروبول » على شاطىء البحر ، ثم منه إلى المحطة حيث استقل القطار فى اليوم نفسه ، وهناك احتشدت الجماهير ، وتعاقب الخطباء يشكرون الزعيم على جهاده للوطن » .

ولقد حركت عودة محمد فريد من أوربا شعور أبى ماضى الشاب ، كما حركت شباباً كثيرين ، فنظم القصيدة التالية المجهولة التى أنشد زعيم الحزب إياها ، فى محطة السكة الحديد بالإسكندرية ، إعجاباً به :

اليوم يذهب هم جد فى طلبى ... حتى عييت وحتى كاد يذهب بى
حييت من آئب لولاه مـا حفلت ... بالأنس نفسى ولا اشتاقت إلى الطرب
أقسمت ما الروض فى إبان نضرته ... إذ مسرح الطرف بين النور والعشب
ولا الغزالة تبدو للعيون ضحى ... كأن أسلاكها صيغت من الذهب
أبهى وأجمل مرأى منك منقلباً ... غب اغترابك عنـا خير منقلب
لأنظمن القـوافى فيك آبـدة ... كالشمس ، خالدة كالدهر والحقب
أنت الهمام الذى فى الله رحلته ... والحق ، لا فى سبيل اللهو واللعب
جبت المخاطر والأهـوال مغترباً ... ياليت مثلك منـا ألف مغـترب
يَعْدو بهم فى فجاج الأرض ذو لجب ... والفلك تجرى بهم فى البحر ذى العبب
إذ ذاك تبلغ «مصر» ما تحن لـه ... و يصبح «النيل» فى أمن من العطب
لله درك فى حـل ومـرتحـل ... ودر سعيك فى بعـد وفى قـرب
طوراً خطيباً على الأرواح محتكماً ... بالسحر يأخذها فى صورة الخطب
إن شاء طابت عن الأيام راضية ... و إن أبى امتلأت سخطاً ولم تطب

وتارة ذا يراع دونه خطراً — إذا انتضاه شبا الصمصامة الحدب
أطاعه كل معنى رائق حسن — واختاره كل لفظ شائق عجب
ومن رسائــل تزجيها مدبجــة — كالحور ترفل فى أثوابهــا القشب
ما كنت أبغى إذا كنى بها ظفرت — مطارف الخز ذات الوشى والعصب
تعنى بـ «مصر» ومن أبنائها نفــر — تعنى بهم ، وهم يعنون بالرتب
إن يطلبوا عندها فخراً فقد خدعوا — الفخر بالفضل ليس الفخر باللقب
أو يبتغوا زينة فيها فقد وهموا — ما زينة المرء غير العلم والأدب
فليتقوا الله فى «مصر» بــــلادهم — «كنانة» الله ذات المجد والحسب
بات المرابى مع الخمار يسلبها — هذا العقول وذاك خالص النشب
حامت صنوف الرزايا حولنا فرقًا — وأصبحت «مصر» فى سور من الريب
لولا الشبيبة ما طاف الرجاء بنا — وحسن سعيك ما حنت إلى أرب
جزيت عن «مصر» خيراً إنها بلد — لا يحصد الشوك فيه غارس العنب

(٣)

تطلع محمد فريد حوله ، عام ١٩٠٨ ، بعد أن أصبح رئيساً للحزب ، إلى رجل يتابع معه نضاله الوطنى ، ويحمل عنه أعباء رئاسة تحرير جريدة « اللواء » وإدارة سياستها ، فلم يجد أكفأ من الشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٢ — ١٩٢٩) الذى تعرف عليه، عام ١٩٠٥، فى مدينة الجزائر، فى أثناء انعقاد مؤتمر المستشرقين ، والذى كان يعمل ، منذ ١٩٠٦ ، مفتشا فى وزارة المعارف .

والشيخ جاويش من عائلة بنغازية . ولد ونشأ بالإسكندرية ، حيث درس أيضاً فى جامع الشيخ إبراهيم . فلما بلغ السابعة عشرة ، انتقل إلى القاهرة ليلتحق بالأزهر ثم بدار العلوم . فلما تخرج عين مدرساً .

غير أن الشيخ جاويش ، ذا الثقافة الإسلامية العربية ، ما لبث أن تعرض بعد ذلك للثقافة « الأنجلوساكسونية » مدة سنواته التى قضاها دارساً فى جامعة « بروورود » أولا ، ومدرساً فى جامعة « أكسفورد » ثانياً ، فأضاف بهذا إلى علمه بطبيعة البريطانيين كمحتلين ، خبرته إياهم كشعب وكمفكرين .

ولم يكن الشيخ جاويش ، حتى إسناد إدارة جريدة الحزب الوطنى إليه فى ١٩٠٨/٥/٣ ، عضواً فى هذا الحزب ، ولكنه — كما يقول سالم عبد النبى قنيبر فى كتابه القيم عن الشيخ — «كان من القوة والصلابة بحيث استطاع ، فى وقت قصير ، أن يبعث القلق فى نفوس القائمين على مصالح الاحتلال فى مصر ، ويدفعهم إلى محاكمته ، ولما يمض الشهر الأول لتوليه تحرير « اللواء » ، فى قضية سياسية ، كانت من القضايا المهمة فى ذلك العهد » .

ذلك أنه على أثر قيام فتنة الشيخ عبد القادر ، بناحية « الكاملين » بالسودان ، وقتل عدد كبير من أتباع هذا الشيخ ، وجر عدد آخر إلى المحاكمة ، كتب جاويش فى « لواء » ١٩٠٨/٥/٢٨ ، مقالة بعنوان « دنشواى أخرى فى السودان : ٧٠ مشنوقاً و١٣ سجيناً » ، تلاها فى عدد ٥/٣١ بمقالة « الحكم على أتباع الزعيم عبد القادر » .

وقرأت لندن المقالتين ، وأبرقت فى الحال إلى القاهرة بمحاكمة جاويش . فاستُدعى الرجل ، وحُقق معه ، وصدر فى ٧/٨ الحكم ببراءته من تهمة الخبر الكاذب فى المقالة الأولى ، وبمعاقبته بغرامة قدرها عشرون جنيهاً عن تهمة إهانته وزارة الحربية فى المقالة الثانية .

ولم يرض جاويش عن الغرامة فاستأنف ، كما استأنفت النيابة لقلة العقوبة . وكان نتيجة الاستئناف أن حكمت المحكمة ببراءة جاويش من التهمتين . وعلى هذه البراءة يعلق الرافعى فيقول : «كانت هذه القضية فوزاً كبيراً للحركة الوطنية ، وجاء الحكم فيها ضربة شديدة أصابت هيبة الوزارة » .

ولا يمر عام على هذه القضية حتى تستدعى النيابة جاويش ثانية ، وتقدمه للمحاكمة على ما جاء فى مقالته « ذكرى دنشواى » التى نشرها فى « لواء » ١٩٠٩/٦/٢٨ . وبعد سماع مرافعة النيابة ودفاع الشيخ ، حكمت المحكمة ، فى ١٩٠٩/٨/٥ ، على الشيخ بغرامة قدرها أربعون جنيهاً . وأعاد الشيخ الكرة ، فاستأنف الحكم ، كما استأنفته النيابة كذلك . ولكن ، كم كانت دهشة الشعب واستيائه عندما سمع هذه المرة ، أن محكمة الاستئناف قضت ، فى ٨/٢٥ ، بتعديل حكم الغرامة إلى حكم بالحبس ثلاثة أشهر ، وبأن نقض هذا الحكم الاستئنافى قد قضى برفضه أيضاً فى الشهر التالى .

وتتعمد الوزارة ، فترسل ، يوم ٨/٢٥ بالذات ، إنذاراً إلى « اللواء » بخصوص مقالات شديدة كانت الجريدة قد نشرتها مؤخراً . وكان هذا الإنذار أول إنذار صادر لصحيفة ، بعدما أحيت الوزارة ، قبلها بخمسة أشهر بالتمام ، « قانون المطبوعات » القديم ، المقيد لحرية الكتابة .

لهذا ثار الرأى العام ، وبعث ببرقيات احتجاج ملأت أعمدة صحف الحزب الوطنى ، كما « بادر الشعراء إلى إبراز مشاعرهم وعطفهم على الحركة الوطنية ، وما أصابها من الاضطهاد فى شخص الشيخ جاويش » .

ولم يكن إيليا ظاهر أبى ماضي أقل وطنية ، فى هذه المناسبة ، من أحمد نسيم أو الشيخ على الغاياتى مثلا . إذ أننا نجده ينظم قصيدة تنشرها « اللواء » فى ٩/٤ ، تحت عنوان « إلى بطل الوطنية » ، خاطب فيها عبد العزيز جاويش فى سجنه قائلا :

لئن حجبوك عن مقل البرايا	فما حجبوا هواك عن الصدور
وإن تلك قد حبست وأنت حر	فكم فى الحبس من أسد هصور
كبير القوم أكثرهم خطوبًا	لذاك رميت بالخطب الكبير
لقد أعليت قدر السجن حتى	أحب السجن سكان القصور
ولا عجب إذا أسكنت فيه	فكم فى الليل من قمر منير
تعددت الطيور فلا حبيس	سوى الغرد الجميل من الطيور
يقول الشامتون : «السجن يزرى»	لئن صدقوا فبالجانى الكفور
وما فى صحبة الأشرار عيب	على الداعى إلى ترك الشرور
فصبراً يا نزيل السجن صبراً	فما عرف الهناء سوى الصبور
وحسبك عطف هذا الشعب فخرا	وحسب عداك توبيخ الضمير

وازداد الشعب عطفاً على الشيخ جاويش ، فتبرع الكثيرون لعمل وسام ذهبي مرصع بالأحجار الكريمة ، قلدوه إياه « اعترافاً بوطنيته الصادقة » فى احتفال أقاموه له[٣] يوم خروجه من السجن .

على أن السجن الذى ودّعه جاويش فجر ١٩٠٩/١١/٢٢ ، عاد ففتح

للشيخ أبوابه ، فى ١٩١٠/٨/٧ ، ليقضى فيه ثلاثة أشهر أخر ، عقاباً له على كلمة « الشعر والشعراء » التى قرظ بها ديوان « وطنيّى » للشيخ على الغاياتى ، أحد محررى جريدة « اللواء » .

والحق أن هذه الكلمة التى ظهرت أولا فى جريدة « العلم » بتاريخ ١٦/٦/ ١٩١٠ ، ثم صَدَّر الغاياتى بها ديوانه عند نشره ، لم تكن لتستحق محاكمة وعقوبة ؛ ولكنها حكومة محمد سعيد التى قرأت فى تقريظ الأستاذ الشيخ ، وفى تقريظ محمد فريد لنفس الديوان أيضاً ، أشياء لا نقرؤها نحن فى التقريظين .

وخرج جاويش من سجنه فى ١٩١٠/١١/٤ محفوفاً بالحفاوة ، لتصله ، ضمن التهانى ، قصيدة من أبى ماضى المعجب به ، عنوانها «نجوى شاعر» ، جاء فيها :

« عبد العزيز » تحية من شاعـــر ... ما قال إلا أطرب الجمهـــورا
إن شاء زف لك اللآلئ أحــرفًا ... أو شاء ساق لك النجوم سطورا
فنفسى فداؤك ، وهى نفس حـــرة ... تأبى الهوان وتكره التصغيرا
لما حبست حبست طرفى أن يرى ... وكتمت من ألم الفراق سعيرا
قالوا : «شهور لا تطول وتنقضى» ... ياويحهم سموا السنين شهورا
لا غرو إن طال الزمان مع النوى ... ليس اليسير مع البعاد يسيرا
ما شان قدرك منزل أنزلتــه ... أنى أقــام الحـــر كان كبيرا
فلقد وجدت السيف يقطع مغمداً ... حذراً ، ويقطع حده مشهورا
والبدر يجمل سافراً ومقنعًا ... والليث يعظم مطلقًا وأسيرا
حتام يشمت حاسدوك ولا أرى ... لهم عـــلى أيـــامهم تخيـــيرا
مادام هذا الدهر يعقب صفـــوه ... كدراً ، ويعقب عسره التيسيرا
لا يسلم الإنســـان من آفاتـــه ... حتى يكون مع الأثير أثيرا
فاصفح عن الواشين شيمة قـــادر ... فلأنت أسمح ما تكون قديـــرا
وأعد إلى الأقلام سالف مجدها ... وإلى الصحافـــة عزها المشهورا
وانفض من الأحقاد أفئدة الورى ... وامـــلأ قلوب الناشئين شعـــورا

(٤)

كانت الفترة التى عاشها أبو ماضى فى مصر فترة تكوينه العقلى . كما كانت فترة تكوينه البدنى . فإن الصبى ذا الحادية عشرة الذى نزل البلاد غرا عام ١٩٠٠ ، وَدَّعها عام ١٩١١ شابا فى الثالثة والعشرين ، وقد تحددت معالم فلسفته للحياة بمفاهيمها الاجتماعية والسياسية . وكانت الفترة ذاتها فترة تكوين الحزب الوطنى . فإن هذا الحزب الذى كان موجوداً فعلا فى مصر منذ ١٨٩٤ — كما ذكر مصطفى كامل — أصبح عام ١٩٠٧ حزباً رسمياً منظماً ، له لائحته، ورئيسه ، ومجلس إدارته ، وأعضاؤه .

فكأن أبا ماضى كان على موعد مع الحركة الوطنية لينمو وإياها فى وقت واحد ، حتى إذا ما بلغت هى كمالها ، وبلغ هو سن الرشد ، اختار أن يكون لها . وكيف لا ، والحركة حركة الشباب ، وحركة الأغلبية الشعبية التى هو منها ، وقضية مصر قضية عادلة إلا — كما قال هو — لـ « معترض فى قلبه مرض » . فوق هذا ، كان لمصر على أبى ماضى حق : فإنها استضافته ، فترعرع بين ربوعها ، ونعم بخيرها ،

وطـال مقامـه فيهـا لأن | أهلهـا قـوم كـرام
ودادهم عـلى الأيـام بـاق | وجـارهم عـزيز لا يضـام

فلا عجب إذن ، أن يتعلق بها ، ويعطف عليها كواحد من أبنائها ، ويعمل شيئاً من أجلها ليرد إليها بعض جميلها .

سمع الإسكندريون أبا ماضى مرة يلقى بحماس ، فى احتفال ، قصيدة جاء فيها هذه الأبيات التى تذكرنا كلماتها وموسيقاها بالأناشيد الوطنية :

أيا « مصر » أفديك بالأنفسين | بروحى وما ملكتـه يدى
أحبك حـتى تجف البحـار | ويمشى الفنـاء إلى الجلمـد
وما أنا وحدى المحب الأمين | فكم بى فى الناس من مقتد

ونسمعه ، ونحن نقرأ فى « ديوان تذكار الماضى » ، يخاطب النيل بعدما ملأ هذا النهر الخالد نفس شاعرنا هيبة ، إثر وقفة على شاطئه ، فيقول له :

وما أنا بالعبد الذى يرهب العصا ... ولكننى حــر تـــروع بوادره
أيا «نيل» فامنحنى على الحق قوة ... فما ســـود الضرغام إلا أظافـــره
وهبنى بأساً يسكن الدهر عنده ... فقد طالمـــا جاشت على منـــاخره

ثم ينتقل أبو ماضى بعد هذه الأبيات إلى وصف المحتل الظالم وعونه ، وإلى وصف شعب مصر المظلوم ، فيقول :

ف «غورست» فى «مصر» يسدد سهمه ... إليه ، و« قناص الوحوش » يضافره
يلجون فى إعناته ، فإذا شكـــا ... يصيحون : إن الشعب قد ثار ثائـــره
لقد هزأوا لما تنبه بعضـــه ، ... فلم ذعروا لمـــا تنبـــه سائره ؟
رعى الله من أبنائه من يذود عن ... حماه ، ومن أضيافه من يظاهره
هم بعثوا فيه الحياة جديدة ... فشدت أواخيه ، وعزت أواصره
وهم أسمعوا الأيام صوتاً كأنمـــا ... هو الرعد تدوى فى السماء زمـــاجره
وهم أطلقوا أقلامهم حين أصبحت ... مكبلـــــة أقـــلامه ومحـــــابره
كذلك إن يعدم أخو الظلم ناصراً ... فلن يعدم المظلوم حراً يناصره

ونسمعه كذلك فى قصيدة « عام ١٩١٠ » يقول :

إن لم أذد عن أرض «مصر» موفقاً ... أودى بآمالى الزمـــــان موفقـــــا

ولقد دهش بعضهم وقتها من موقف أبى ماضى هذا ، ومن اندفاعه فى الدفاع عن بلاد لم يولد فيها ، ولا يدين بدينها ، ومن إيمانه الصادق بإرادة شعبها ، فاستنكر عليه الأمر ، و« وافى يسوق إليه التعنيف والعذلا » ، ويسائله :

حتام تدفع عن « مصر » ولست لها ... بابن ولا ناقة تبغى ولا جملا ؟ !

ولكن أبا ماضى الشاب العاقل المتزن لم يأبه بهذا اللوم ، ويقول لنا :

فلذت بالصمت حتى لاح لى علم ... ضاف تداعبه أيدى الصبا جذلا
وقلت : انظر ! فولى شطره فرأى ... رسم الهلال ، فوارى وجهه خجلا
وعـــدت أرثى له ممـــا ألم بـــه ... وعاد يعثر فى أذياله خيـــــلا

ويمضى أبو ماضى فى نظمه لينقل إلينا فى الأبيات التى تلى هذه جوابه على سؤال أحد اليائسين المتخاذلين :

وقائل : كيف ترقى «مصر » ؟قلت له : حسب «الكنانة» شعب يعشق العملا
يقظان لا جزعاً مما يحاذره فمن يخف فشلا فى سعيه نشــلا
ثبت العزيمة لا يلـــوى بهمته كيد الطغام ، ولا بعد المرام ، ولا
شعب يسابق نحو المجد هاجسه إنى وجدت التوانى يخاق الكسلا
شعب أحب إليه الموت محترماً من أن يعيش طوال الدهر مبتذلا

(٥)

كان أبو ماضى واحداً من أولئك الشعراء الذين عرفوا ما لـ « فنهم الجميل » من فاعلية فى تحريك النفوس ، فكرسوه فى ذلك العهد للإسهام فى إذكاء جذوة الحرية بتلك الوطنيات التى قرأها لهم معاصروهم بإعجاب على صفحات الجرائد ، وقرأنا نحن بعضها مجموعة فى دواوين .

والمتصفح « ديوان تذكار الماضى » الذى طبعته لأبى ماضى المطبعة المصرية ، بالإسكندرية ، فى النصف الأول من عام ١٩١١ ، لن يفوته ملاحظة أن هذا الديوان قد تضمن قصائد سياسية دون أن يتضمن « باباً للسياسة » . ذلك أن شاعرنا تعمد سنتها ، على ما نعتقد ، عدم إفراد مثل هذا الباب فى ديوانه ، كما تحاشى أيضاً إيراد قصائد معينة له فيه ، حتى لا يوجه أنظار الرقابة إليه ، فتنال منه كما نالت من غيره : فهو قد رأى كيف صودر « وطنيتى » ، وكيف طورد الغاياتى ، وكيف حوكم الشيخ جاويش والزعيم محمد فريد ، وكيف حبس الأول ثلاثة أشهر مرتين والثانى ستة ، وكيف كانت الجرائد توقف ، وكيف كان أصحاب المطابع يستدعون ، وكيف . . . ، وكيف . . . ، فاحتاط من بطش رقابة الاحتلال الغاشمة التى قال عنها فى بائية له مجهولة :

كفى « مصر » أن الغاصبيها حقوقها أعادوا لها زمان « المراقب »
فعند شروق الشمس نكبة شاعر وعند غروب الشمس نكبة كاتب

لهذا نرى أبا ماضى أدرج قصيدة « وقال » فى باب « الأدب والاجتماع » ، عندما قدم ديوانه للنشر ، وأدرج « الذئاب الخاطفة » و « أيها القلم » ، و « مصر والشام » ، و « عام ١٩١٠ » ، و « أيا نيل » فى باب « أغراض شتى » ،

متناسياً فى الوقت نفسه قصيدة « مصر والاحتلال » اتقاء ما قد يترتب على إدراجها .

بيد أن المبررات التى حكمت على أبى ماضى ، عهدئذ ، بأن يتناسى قصائد له نظمها ، لا تحكم علينا نحن الآن بأن نتناساها أيضاً . فليس من الإنصاف ، لا للحركة الوطنية حين نؤرخها اليوم ، ولا لأبى ماضى حين ندرسه فى شبابه ، أن تظل قصيدة مثل « مصر والاحتلال » مدفونة بعدما نشرتها « الشعب » القاهرية ، فى ١٩١٠/٣/٢٧ بمقدمة تنم ، برغم إيجازها الشديد ، عن رأى أسرة تحرير هذه الجريدة فى أبى ماضى . قالت هذه الجريدة ، وكانت لسان حال الحزب الوطنى ، ما نصه :

« تفضل حضرة الشاعر الكبير المطبوع صاحب الإمضاء فأرسل إلينا هذه القصيدة العصماء يصف فيها مركز مصر إزاء الاحتلال بما عهد فيه من رقة الشعر وجزالته ، فنشكر له هذا الإحساس الشريف ، ونثنى عليه الثناء الجميل » .

فإذا لاحظنا أيضاً أن « الشعب » نشرت القصيدة على يسار مقالة « حول الدستور » لمحمد فريد — ولم يأت ذلك عفواً على ما نظن — ثبتت لنا تلك المكانة التى وصل إليها أبو ماضى ، عن جدارة ، واعترف له بها مبكراً فى حياته .

ف « مصر والاحتلال » إذن تستأهل نقلها هنا كاملة ، لأنها من أحسن وطنيات تلك الحقبة ، ومن عيون « مصريات » أبى ماضى ، ولأنها بمفردها ، تشهد على ما كان لناظمها فى شبابه من طبيعة شاعرة ، وشجاعة نادرة ، ووطنية صادقة .

خلّنى أستصرخ القوم النياما ... أنا لا أرضى لـ « مصر » أن تُضاما

لا تَلُمْ فى نصرة الحق فتى ... هاجه العابث بالحق فلاما

أو فلُمْنى إن قلبى كلّما ... زدت فى تعنيفه زاد هياما

سوف أشكو الهم إن أحرجنى ... ربما خففت الشكوى السقاما

وقفة فى شاطىء « النيل » معى ... نقرئ « النيل » التحايا والسلاما

وأناجيه أمانى أمة ... منعوها ماءه إلا لماما

علّه يبعث من أسراره ... قوة تبعث فى الشعب اعتزاما

قسماً بـ « النيل » لو أن به ... ما بنفسى من جوى سال ضراما

لست أنسى ليلة بتُّ بهـــا ... والأسى يدفع عن عينى المنـــاما
أرقب الأقمار فى أفـــلاكها ... مثل ما يرقب راعيها السوامـــا
لم يؤرقنى اشتياق أو هـــوى ... ما الهوى بغية من بالمجد هـــاما
راع نفسى أن «مصراً» رُوِّعَت ... بأبى «مصر» ومن فيها أقـــامـــا
حسب «مصر» أنها الأرض التى ... أمن الله بها «البيت الحراما»
وبنيها إنهم نســـل الألى ... عركوا الدهر فتيًّا وغـــلامـــا
كرمت «مصر» وأهلوها فمـــا ... نقضت عهداً ولا خانوا ذمامـــا
كان للأحرار فيها موئـــل ... يعصم الحر فلا يخشى اهتضامـــا
ثم هاض الدهر من جـــانبها ... إنما يهتضم الدهر الكـــرامـــا
أرَبى «مصر» على رغم العدا ... لست أعنى بالعدا إلا الطغـــاما
لست مصريًّا ولكن نسبـــة ... بيننا تجمع «مصرا» و«الشآما»
أمـــة ترتقب استقلالهـــا ... مثلما يرتقب الصادى الغمامـــا
ما لهم يسعون فى إيذائهـــا ؟ ... ما رمت سهماً ولا سَلَّت حساما
زعمـــوا إصلاحها وهى التى ... ما شكت غير همو داء عقـــاما
حبسوا «النيل» على نفعهمـــو ... وأعاضوها من الـــرى الأوامـــا
فإذا ماصرخت تشكـــو الصدى ... جعلوا القانـــون فى فيها لجـــاما
أنكروا خطوتهـــا نحـــو العـــلا ... «رب ذى لب عن الحق تعامى»
ورموهـــا بالتـــوانى ويحهـــم ... أخمـــول إنها تهوى السلاما ؟
قد خلت تسعة أعـــوام على ... شقوة «النيل» سوى عشرين عاما
وانقضى العمـــر ولمـــا تنجلـــوا ... فإلامَ أيها القـــوم إلا مـــا ؟
كبلوا أقلامنـــا جهد كمـــو ... وامنعوا الألسن والصحف الكلاما
وإذا عز عليـــكم أننـــا ... فى وئام فانشروا فينا الخصاما
وإذا عـــز عليـــكم أننـــا ... فى حياة فابعثوا فينـــا الحمامـــا
ينزع الأرواح من أجسادهـــا ... أو فكونوا أنتم المـــوت الزؤاما
إنما ينقلب الأمـــر إلى ... ضده إن جاوز الأمر التمـــاما

(٦)

ولنا أن نتساءل إذا كان أبو ماضى قد دخل فعلاً الحزب الوطنى ، وصار عضواً مقيداً فى قائمة أعضائه . فما لا شك فيه أنه آمن بوطنية الحزب ، فجاهر بها تماماً كما جاهر بها شعراء الحزب الرسميون . فنى أشعاره التى نظمها فى الفترة المصرية من حياته صدى واضح لمطالب هذا الحزب ، ولسياسته ، ولنشاطه ، ولأقوال رجاله .

طالب أبو ماضى المحتلين بالجلاء فى قصيدته السابقة ، فقال :

قد خلت تسعة أعـــوام على   شقوة النيل سوى عشرين عـــاما
وانقضى العمر ولما تنجلـــوا   فإلام أيهـــا القوم إلا مـــا ؟

وطالب بالدستور فى قصيدة « مصر والشام » ، بعد « معاهدة بانكوك » التى عقدت فى ١٩٠٩/٣/١٠ ، والتى ألغيت بمقتضاها الامتيازات البريطانية فى سيام ، فقال :

إلا م تمنع الدستور « مصر »   وقد كادت تفوز بـــه « سيام » ؟

وكان الجلاء والدستور مطلبىْ الحزب الأساسيين . إلا أن الجلاء ، الذى أصر عليه الحزب الوطنى « حتى صار أصبح تعريف له أنه « حزب الجلاء » ، لم يلق من أبى ماضى الاهتمام نفسه الذى لقيه الدستور منه . ونعزو هذا إلى أن زعامة الحزب الوطنى كانت هى المطالبة بالجلاء ، باسم الشعب ، على حين كان الشعب نفسه هو المطالب بالدستور ، تحت إشراف الحزب .

فنى أوائل عام ١٩٠٨ ، قامت فى مصر « حركة إجماعية للمطالبة بالدستور » أسفرت عن جمع عشرات الآلاف من العرائض ، وقع عليها ٤٥ ألف مواطن ، قدمها محمد فريد إلى الخديوى نفسه فى ٢٥ أبريل (نيسان) . وصادف أن قامت أيضاً ، فى نفس العام ، حركة فى تركيا كان نتيجتها إعلان عودة الدستور العثمانى فى ٢٣ يوليو (تموز) ، بعد إلغاء مؤقت دام ثلاثين سنة . فألهب هذا الإعلان حماس الشعب المصرى ، وحفزه إلى جمع دُفْعة جديدة من التواقيع لتقديمها

إلى الخديوى ، هذا فى حين بدأ الشعراء الوطنيون يؤهلون بعودة الدستور منتظرين نظيره فى مصر . وفى هذا المجال نظم أبو ماضى « تحية الدستور العثمانى » التى منها :

إلى حيث ألقت يا زمان المظالم — ولاعدت ياعهد الشقا المتقادم
ثلاثون عامًا والنوائب فوقنا — مخيمة مثل الغيوم القواتم
ويأيها الدستور أهلا ومرحبًا — «على الطائر الميمون ياخير قادم »
طلعت علينا كوكبًا غير آفل — على حين أن الشرق مقلة هائم
أهبت ففر الظلم بالأرض هاربًا — ونكس خزيًا رأسه كل ظالم
توهم قوم أنما الشرق واهم — وأنك يادستور أضغاث حالم

وفى ميمية أخرى مجهولة ، عنوانها « غادة الحرية » خاطب أبو ماضى الضباط الأحرار الأتراك ، عقب نجاح حركتهم ، وذكرهم بمدحت باشا (١٨٢٢ — ١٨٨٤) ، « أبى الدستور العثمانى » ، الذى نفاه السلطان عبد الحميد (١٨٤٢— ١٩١٨) ، حكم ١٨٧٦ — ١٩٠٩) إلى الطائف حيث لاقى مصرعه ، فقال :

معشر الأحرار أنتم خير من — يرتجى فينا إذا الخطبُ ادلهمّ
ولأنتم أرجح الناس حجى — ولأنتم أجمل الناس شيم
إن بـ « الطائف » قبرًا واضحًا — جاد ذاك القبر منهل الديم
لو درى ساكنه ، من طرب ، — جاءكم يسعى على غير قدم
فلسوه إن فيه ملكا — واسألوه تستفض منه الحكم

وفى قصيدة أخرى مجهولة أيضاً ، عنوانها « عيد الحرية العثمانى » ، نشرتها فى ١٩١٠/٧/٢٤ « العلم » ، لسان حال الحزب الوطنى ، تغنى أبو ماضى بعيد الدستور ، وبشهر يوليو (تموز) ، شهر الحرية الذى تُعَيِّدُ فيه الولايات المتحدة الأمريكية باستقلالها منذ ١٧٧٦ ، وفرنسا بثورتها منذ ١٧٨٩ ، فقال :

عيد إذا عُدّ فى الأعياد زينها — كالشمس فى الشهب ، هل للشمس أمثال؟
عيد رآه ذوو الحاجات فابتسموا — شوقًا ، وكم لذوى الحاجات آمال
تفاءلوا أن « تموز » يكون لهم — عيدًا كغيرهم ، قد يصدق الفال
« تموز » أنت منيل الشرق بغيته — فى حين أسمح قوم فيه بخال
يتنا نود شهور العام أجمعها — « تموز » ، وأن يوم العيد أجيال

(٧)

« كانت الأشهر الأولى من عودة الدستور — كما يقول توفيق على برو فى كتابه « العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى » — ممتلئة بروح الحماس والمحبة والأخوة بين الطوائف ، وعَبَّرَت الجماعات والأفراد عن شعورها بمختلف الوسائل . فقد أعرب السوريون فى الأرجنتين عن ولائهم للعهد الجديد بفتح اكتتاب عام للتبرع بسفينة حربية هدية للبحرية العثمانية ، وشكل أهالى بيروت حرساً وطنياً لمساعدة الجيش عند اللزوم ، وفى العراق ، ابتاع طالب بك النقيب ، نائب البصرة الجديد من ماله الخاص ، مركباً بخارياً ، أهداه إلى الحكومة كى تستخدمه فى المحافظة على شط العرب . . . وفى طرابلس الشام تضافرت أيدى الترك والعرب ، وأصبحوا يساهمون معاً فى الأعمال الخيرية . وحتى عبد الحميد نفسه أعرب عن إخلاصه للدستور ورغبته بالحفاظ عليه » .

أما فى مصر ، فيفيدنا قنيبر بأن محمد فريد خطب بالإسكندرية فهنأ الأمة العثمانية بإعلان عودة الدستور ، منادياً « ولتكن الآستانة كعبتنا السياسية من الآن ، فنحن من الأمة العثمانية ، لنا امتيازات لا تخرجنا عن كوننا عثمانيين » . واستنكرت بعض الأحزاب هذا التصريح الذى لم يكن جديداً فى سياسة الحزب الوطنى . فقد أكد الحزب ، منذ ظهوره ، تبعية مصر لتركيا — لكسب الجلاء ، وحارب من يدعو إلى الانفصال عنها . وفى هذه المناسبة ، شارك أبو ماضى فى التعبير عن شعوره ، وعن شعور العرب إجمالا ، والحزب الوطنى خاصة ، بالولاء لتركيا ، عندما خاطب السلطان « عبد الحميد بعد إعلان الدستور » قائلا :

أبا الشعب اطلع من حجابك يلتقى	بطرفك مثل العارض المتدفق
تَطَلَّعْ تَجِده حول قصرك واقفاً	يُحَدِّقُ تَحْديق المحب الموثق
يَهِشُّ لمرآك الوسيم ، وإنما	يُهَشُّ لمرآى الكوكب المتألق
ويعشق منك البأس والحلم والندى	كذلك من ينظر إلى الحسن يعشق
تفرق عنك المفسدون ، وطالما	رموا الشعب بالتفريق خوف التفرق
وكم أقلقوا فى الأرض ، ثم تراجعوا	يقولون : شعب مقلق أى مقلق

يطارحك الحب الذى أنت أهله وحسبك منــه الحب غــير مزوق
وها جيشك الطامى يضج مكبراً بما نال من عهد لديك وموثق
ويأيها الملك المقيم بـ « يلدز » ملكت قلوب الناس بالعرف فاعتق
وياحبذا عيد الجلوس فإنــه أجَلّ الذى وَلّى وأجمل ما بقى

ولكن عبد الحميد سرعان ما تنكر لدستور ١٩٠٨ كما تنكر لدستور ١٨٧٦ من قبل ، فقامت حركة فى الآستانة ، عام ١٩٠٩ ، لتخلعه ، وتخرج أخاه « رشاد » (١٨٤٤ — ١٩١٨) من سجنه ، وتوليه سلطاناً باسم « محمد الخامس » (١٩٠٩ — ١٩١٨) . وفى هذا ينظم أبو ماضى « فتنة ١٣ أبريل (نيسان) » التى بارك فيها الحركة ، ولام عبد الحميد ، ثم قال :

يا « رشاد » الملك تهنئة بالذى أوتيت مــــن نعم
أنت كـ « الصدّيق » أسكنــه فضله فى السجن من قِدَم
كن لهذا الشعب « يـــوسفه » ينج من عدم ومن عـــدم
أنت للشورى نعـــــوذهـــا بك من عـــات ومن نهـــم
فتقلـــــد سيف جدك «عثـ ـمان » ، جد البيض والخـــذم
وتَوَلّ المُلْكَ من أمـــم وبحبل الله فـــــاعتصم
دمت يـــا خير الملوك لـــه غير مـــا هم ولا سقـــم

وازداد أبو ماضى ولاء للسلطان الجديد ، فتمثله ، فى عامه الثانى من حكمه ، هارون الرشيد ، وتمثل الآستانة ، مقر الخلافة الإسلامية وقتذاك ، بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، فقال فى « عيد الحرية العثمانى » :

المُلْكُ لاق به من كالـ «رشاد» حجى هيهات ما لـ « رشاد » الملك أمثال
« دار السلام » سقتك السحب هامية ما دام للسحب فى الأكوان تجوال
إنى أرى فيك « بغداداً » ، وأبصر فى برد « الرشيد » « رشاد » الملك يختال
يا درة الشرق دمت الدهر حالية فالشرق لولاك أمسى وهو معطال

(٨)

« فى أواخر سنة ١٩٠٩ ، وأوائل سنة ١٩١٠ — يقول الرافعى — شغلت الرأى العام مسألة كبرى ، تتصل بحياة البلاد المالية والسياسية ، ونعنى بها مشروع مد امتياز قناة السويس . وفحوى هذا المشروع أن المستشار المالى البريطانى « مستر بول هارفى » ، أخذ يفكر — بهواه — فى وسيلة يسد بها حاجة الحكومة إلى المال . فدخل فى مفاوضة مع شركة قناة السويس ، لمد امتيازها أربعين عاماً (من ١٩٦٨ إلى ٢٠٠٨) ، تلقاء أربعة ملايين من الجنيهات تدفعها الشركة للحكومة . . . وقد ظل المشروع فى طى الخفاء زهاء سنة ، وكان فى عزم الوزارة إنفاذه بسرعة ، حتى لا يزعجها احتجاج الصحف الوطنية . ولكن « فريداً » تمكن من الحصول على نسخة من المشروع فى أكتوبر (تشرين أول) ١٩٠٩ ، فبادر إلى نشرها « اللواء » ، ثم قفى على أثرها ببيان أسرار المشروع وأسبابه ، ومبلغ الغبن الذى يصيب مصر من ورائه ، وشرح ذلك فى سلسلة من مقالات مستفيضة » .

وتبع ذلك أن شن الكتاب والشعراء الوطنيون حملة عنيفة على المشروع ، كان من جرائها رفض « الجمعية العمومية » المشروع بإجماع الأعضاء ، فى جلستها بتاريخ ١٩١٠/٤/٧ .

وكان لهذا الرفض وقع حسن فى نفوس المصريين . ورأى بعضهم ، فى الإسكندرية ، أن من واجبه تكريم نوابه الذين يرجع إليهم فضل رفض إنفاذ المشروع ، فوجه « دعوة إلى الإسكندريين » ، فى « الشعب » القاهرية ، ١٩١٠/٤/١٧ ، هذا نصها :

« تعلمون — حفظكم الله — مقدار ما أبلاه البطلان العظيمان إسماعيل باشا أباظة ، وعبد اللطيف بك الصوفانى ، وزملاؤهما ، من البلاء الحسن فى « الجمعية العمومية » ، ومدافعتهم عن حقوق الأمة ، ورفضهم « مشروع القنال » ، بعدما أظهروا للعالم أجمع مقدار ما يصيب الأمة من الأذى والمضار إذا قبلته . تعلمون عن كل تلك الأعمال التى أخرست ألسنة كل مكابر ناكر لكفاءة الأمة وعظيم مقدرتها ، تلك التى برهنت بأقوى دليل على أن المصرى لو أعطى من الرأى النافذ

والحرية فى العمل فى شؤون بلاده لخدمها بأحسن ما يخدم به المرء بلده ، ولسَمَا بها إلى أعلى عليين .

ولقد اقترح حضرة الوطنى الغيور « محمود أفندى حمدى السخاوى » ، على صفحات « الشعب » ، عمل مظاهرة يقوم بها الإسكندريون تكريماً لنوابهم الأماجد الذين جاهدوا فى سبيل أمتهم خير جهاد ، وطلب من كل وطنى حر الاشتراك معه فى القيام بهذه المظاهرة قريباً .

ونحن نستحسن هذا الاقتراح غاية الاستحسان ، ونضم صوتنا إلى صوته ، وندعو إخواننا الإسكندريين لمساعدته للقيام بالواجب نحو نوابهم الأحرار ، لأن مثل هذه المظاهرات أعظم مشجع لهؤلاء الأبطال على السير فى طريق جهادهم ، وتُعَدُّ بمثابة شكر واستحسان لما أتوا به من جلائل الخدمات . وأملنا فيهم — وهم المشهورون بالغيرة الوطنية والحمية الملية — أن يسرعوا لإجابة هذه الدعوة ، وإنا لذلك منتظرون . وفقنا الله جميعاً لصالح الأعمال . آمين » .

وقد وَقّعَ هذه الدعوة وطنيون ستة ، هم : محمد عوض جبريل السكندرى ، محمود حسن الدرسلى ، السيد الشيمى ، محمد طاهر ، محمد على منصور وكيل « المنار » ، إيليا ظاهر أبو ماضى بشارع راغب باشا .

ولا يكتفى أبو ماضى بالاشتراك فى توجيه هذه الدعوة ، بل يسجل نصر الوطنيين فى معركتهم ضد مد امتياز القنال ، فينظم فى قصيدة « عام ١٩١٠ » :

وسعوا إلى سلب « القناة » فأخفقوا ... سعيا ، وشاء الله ألا نخفقا
عرض الحساب «المستشار» ولم يكن ... لولا السياسة حاسبًا ومدققا
أيكون غاصبنا ويزعم أنه ... أمسى علينا محسنًا متصدقا ؟!

ويسجله ثانية فى قصيدة « أيا نيل » ، التى نشرتها « العلم » نفس العام ، فيقول :

ألم يك فى يوم « القناة » ثباته ... دليلا على أن ليس توهى مرائره ؟
يعز على المصرى أن يحمل الأذى ... وحاضره يأبى الهوان وغابره

(٩)

تطورت الحركة الوطنية فى مصر ، أواخر ١٩٠٨ ، من حركة سياسية بحتة إلى حركة سياسية اجتماعية تبغى إصلاح مصر اجتماعياً ، قدر ما كانت تبغيه سياسياً . فنشط الحزب الوطنى — معتمداً على كفاءة أعضائه وغيرة مؤيديه — فى مجالين رئيسيين : مجال العمال وأرباب الحرف ، ومجال التربية والتعليم .

أما العمال ، فأول ما قام به الحزب نحوهم — قبل دعوته إلى وضع التشريعات لحمايتهم وإنشاء نقابات لهم — هو إنشاء مدارس ليلية مجانية لتنويرهم وتوعيتهم ، سماها « مدارس الشعب » . وافتتحت أولى هذه المدارس فى حى بولاق بالقاهرة ، فى ١٩٠٨/١١/٧ ، وتولى التدريس فيها كبار أعضاء الحزب ، وعلى رأسهم الشيخ جاويش نفسه . وتبع ذلك افتتاح ثلاث مدارس مماثلة فى ثلاثة أحياء أخرى بالعاصمة .

وفى أبريل (نيسان) ١٩١٠ ، اتفق نخبة من الوطنيين فى الإسكندرية على تأليف « جمعية مدارس الشعب » لإنشاء هذه المدارس بالثغر . فوَجَّهَ الصيدلى عبد الله محمد ، صاحب « أجزخانة عبد الله » المجاورة لجامع سلطان ، دعوة لاجتماع عام يبرز الجمعية إلى حيز الفعل . وأسفر هذا الاجتماع ، الذى عقد عند الصيدلى مساء ٤/١٣ ، عن انتخاب لجنة تحضيرية للجمعية ، ثم عن انتخاب لجنة الجمعية وسكرتيرها وأمين صندوقها ، فى اجتماع اليوم التالى .

ولم يكن أبو ماضى قريباً إلى هذه الجمعية عند تكوينها لأن مركزها صيدلية متاخمة لدكانه ، ولكن ، لأنه كان من أوائل الذين قاموا لمناصرتها . فما كادت « الشعب » ، الناطقة بلسان الحزب الوطنى ، تنشر فى عدد ٤/٨ كلمة ، تحبذ فيها فكرة مشروع مدارس الشعب بالإسكندرية ، وتحث فيها أكابر الثغر وأدبائه ، وسائر أهاليه إلى تعضيد هذا المشروع ، حتى كان أبو ماضى قد نظم « هديتى إلى مدارس الشعب بالإسكندرية » ، وبعث بها إلى الجريدة . فنشرتها هذه ، فى عدد ٤/٢٤ ، ممهدة لها بالمقدمة الآتية :

« أرسل إلينا حضرة الشاعر المجيد ، صاحب التوقيع ، هذه القصيدة العصماء ، وقد عارض فيها قصيدة الشاعر الكبير حافظ أفندى إبراهيم التى قدمها إلى « جمعية رعاية الأطفال » (فى حفل أقيم ١٩١٠/٤/٨ ، فى دار « الأوبرا » بالقاهرة) . ولا ريب أن أمثال هذه المواضيع الأخلاقية لمما يجدر بالشعراء المجيدين طروقها ، بثاً لروح الفضيلة فى النفوس ، وتنمية لمكارم الأخلاق فى الأمة . فنثنى على هذا الشاعر الفاضل ، ونأمل أن يكون لسائر شعرائنا جولة مشهودة فى هذا الميدان المحمود » .

والقارئ لـ « هدية أبى ماضى » سيجد أنها من الشعر الاجتماعى الذى – عَرَّفَهُ بدوى طبانة بقوله – « يعالج أحوال المجتمعات الإنسانية ، ويصف عللها وآلامها ، ويشرح أمانيها ومطالب حياتها » . وسيجد قارئها أيضاً أن ناظمها كان مصدوع الفؤاد حينما ندب فيها حالة العمال ، مما جعله يختمها بهذا النداء الإنسانى :

فخذوا بناصرهم فإن حيـــاتهم ... فى مأزق حرج من الأهـــوال

ما أجدر الجهلاء أن يتعامـــوا ... فالعلم مصدر هيبة وجـــلال

فاسعوا لنشر العلم فيهم ، إنما ... فضل الغمام يبين فى الأمحـــال

إن الجهول إذا تعلم واهتدى ... بث الهدى فى صحبه والآل

ياقوم ، إن لم تسعفوا فقـــراءكم ... فَلِمَ ادخاركم إذًا للمـــال ؟

هلا رضيتم بالمحامد قنيـــة ؟ ... إن المحامد قنيـــة المفضال

أو لستم أبناء من سارت بهـــم ... فى المكرمات روائع الأمثـــال ؟

جودوا ، فغير الحمد غير مخلد ... ما المال ؟ إن المال طيف خيال

هيهات ، ما يبقى ولو عدد الحصى ... أنَّى يدوم وربـــه لزوال

(١٠)

رأى الحزب الوطنى ، حين انبرى لإصلاح مصر إصلاحاً اجتماعيًّا ، أن التعليم هو عماد هذا الإصلاح الذى كان يهدف إليه ، أو هو «خير دواء يصلح الخللا » – حسب تعبير أبى ماضى . فقام الشيخ جاويش ، وهو المربى الذى انقلب سياسيًّا ، بوضع برامج تعليمية عصرية لتقويم التعليم المصرى فى جميع مراحله وبكل أنواعه .

ولم يَنْسَ هذا الشيخ الأزهرى ، وهو فى غمرة التخطيط ، تحديث الأزهر ، معهده الدينى القديم ، وكذلك تعصير رجاله . فأوجد مشروع «البعثة الأزهرية» الذى من شأنه أن يرسل أزهريين ، بشكل منتظم إلى فرنسا ، لتلقّى علوم الرياضة ، والكيمياء ، والطبيعة ، والاقتصاد السياسى ، والتاريخ . ونجح المشروع ، وجُمِعَ له من المال ما سمح بإرسال بعثة من ثلاثة مشايخ ، رافقها الشيخ جاويش .

وقبل إبحار البعثة من الإسكندرية ، فى يناير (كانون الثانى) ١٩١١ ، أقام الوطنيون بالثغر احتفالا فخماً لوداعها ، فى فندق « متروبول » ، دُعِيَ إليه أماثل المصريين وذوو الفضل والعلم . وفى هذا الاحتفال أنشد أبو ماضى قصيدة له مجهولة ، خاطب فيها المبعوثين فقال :

ويأيهـا الظاعنـون الكرام — إلى « الغرب » فى طلب السؤدد
إذا ما ركبتم غداة السفين ، — مطايا بنى الأرض ، فى المـزبد
وأصبحتم فى بـلاد الألّى — متى ينـذروا دهـرهم يـرعد
ألا فاذكروا أنكم أمـة — على ضعفها جمة الحسـد
وأن « الكنانة » ترجو بكم — نصيرًا على الجـائر المعتدى
تطالبكم « مصر » أن تعملـوا — ألا فاعملـوا ، يارجـال الغد
خذوا بالعلوم وأسبـابهـا — فَلَلْعلْمُ خير من العسجـد
هو الكنز لكنـه خـالد — إذا نفـد المـال لم ينفـد
أخو العلم حـر وإن لم يكن — وذو الجهل ما انفك فى الأعبد
ولو لم يَكُ الله سبحـانـه — عليم السرائر لم يعبـد
وكم أطلق العـلم مستعبـدًا — وكم خفض الجهل من سيـد
وكم أمـة وجدت عـزها — به ، وهى لولاه لم توجـد
ألم يَكُ فى الشرق مصباحنـا — فلما فقدناه لم نهتـد ؟
إلى الملتـقى ، أيها الراحلون — فليس اللقاء بمستبعـد
كفى « مصر » أنكم رسلهـا — وحسبـكم شرف المقصـد

(١١)

كان لعبد العزيز جاويش أثره فى أبى ماضى كما كان له أثره فى نخبة من شباب العصر . إلا أن أثر جاويش فى أبى ماضى ما كان نتيجة الاتصال الشخصى المباشر – فالظروف لم تتح للشاعر أن يتأثر بشخصية الشيخ كما أتاحته لتربه طه حسين (١٨٨٩ – ١٩٧٣) مثلا – وإنما كان نتيجة قراءة أبى ماضى لنتاج الشيخ اليومى فى الجرائد ، قراءة مستوعبة .

فعندما صدر القرار الوزارى فى ١٩٠٩/٣/٢٥ ، لتقييد حرية الكتابة ، نشرت « اللواء » فى اليوم التالى مقالة لجاويش ، جاءت فواتح فقراتها كما يلى :

« أيها القلم ، لو كنت سيفاً لأغمدتك فى صدور من يحاربونك .

أيها القلم ، استلانوا عريكتك .

أيها القلم ، أسكون بعد حركة ؟

أيها القلم !! أهذا آخر عهدك بالقرطاس ؟

أيها القلم ! تشيعك اليوم أفئدة أيقظتها .

فلتكن ، أيها القلم ، كما شاءوا لك .

وأنت يارب القلم ! » .

ولقد أوحت هذه المقالة النارية – التى أحدثت ردود فعل فى الـ « إجيبشيان جازيت » ، جريدة الاحتلال ، وفى جريدة « المؤيد » التى كانت وقتها موالية للسلطة الحاكمة – أوحت إلى أبى ماضى أن ينظم قصيدة بعنوان « أيها القلم » ، وأن يناجى فيها يراعه فيقول :

ماذا جنيت عليهم أيها القلم ؟ والله ، ما فيك إلا النصح والحكم
إنى ليحزننى أن يسجنوك ، وهم لولاك فى الأرض لم تثبت لهم قدم
خلقت حراً كموج البحر مندفعاً فما القيود ؟ وما الأصفاد واللجم ؟

إلى أن يقول :

وأرهقوا الصحف والأقلام فى زمن يكاد يعبد فيه الطرس والقلم

ولعل تأثير الشيخ جاويش يظهر جلياً فى تلك الأبيات التى ندد فيها أبو ماضى

بالربا وبالخمر . ففى أوائل سنة ١٩٠٨ ، تعرض الشيخ لموضوع الربا . كما نوه عن الخمر ، فى محاضرات ألقاها بنادى دار العلوم . لمدة أربعة عشر يوماً . ونشرت « المؤيد » أولى هذه المحاضرات ، مثنية على الشيخ . ونشرت « اللواء » بقيتها . وكان أن استهل جاويش محاضراته متعجباً أشد العجب من الذين أصبحوا « يشربون الخمر . . . ويُؤَكِّلُونَ الربا ولا يأكلونه ، فكأنهم قضى عليهم أن يخسروا الدنيا والآخرة » .

وفى هذا المعنى نظم أبو ماضى ، فقال فى قصيدته لمحمد فريد :

فليتقوا الله فى « مصر » بلادهم	« كنانة » الله ذات المجد والحسب
بات المرابى مع الخمار يسلبها	هذا العقول ، وذاك خالص النشب

وقال فى قصيدته « إلى الشبان المتفرنجين » :

ألهتهم الدنيـــا ، فهذا بالطلى	صب ، وهـــذا بالحسان متيم
والخمر فاتكة ، فكيف بنـــاعم	ترف ، يكاد من النسائم يسقم ؟
قد أصبحوا وقفاً على شهواتهم	يستسلمون لهـــا ولا تستسلم
لم يفهموا معنى الحياة وكنههـــا	إن البلية أنهم لم يفهمـــــوا

ووصف فى « هديتى » ما شاهده فى حانة أثناء سيره ليلا فى أحد شوارع الإسكندرية ، فقال :

فاستوقفتنى ضجـــة فى حـــانة	حبست مقاعدها على الجهـــال
حـــاموا على الصهباء يرتشفونها	كالطير حـــول مصفق سلسال
نهب الكؤوس عقولهم ونضارهم	نهب المدير الخادع الختـــال
أمسى يسوق إليهم آجـــالهم	وحتوفهم فى صورة الجريـــال
شر الشراب الخمر ، يصبح صبها	قيد الضنى ، ويبيت رهن خبال

ثم خاطب الخمار ، فقال له :

ياسالب الأرواح ، بعض ترفق	يكفيك أنك سالب الأمـــوال
لا تدفعن تلك النفوس إلى الردى	إن النفوس — وإن صغرن — غوال

ولا يقف أبو ماضى عند هذا ، بل يحمل معه إلى الولايات المتحـــدة ، أواخر

١٩١١ ، كرهه للربا . فيقول فى قصيـــدة « خواطر شاعر » (نزوة ألم) ، بعد ما رأى عياناً حالة المهاجرين التعسة ، ورأى الربا فاشياً بينهم :

وما همى سوى شعب تعيس ... شتيت الشمل ، جم الاضطراب
يحاول رزقه فى المـــدن آنـــا ... وآناً فى السبـــاسب والهضـــاب
ولو عرف السحاب يدر مـــالا ... لأصبـــح راكباً متن السحـــاب
رمته الحادثـــات بكل سهم ... وخدشه الزمـــان بكـــل نـــاب
فراح كأنما هو شعب موسى ... غداة التيـــه فى القفر اليبـــاب
نأى عن أرض « مصر » حذار ضيم ... ففر مـــن العذاب إلى العـــذاب
بليتنـــا صحـــافى مـــراء ... يداجينـــا ، ومـــالى مـــرابى

ويصعب على ، بعد هذا القليل الذى عرضته ، أن أضيف شيئاً مفصلا يوضح أثر جاويش فى تكوين أبى ماضى الفكرى . ذلك لأن أثر الشيخ فى شاعرنا أعمق من أن أقدر أنا على سبره ، وأشمل من أن أقوم بحصره . لهذا أجمل فأقول : إن جاويش ، بكلمة « الشعر والشاعر » التى كتبها لـ « وطنيتى » وبسببها سجن ، كان العامل المساعد ، إن لم يكن المسئول الأول ، الذى عَجَّل بأبى ماضى إلى الخروج من نطاق مفهوم الشعر والشاعر العتيق الضيق ، الذى كان سائداً وقتذاك ، إلى مفهوم جديد رحب ، مفهوم لم يغب لحظة عن بال شاعرنا منذ أن ترك مصر متجهاً إلى أمريكا . وقد مَكَّن أبا ماضى من تحقيق هذا المفهوم فى المهجر طبيعته المتقبلة للأفكار ، التواقة إلى الإبداع وطبيعة الأدب المهجرى نفسه النزاعة إلى التجديد .

وثمة كلمة ثانية نلمس أثرها فى « ديوان تذكار الماضى » بالذات ، هى كلمة محمد فريد التى أتحف بها « وطنيتى » ، وبسببها سجن هو أيضاً . هذه الكلمة ، « تأثير الشعر فى تربية الأمم » ، التى كان ظهورها أولا فى جريدة « الشعب » ١٩١٠/٦/٨ ، جاءت فى ختامها النصيحة التالية :

« فعلى حضرات الشعراء أن يقلعوا عن عادة وضع قصائد المديح . . . وأن يستعملوا هذه المواهب الربانية فى خدمة الأمة وتربيتها ، بدل أن يصرفوها فى

خدمة الأغنياء ، وتمليق الأمراء ، والتقرب من الوزراء . فالحكام زائلون ، والأمة باقية . والسلام على من سمع ووعى ، ووفق لخدمة بلاده وسعى ، فـ « إن سعيه سوف يُرى ، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى » .

وانتصح أبو ماضى ، فخرج ديوانه المصرى خالياً من قصائد المديح ، مرفوعاً « إلى الأمة المصرية ، الأمة الودود . . . لا طلباً للمثوبة ، ولا ابتغاء للشكر ، ولكن إظهاراً لما تكنه جوانحى من العطف عليك والتعلق بك . . . ولقد يكون لى أن أهديه إلى أحد أفرادك من ذوى الفضل ، جرياً مع العادة ، ولكنى رأيت المجموع خيراً وأبقى » .

(١٢)

كان على أبى ماضى أن يتفكر فى مصيره فى مصر حين رأى الضربات القواصم تتتالى على الحزب الوطنى . فهو قد ارتبط بهذا الحزب ارتباطاً — مهما بدا لنا اليوم متواضعاً — ما كان ليغيب وقتذاك عن من تابع قراءة قصائد له فى صحف الحزب المختلفة ، ومن تتبع نشاطه الوطنى فى الإسكندرية . واسترساله فى وطنيته — فى فترة من تاريخ مصر خضعت الصحف فيها للرقابة الشديدة ، وانتشرت شبكة الجاسوسية حتى بين الأصدقاء — أصبح محدقاً بالمكاره والشدائد لا محالة . زد على هذا أنه كان شابًّا هائماً بالمجد — كما قال هو ، تائقاً إلى مركز فى عالم السياسة — على ما نظن نحن ، فليس غريباً ، وقد شعر أن الظروف فى مصر لن تؤاتيه بغيته ، أن يرجع صيف ١٩١١ إلى موطنه الذى ظل يهواه ويحن إليه طوال سنى اغترابه . قال أيام كان فى الإسكندرية :

تحن إلى بلاد « الشام » نفسى	أقطر « الشام » حياك الغمـــام
وما غير « الشآم » وســاكنيـــه	لبانتنـــــا ، وإن بعد « الشآم »

وقال :

أشتاقه ، وكفى بشوقى أنـــــه	شوق الغريب الفــرد للأوطان
وأحبه حبى الحيــاة ، ومشبه	حبيــه حب الزهــر للبستـــان

قيدت قلبي فى هواه ، فلم أعد   أهوى السوى إذ ليس لى قلبان

وقال :

أهوى بلادى دانيًا أو نائياً   أعلىَّ فى حب البلاد جناح ؟
«لبنان»لست أ ، ولستفتاك إن   صرفت فؤادى عن هواك رداح
زعم العواذل أن سلوتك ، ويحهم   غير السلو لمن أحب يتاح
ما إن هجرتك عن قِلًى ، لكنما   قلب إلى نيل العلى طماح
«لبنان» ، حسبي أنني لك أنتمى   وكفاكَ أنى البلبل الصداح
أشدو بذكرك ما بقيت ، ومرقمى   تجرى به فوق الطروس الراح
قالوا : سكت ، فقلت : ليس بضائرى   بعض السكوت كأنه إفصاح
فلربما صمتت شفاه ذوى الهوى   عمداً ، لكى تتخاطب الأرواح

وقال :

بلاد قد طبعت على هواها   كما طبع الزمان على عنادى
أحن إلى لقائهم وأصبو   كما حنت إلى الماء الصوادى
يكاد الشوق ينقلني إليهم   لو ان الشوق ينقل غير باد
ترُى ، هل عندهم أنى ودهرى   لأجلهم أبيت على جهاد ؟
فنى أرق إذا غفلوا وناموا   وفى خوف ولو أمنوا العوادى

وقال :

« لبنان » بلادى وكفانى   فخراً أن أدعى لبنانى
وطنى المحبوب له وقف   قلمى وحسامى ولسانى
بأبى « لبنان » ومن فيه   فبه وبهم يعلو شانى
أهتز لذكراه طرباً   ما أحلى ذكرى الأوطان
وأكاد أميد فأحسبنى   نشوان ، ولست بنشوان
لكنى صب يطربنى   ما يطرب كل فتى عان
ردد ذكراه على سمعى   واترك نغمات الألحان
أفنيت شبابى مغترباً   يا ويحى مغترباً فان

رجع أبو ماضي إلى لبنان وهو متشبع بالروح الوطنية ، وعالم بحال لبنان وطنه الصغير . فقد تابع أخبار هذا الوطن وهو فى مصر ، وزاره أكثر من مرة – على ما يظهر لنا – ما بين ١٩٠٠ و ١٩١١ ، وأفرد له قصائد بكاملها ، مثل : « فى سبيل الإصلاح » . و « نفثة مصدور » ، و « حنين الغريب » ، و « نجوى لبنانى » ، تناول فيها مشاكل هذا الوطن . وكما أن حال لبنان لم تعجب أبا ماضى عام ١٩٠٨ ، فهى لم تعجبه أيضاً صيف ١٩١١ .

كان لبنان ، منذ ١٩٠٧ ، تحت حكم يوسف باشا فرنكو ، المتصرف العثمانى المرسل من قبل الآستانة . « وكان يوسف باشا – كما قال عنه إلياس الحويك – مستسلماً لمحيطيه وأذنابه ، وواقعاً تحت انتداب زوجته الحسناء . . . امتاز بممالأته الدولة (العثمانية) على خرق نظام لبنان ، وفعل أموراً كثيرة لم يكن النظام يجيزها ، ودون أن يأخذ موافقة المجلس » .

أما الخورى إبراهيم حرفوش ، فقال : « ولم يحقق يوسف باشا الآمال بما كان ينتظر منه من الحزم وإصلاح الشئون ، بل ظهر ضعيفاً قاصراً فى الإدارة . وقد وقعت فى أيامه حوادث هامة مشهورة » .

كان لا بد إذن لأبى ماضى الشاب القائل :

إنى امرؤ كلف بإدراك العلى ‏ ‏ دأبى الجهاد وغايتى الإصــلاح

أن ينضم ، بُعَيْدَ رجوعه إلى لبنان ، إلى حركة المعارضة ، وأن يرفع صوته معها مطالباً بالإصلاح . ولم يَرُقْ هذا بعض أولى الأمر ، فراح يناصب أبا ماضى – ومن هو منهم – العداء ، ويتهمه وإياهم بأشياء ، هو وهم منها براء :

وطن أردناه على حب العلى ‏ ‏ فأبى سوى أن يستكين إلى الشقـا
أمسى وأمسى أهلـه فى حالة ‏ ‏ لو أنها تعرو الجماد لأشفقــا
أوَ كلما جاء الزمان بمصلح ‏ ‏ فى أهله ، قالوا : طغى وتزندقا ؟ !
وعصابة ما إن تزحزح أحمقـا ‏ ‏ عن رأسها حتى تولى أحمقــا
راحت تناصبنا العداء كأنمـا ‏ ‏ جئنا فريـًا أو ركبنا موبقـا
وأبت سوى إرهاقنا فكأنمـا ‏ ‏ كل العدالة عندها أن نـرهقا

قيل اعشقوها . قلت : لم يَبْقَ لنا معها قلوب كى نحب ونعشقا
إن لم تكن ذات البنين شفيقة هيهات تلقى من بنيها مشفقا

فلما صعَّد أبو ماضى نشاطه الإصلاحى ، لاقى فى لبنان بلده خلال أشهر ما لم يُلاقِه أبداً فى مصر مدة سنين . قال فيما بعد يصف ما لاقاه :

قَوْمى ، وقد أطربتهم زمناً ، ساقوا إلىَّ الحزن والكمدا
هم هددونى حين صحت بهم صيحاتى الشعواء منتقدا
ورأيت فى أحداقهم شرراً ورأيت فى أشداقهم زبدا
وسمعت صائحهم يقول لهم : أن اقتلوه حيثما وجدا
فرجعت أحسبهم برابرة فى مهمه ، وأظننى ولدا
مرت ليال ما لها عدد وأنا حزين باهت كمدا
أرتاع إن أبصرت واحدهم ذعر الشويهة أبصرت أسدا
وإذا رقدت رقدت مضطرباً وإذا صحوت صحوت مرتعدا
لا تذكروهم لى ، وإن سألوا لا تذكرونى عندهم أبدا

أمام هذه التهديدات وهذه الحال ، لم يَبْقَ أمام أبى ماضى إلا الرحيل عن لبنان خوفاً على نفسه من « سياسة يوسف باشا الانتقامية من معارضيه وممن ينتمون إليهم » . ولكنه لم يشأ أن يرحل دون أن يهاجم ، للمرة الأخيرة « السلطات والأوضاع الشاذة التى كان الوطن يعيش فيها » . فنظم قافيتَهُ الجارحة « وداع وشكوى » ، وعرضها على أستاذه القديم الشيخ إبراهيم المنذر ، الذى قاد عام ١٩٠٨ معارضة شعبية عنيفة ضد المتصرف . فهذبها المنذر له ، وألقاها أبو ماضى فى إحدى المناسبات ، ثم أبحر بعدها على الفور هارباً إلى الولايات المتحدة « لعله بالغرب ينسى المشرقا » . وبعد رحلة استغرقت عشرين يوماً ، نزل أبو ماضى أواخر ١٩١١ فى مدينة نيويورك ليختم بعدها قافيتَهُ المقذعة قائلا :

أصبحت حيث النفس لا تخشى أذى أبداً ، وحيث الفكر يغدو مطلقا
نفسى اخلدى ، ودعى الحنين ، فإنما جهل بُعَيْدَ اليوم أن نتشوقا
هذى هى « الدنيا الجديدة » فانظرى فيها ضياء العلم كيف تألقا
إنى ضمنت لك الحياة شهية فى أهلها ، والعيش أزهر مونقا

وبختام هذه القصيدة التى نشرتها له مجلة «الزهور» القاهرية فى يونيو (حزيران) ١٩١٢ ، وصادف نشرها فشل فرنكو فى تجديد حكمه ورحيله النهائى عن لبنان فى الشهر التالى ، ختم أبو ماضى — فى رأينا — أخطر مراحل حياته . فقد كانت المرحلة الشرقية ، أو بالأحرى المرحلة المصرية من حياته ، هى مرحلته المصيرية التى فيها غرس «خمائله» ، ومنها جرت «جداوله» .

المراجع

١ — « الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية فى الأدب العربى المعاصر» : عبد العزيز جاويش ، ١٨٧٢ — ١٩٢٩ » تأليف سالم عبد النبى قنيبر . بنغازى ، دار مكتبة الأندلس ، ١٩٦٨ .

٢ — « أمير شعراء المهجر : إيليا أبو ماضى ، ١٨٨٩ — ١٩٥٧ » بقلم جرجى إبرهيم نصر ، « المشرق » ، بيروت ، تشرين الثانى — كانون الأول (نوفمبر — ديسمبر) ١٩٦٩ ، ص ٦٤٧ — ٦٦٠ .

٣ — « إيليا أبو ماضى » بقلم جبور عبد النور ، « الآداب » ، بيروت ، شباط (فبراير) ١٩٥٣ ، ص ٣٨ — ٤٢ .

٤ — « إيليا أبو ماضى يقول . . . » بقلم خيرية خيرى ، « الجيل » ، القاهرة ، ١٩٥٥/١١/١٤ ، ص ٣٥ .

٥ — « خمسة من شعراء الوطنية : أحمد محرم، أحمد نسيم ، أحمد الكاشف ، عبد الحليم المصرى ، على الغاياتى » . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ .

٦ — « ديوان إيليا أبو ماضى ، الجزء الثانى » . نيويورك ، مطبعة « مرآة الغرب » اليومية ، ١٩١٩ .

٧ — « ديوان تذكار الماضى » نظم إيليا ظاهر أبو ماضى . الجزء الأول . الإسكندرية ، المطبعة المصرية ، ١٩١١ .

٨ — « الزهور » ، القاهرة ، ١٩١٢ .

٩ — « الشعب » ، القاهرة ، ١٩١٠ .

١٠ — « شعر » للشيخ إبراهيم المنذر . الجزء الأول . بيروت ، منشورات مكتب الدراسات العلمية ، ١٩٧٣ .

١١ — « العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى : ١٩٠٨ — ١٩١٤ » تأليف توفيق على برو . القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٠ .

١٢ — « العلم » ، القاهرة ، ١٩١٠ .

١٣ — « عهد المتصرفين فى لبنان : ١٨٦١ — ١٩١٨ » بقلم لحد خاطر . بيروت ، الجامعة اللبنانية ، ١٩٦٧ .

١٤ — « محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية : تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ » بقلم عبد الرحمن الرافعى . ط ٣ . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ .

١٥ — « مرآة الغرب » ، نيويورك ، ١٩١١ و ١٩١٢ .

١٦ — « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية : تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ » بقلم عبد الرحمن الرافعى . ط ٤ مزيدة ومكبرة . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ .

١٧ — « وطنيتى » بقلم على الغاياتى . ط ٣ . القاهرة ، مطبعة « منبر الشرق » ، ١٩٤٧ .

١٨ — أشعار لأبى ماضى مخطوطة لم تنشر فى ديوان .

(٥) الصحافة فى أدب أبى ماضى

كانت الصحافة ، لا النظم ، عمل المهجرى إيليا ظاهر أبى ماضى (١٨٨٩ـ ١٩٥٧) اليومى . ومهنته التى كسب منها قوته وقوت أسرته لمدة متواصلة تزيد على أربعين سنة ، من صيف ١٩١٦ ، عندما جاء إلى مدينة نيويورك لتحرير « المجلة العربية » ، حتى ربيع ١٩٥٧ ، عندما حجب جريدته « السمير » وباع مطابعها . ومع ذلك فإن أبا ماضى لم يشتهر عندنا كصحافى قدر اشتهاره كشاعر . فقد طغت شاعريته على صحافيته حتى كدنا ننسى الأخيرة .

والمتصفح دواوين أبى ماضى الخمسة المعروفة ، ليلاحظ أنها لم تخل من ذكر الصحافة فيها ، وأن هذا الذكر جاء مبكراً جداً فى أشعاره . فهو يرجع إلى سنى استيطانه مصر ما بين ١٩٠٠ و ١٩١١ ، أيام كان يبيع السجاير والدخان فى ثغر الإسكندرية . فى مصر تفتح ذهنه على « صاحبة الجلالة » ، وعرف دورها ، وفهم قدرها ، ورأى فعلها ، ولعله هناك أيضاً تفتح قلبه لها وحلم باحترافها يوماً .

ولكى نخرج برأى أبى ماضى فى الصحافة ، تعال معى أيها القارئ العزيز نتتبع ذكرها فى أدب أبى ماضى المعروف وكذلك المجهول .

قال شاعرنا ، ص ٧٩ ، فى « ديوان تذكار الماضى » (ط ١٩١١) الذى أهداه إلى الأمة المصرية ، يصف سلوك المحتلين الإنجليز تجاه المصريين ، فى قصيدة عنوانها « عام ١٩١٠ » :

سلكوا بنا كل واد ضيق ... حتى قنطنا أن يصيبوا ضيقا
منعوا الصحافة أن تبث شكاتنا ... منعوا الكواكب أن تبين وتشرقا
لو أنصفوا رفعوا القيود ، فإنما ... يشكو الأسير الأسر إما أرهقا

وقال يصفهم أيضاً فى نفس الديوان ، ص ٧٥ ، فى قصيدة «أيها القلم» ، بعد أن صدر ، فى ١٩٠٩/٣/٢٨ ، قرار وزارى بإعادة العمل بـ «قانون المطبوعات» القديم :

فقيدوها لعل القيد يسكتهـــا — وعز أن يسكت المظلوم لو علموا
وأرهقوا الصحف والأقلام فى زمن — يكاد يعبد فيه الطرس والقلم
إن يمنعوا الصحف فينا بث لوعتنا — فكلنا صحف فى « مصر » ترتسم

وتحت عنوان « مصر والاحتلال » ، نظم قصيدة لا زالت مجهولة ، لم يضمنها ديوانه السابق ، نشرتها له جريدة « الشعب » القاهرية ، لسان حال الحزب الوطنى المصرى ، فى ١٩١٠/٣/٢٧ ، ص ٤ ، خاطب فى ختامها الإنجليز قائلا :

كبلوا أقلامنا جهـــدكمو — وامنعوا الألسن والصحف الكلاما
وإذا عـــز عليكم أننـــا — فى وئام ، فانشروا فينا الخصاما
وإذا عز عليكم أننــــــا — فى حياة ، فابعثوا فينا الحماما
ينزع الأرواح من أجسادهـــا — أو فكونوا أنتم الموت الزؤاما
إنما ينقلب الأمـــــــر إلى — ضده إن جاوز الأمر التمامـــا

وعندما خرج الشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٢ — ١٩٢٩) من السجن فى ١٩١٠/١١/٧ ، بعد أن أمضى به ثلاثة أشهر لأنه قرظ ديوان « وطنيتى » للشيخ على الغاياتى (١٨٨٥ — ١٩٥٦) ، أرسل أبو ماضى إلى الشيخ قصيدة — ما زالت ضمن مخطوطاته — عنوانها « نجوى شاعر » ، جاء فيها :

« عبد العزيز » تحية من شاعر — ما قال إلا أطرب الجمهـــورا
نفسى فداؤك ، وهى نفس حرة — تأبى الهوان وتكـــره التصغيرا
لما حبست ، حبست طرفى أن يرى — وكتمت من ألم الفراق سعيرا
قالوا : «شهور لا تطول وتنقضى» — ياويحهم ، سموا السنين شهورا

إلى أن يقول :

فاصفح عن الواشين شيمة قادر — فلأنت أسمح ما تكون قـــديرا
وأعد إلى الأقلام سالف مجدهـــا — وإلى الصحافة عزهـــا المشهورا
وانفض من الأحقاد أفئدة الورى — واملأ قلوب الناشئين شعورا

هذا ما نظمه أبو ماضى فى الصحافة فى أثناء الفترة المصرية من حياته ، والتى تتميز عن غيرها من فترات حياته اللاحقة بتكرار ذكر الصحافة فيها

والدعوة إلى حريتها ، وهى دعوة لم يتفرد بها شاعرنا أيام كان فى مصر ، فقد جاهر بها كتاب وشعراء الحركة الوطنية فى ذلك الحين .

أما الفترة التى يمكن تسميتها بالفترة المصرأمريكية (١٩١١ – ١٩١٩) ، والتى تنتهى بنشر « ديوان إيليا أبو ماضى ، الجزء الثانى » ، فذكر الصحافة فيها لم يأت إلا فى قصيدة « نزوة ألم » ، ص ٩٤ من هذا الجزء ، حيث يقول فى ختامها :

بليتنا صحافى مـــراء يداجينـــا ، ومـــالى مرابى
وصحف لست أدعوها بصحف فما هى بالقشور ولا اللبـاب
أرى أنهارهـــا فأظن مـــاء كذلك العين تخدع بالسراب
فلم أعثر على لفظ سليم ولم أظفر بمعنى مستطاب
ولا حسن هنـــاك ولا رواء وأنى الحسن للطلل الخراب
فإن تشكو من الشعراء عـــابا شكا القراء منها ألف عـــاب

* * *

ذوى الأقلام إنا فى احتياج إلى غير الشتائم والسبـــاب
(وودعنا بحفظ الله « زيد » و« عمرو » جاء أهلا بالجناب!!)
فهل من قـــائد فيكم حكيم يشيرينا إلى القصد الصواب ؟
فنظفر بالرجاء عـــلى يديـــه ويظفـــر بالأمـــانى والثواب

فإذا تذكرنا أن « مرآة الغرب » النيويوركية ، كانت قد نشرت « نزوة ألم » أصلا ، بزيادة بيت ، فى ١٩١١/١٢/٦ ، ص ٤ ، بعنوان « خواطر شاعر » ، وكان ذلك عقب وصول شاعرنا مباشرة إلى أمريكا ، واستقراره فى مدينة سنسناتى بولاية أوهايو ، خلصنا إلى الاعتقاد أن أبا ماضى كان يصف لنا فى الأبيات السابقة حال الصحافة المهجرية فى أوائل العقد الثانى من هذا القرن ، بعد أن وقع بصره عليها ، وبعدما وصف لنا حال المهاجرين فى الأبيات التى سبقتها ، حيث قال :

وما همى سوى شعب تعيس شتيت الشمل ، جم الاضطراب
يحاول رزقه فى المـــدن آنًا وآنًا فى السباسب والهضاب
ولو عرف السحاب يدر مالا لأصبح راكبًا متن السحـــاب
رمته الحادثـــات بكل سهم وخدشه الزمـــان بكل ناب

فراح كأنما هو شعب « مــوسى » غداة التيه فى القفر اليبــاب
نأى عن أرض « مصر » حذار ضيم ففر من العذاب إلى العذاب

أما فى « الجداول » (ط ١٩٢٧) ، فقد نشر ، ص ٨١ ، تحت عنوان « عيد النهى » ، تلك القصيدة التى أرسلها من المهجر عام ١٩٢٦ إلى يعقوب صروف (١٨٥٢ — ١٩٢٧) لتلقى فى الاحتفال باليوبيل الذهبى لمجلة « المقتطف » (١٨٧٦ — ١٩٥٢) ، وقد جاء فيها :

أبناء « مصر » الناهضين تحية كودادكم إن لم أقل كودادى
من شاعر كلف بكم وبأرضكم أبداً يوالى فيكم ويعــادى
خلع الشباب على « الكنانة » مطرفاً هو كالربيع على ربى ووهاد
ما زال يقحم فى الجهالة نوره حتى تقاصر ليلها المتمادى
بصحيفة نور العيون سوادهـــا وبياضها من ناصع الأجيــاد
ينبوع معرفة ، وهيكل حكمــة ووعاء آداب ، وكنز رشــاد

إلى أن يقول :

ما العيد للخمسين ، بل عيد النهى وفنونه ، والخـــاطر الوقــاد
عيد الحصافة والصحـــافة كلها فى «مصر»، فى«بيروت»، فى «بغداد»

على أن ذكر أبى ماضى للصحافة والصحافيين فى أشعاره ، لم يكن متسماً دائماً بطابع الجدية الخالص الذى نلمسه فى الأشعار السابقة . فقد تناول صحافينا الشاعر هذا الموضوع الخطير بخفة ودعابة أيضاً ، محببتين إلى النفس ، دون أن يقلل فى الوقت نفسه من جسامة هذا الموضوع الخطير . نسمعه فى القصيدة التالية المجهولة ، يصف لنا عن خبرة شخصية ، ما يعانيه الصحافى يومياً فى مهنته .

قال ، وقد ألقى هذه الأرجوزة فى حفلة أقامتها « جمعية حاملات الطيب » ، فى مدينة نيويورك ، عام ١٩١٧ ، وكان الحر يومها مذيباً :

يا سيداتى « حــاملات الطيب » ويا رجال الفضــل والتهذيب
لا تحسبونى قـــد وقفت موقفى للمدح والإطـــراء والتزلف
فإن هذه عـــادة يــــاساده ممقوتـــة ، تبـًّا لهـــا من عاده
كان عليها الناس فى القـــديم أيـــام كان الحـــكم للظلوم

تكرهها نفوس أهل الفضــل　　لا سيما أمثـــالكم من مثلى
فالحب لا يكون بالأقـــوال　　وإنمـــا يكون بالأعمـــال
وبعد هذا الاعتذار الكافى　　أخبركم عن حـــالة الصحافى

* * *

عن ذلك المعـــتزل المنقطع　　لا من تقى فيه ، ولا من ورع
عن الذى يعيش بالخيـــال　　ولا يبـــالى بالذى تبـــالى
عن تاجر ليس لـــه عميل　　وزارع ليس لـــه حقـــول
عن ملك ليس له رعيـــه　　وقائد جنـــوده وهميـــه
عن كائن نظنـــه جمـــادا　　وهو أرق قـــومه فؤادا
يبكى مع الأم على بنيهـــا　　ويحمل الهموم عن ذويهـــا
مع ذاك فهـــو بائس متروك　　ليس له فى بؤســـه شريك
يسامر الأسفـــار فى النهار　　وفى الدجى يســـامر الدرارى
ظمآن لا يروى ، وليس المـــاء　　حاجتـــه لكنمـــا العليـــاء
يشقى مع الأمـــة كيلا تشقى　　وقد يبيـــد نفســـه لتبقى
والناس ، ما أقسى قلوب الناس ،　　ما فيهم آس ، ولا مؤاس

* * *

وهاكم ، يا ســـادتى ، مثـــالا　　مجسمًا لا يقبـــل الجدالا
مزجت فيـــه الجد بالمجـــون　　خوفًا من الدمع على العيون

* * *

قد أقبل الصيف ، وجاء الحر　　وخشى النـــاس الأذى ففروا
هذا إلى شـــواهق الجبال　　وذاك نحو البحـــر والرمـــال
وانطلقت جمـــاعـــة الثراء　　فى طلب الراحـــة والهنـــاء
تنقلهم من موضـــع لموضع　　مراكب مثـــل البروق اللمع
تركض فى المروج والوهاد　　وتارة على ضفـــاف الوادى
حيث ارتدت حلتها الطبيعة　　ولبست زينتهـــا البديعـــه
وكشفت عن صدرهـــا السماء　　ونشرت رايتهـــا ذكـــاء
فغمرت أنوارهـــا التلـــولا　　والنهر والأدغـــال والحقولا

هنالك الغابـــات ، والمروج ❊ تموج مثل البحـــر إذ يموج
تفترق الطير بهــــا وتلتقى ❊ فى الأرض مثل اللؤلؤ المنسق
كأنها حائمة فـــوق الربى ❊ عند غروب الشمس أحلام الصبى
هناك لا غم ولا ضوضــاء ❊ بلى ، هناك الأمن والصفــاء
حيث ينام القوم فـوق العشب ❊ فى الليل تحميهم عيون الشهب
حيث يسـير الماء فى الغدير ❊ مهرولا كالخائف المذعــور
على بســاط أبيض كالفضه ❊ بين الزهور الناضرات الغضه
هناك يقضى معشر الســراة ❊ أوقاتهم فى اللهــو واللذات

* * *

والكاتب المسكين فى الإداره ❊ يحتمــل الهموم والحـــراره
فى غرفــة صغيرة كالكف ❊ ضيقة مظلمــــة كالكهف
يدور حــول ذاته كالسمكه ❊ وضعها صائدها فى شــبكه
أو طائر فى قفص ، أو فــاره ❊ قد علقت بفمها الصنــاره
ليس له من شــغله مفــر ❊ إن كان برد قارس أو حـــر
ما تأتلى عينــاه فى الكتاب ❊ من مشرق الشمس إلى الغياب
فنفسه تسيــل مثل العــرق ❊ مع حبره السائل فوق الورق
وهكذا يذوب مثل الشــمعه ❊ شيئًا فشيئًا ، دمعة فدمعــه
يتعب كالضرس بغير جــدوى ❊ ويستفيــــد غيره بالســلوى
وما كفاه حمله الشــجونا ❊ فزاد فــوق حمــله الديونا
لكنه مع شـــدة الشــقاء ❊ والبؤس لا ينفك ذا رجــاء
يأمل من قرائـــه الكــرام ❊ أن يدفعوا عنه البلاء الطامى
فإن أتــاه حــامل البريد ❊ سر سرور الأم بالوليــد
حتى إذا ما فتح المكتوبا ❊ وعــرف الطالب والمطلوبا
تســاقطت من فمه اللعنــات ❊ راكضة كأنهــا الحيــات
ورب ذى مقـــالة بليــده ❊ يطلب أن تنشرهــا الجريده
وقد تميدا لأرض من ثقـــالته ❊ وتزهق الأرواح من مقـــالته

وزائر يلـــــزمـــــه ' كالهم	من الضحى حتى طلوع النجم
يشكـــو إليه قـــومـــه ودهـــره	وكلبه وديكـــــه وهـــــره
وقد يدب النوم فى أجفـــــانـــــه	والضيف لا يبرح فى مكـــــانه
وغير هذى قصص كثيـــــــره	تضيق عنهـــــا الصحف الكبيره

فى هذا القالب الشعرى اللطيف ، سجل لنا أبو ماضى انطباعاته الطرية الأولى عن مهنة الصحافة ، وما لمسه فيها من متاعب وهموم أول عهده بمزاولتها، وقبل أن يكرس بقية حياته لها فى المهجر .

على أن أبا ماضى قد ترك لنا أيضاً رأيه فى الصحافة عامة والصحافيين المهجريين خاصة ، فى كلمة له منسية ، ألقاها فى حفلة تأبين الصحافى المهجرى سلوم مكرزل (١٨٧٩ — ١٩٥٢) ، الذى رأس إدارة وتحرير جريدة « الهدى » النيويوركية (تأسست ١٨٩٨) بعد وفاة أخيه نعوم عام ١٩٣٢ .

وكلمة أبى ماضى المجهولة هذه ، كلمة لها قيمتها ، لأنها جاءت قبل وفاته بخمس سنوات ، وبعد أربعة عقود تقريباً من الجهاد فى المجال الصحافى ، استطاع فيها أن يملك أمر « صاحبة الجلالة » ، وأن يتربع على عرشها مطمئناً . فلا بد إذن من إثباتها هنـــا كاملة ، ليتسنى للقارئ التعرف على مفهوم أبى ماضى الناضج للصحافة والصحافيين ، ومدى تقدير شاعرنا أيضًا للحرفة التى اختار هو بنفسه أن يعيش لها وبها .

« أيها السادة :

نحن الآن فى مأتم رجل من رجال الفكر ، وجندى من جنود دولة اليراع .

وموت رجل الفكر ، من أى شعب وفى أى مكان ، خطب جارح ورزء فادح على القوم الذين هو منهم ، وعلى المحيط الذى هو فيه ، وعلى حرفة القلم التى يمارسها ، وعلى اللغة التى يكتب بها .

وهذا الخطب يزداد هولا وفداحة إذا ذهب رجل الفكر ، ولم يكن منه عوض ولا بديل ، كما هو الحال معنا نحن المهاجرين أبناء الضاد ، كلما مات كاتب منا ، وغاب شاعر عنا .

لذلك أستطيع القول إن موت الصحافى المجاهد سلوم مكرزل نكبة جلى ، وخسارة عظمى ، ليس على أسرته وذويه وحدهم ، ولا على جريدة « الهدى » وحدها ، ولا على رفاقه فيها ، والأصدقاء والأنصار حولها وحدهم ، بل على الصحافة العربية فى المهجر بوجه عام ، بل على اللسان العربى والقلم العربى .

وتتجلى جسامة الرزيئة للمتأمل ، عندما يستعرض فى ذمته كيف انفرط عقد الأدباء الماهدين فى هذا المهجر ، وهم الكتاب والشعراء الذين أنشأوا فى هذا الشاطئ الأمريكى مدرسة جديدة للأدب العربى ، تتلمذ لها الناس فى كل قطر عربى ، حتى أصحاب الطرائق القديمة ، ومشى الأدب ذاته فى ضروب ما كان له بها سابق علم .

وقد كان للصحافة العربية فى نيويورك الفضل الأكبر فى نشر وترويج ما أنتجته قرائح الموهوبين الذين كانوا رسل الأفكار الجديدة الحرة الطليقة ، الموقظة للهمم ، الحافزة للأرواح ، المحررة للعقول ، الهادية إلى الحق والجمال والخير فى الحياة .

كذلك كان للصحافة اليد الطولى فى بقاء جمرة الحنين متقدة فى صدور النازحين من الوطن الأول . فما نزلت هناك نكبة أو جائحة إلا وفاضت لها الدموع هنا ، وفاضت منها الأيدى بالإعانات والهبات .

وعند ذكر هذه النوازل والنكبات ، يسجل التاريخ فى كتابه صفحات نيرة لامعة لجريدة « الهدى » .

وهل « الهدى » غير اليد التى تديرها ، والعين التى ترعاها ، والقلب الذى ينبض فى كل حرف من حروفها ، والقلم الذى يحررها ؟

بل ، هل أية جريدة عربية غير صاحبها ؟

إذن ، فكل مأثرة « للهدى » فى عهد سلوم مكرزل هى مأثرة لسلوم مكرزل .

وكل مدح يساق إلى جريدة « الهدى » هو فى الواقع ثناء على هذا المجاهد الراقد فى نعشه . فهو الذى استبقاها ، وأحياها ، وقواها ، ورد إليها عصر صباها .

قلت إن الصحافى جندى من جنود الفكر . وأزيد على ذلك أنه جندى يمتاز بأمور كثيرة عن الجندى المحارب بالسيف والمدفع . فهو لم تجنده الدولة ، بل جند نفسه — وعن طواعية ورضى — للدولة والأمة ، ووقف ذاته على خدمة قومه والمكافحة عن وطنه ، لا لسنة واحدة ، ولا لبضع سنوات ، بل العمر كله .

ويختلف هذا الجندى عن حامل السيف بأنه لا يرتدى بزة خاصة ، ولا يحمل الشارات والشرائط والأوسمة ، ولا يتوقع لقاء جهاده مكافأة ولا ضماناً .

إن هذا الجندى هو فقيد الصحافة العربية فى المهجر المرحوم سلوم مكرزل .

وهو جندى لا يمكن أن يستعاض عنه بسواه . وهذا أمر يحزننا كلنا ، ويحزننا جدًّا .

أيها السادة :

لقد ظهر فى المهجر جبران خليل جبران (١٨٨٣ — ١٩٣١) واحد ،

وأمين ريحانى (١٨٧٦ — ١٩٤٠) واحد ،

ورشيد أيوب (١٨٧٢ — ١٩٤١) واحد ،

ونسيب عريضة (١٨٨٧ — ١٩٤٦) واحد ،

ونجيب دياب (١٨٨٠ — ١٩٣٦) واحد ،

ونعوم مكرزل (١٨٦٣ — ١٩٣٢) واحد .

ومثل هؤلاء الأفذاذ أفذاذ آخرون يضيق المجال الآن عن ذكرهم .

وكل هؤلاء الراحلين لم يتكرر منهم أحد .

ولم يرجع إلينا أحد منهم .

واليوم ينطفئ مصباح آخر من المصابيح القليلة الباقية فى هذا المهجر ، وينطوى علم من أعلام الفكر الذين بنوا للغة العربية فى أرض «كولومبس» عصراً جميلا مشرفاً ، مثل العصر العربى فى الأندلس ، دون أن يتقدمهم فاتح كطارق بن زياد ، ودون أن تساندهم وتساعدهم ملوك وأمراء كملوك وأمراء غرناطة وقرطبة وطليطلة ، بل كانوا هم الفاتحين ، والمانحين ، المتقدمين حتى على الملوك والأمراء .

فعلى المصباح الذى خبا سلام .

وعلى البطل الذى هوى سلام .

وألف سلام على رجل الجهاد الراحل . إنه السابق ونحن اللاحقون . لقد أكمل سعيه ، وأتم جهاده ، وحان له أن يستريح . فله الرحمة والثواب الجزيل . ولبناته ، وشقيقته ، وأصهاره ، ورفاقه فى « الهدى » ، ولأسرة الصحافة كلها حسن العزاء وطول البقاء .

إنا لله ، وإنا إليه راجعون » .

كانت هذه كلمة صاحب جريدة « السمير » ومحررها ، فى تأبين زميله الصحافى الراحل . ومن يدرى ؟ فلعل أبا ماضى كان يؤبن نفسه ضمناً بهذه الكلمة البليغة الوافية عندما وقف يلقيها يومها فى الحفلة ، وهو يرى أمامه قرب نهاية الطريق .

(٦) رسالة من أبي ماضي إلى طه حسين

فى يوليو (تموز) ١٩٢٧ ، صدر فى مدينة نيويورك عن مطبعة جريدة « مرآة الغرب » اليومية ، وفى ١١٢ صفحة ، ديوان « الجداول نظم إيليا أبو ماضى » (١٨٨٩ — ١٩٥٧) ، تتصدره مقدمة كتبها ميخائيل نعيمة ، زميل أبي ماضى فى « الرابطة القلمية » .

ولم يكن هذا الديوان — وهو أصغر دواوين أبي ماضى الخمسة المعروفة ، إذ هو يحتوى على ١٢٠٢ من الأبيات — إلا مجموعة قصائد اختارها شاعرنا مما نظمه فى المهجر بين ١٩١٩ و ١٩٢٧ فى أوقات متفرقة ، وظهر له فى « السائح » النيويوركى — بما فى ذلك « السائح الممتاز » —، و « مرآة الغرب » النيويوركية ، و « المقتطف » القاهرى ، ثم ألحق بها مطولته « الطلاسم » .

وانتشر الديوان الصغير بعد هذا بين قراء العربية ، وتناوله بعضهم ، إثر ظهوره ، بالنقد على صفحات بعض جرائد ومجلات المهجر والوطن . فكان من بين الذين نقدوه وليم كاتسفليس فى « مرآة الغرب » (١٩٢٧/٨/٨ ، ص ٤) وفى « السائح » (١٩٢٧/٨/١١ ، ص ٧ — ٨) ، وحبيب إبرهيم كاتبة فى « مرآة الغرب » (١٩٢٧/٨/٢٥ ، ص ٤ — ٥) ، وإدوارد فارس فى « المقتطف» (نوفبر (تشرين الثانى) ١٩٢٧ ، ص ٣١٢ — ٣١٧) .

أما نقد طه حسين (١٨٨٩ — ١٩٧٣) الذى نقرؤه فى الجزء الثالث من « حديث الأربعاء » — والذى لم يذكر لنا كاتبه فى هامشه مكان نشره وتاريخه ، كما فعل فى أحاديثه السابقة — فنرجح أن نشره كان فى جريدة « السياسة » القاهرية فى أوائل الثلاثينيات ، وبعدما كسبت « الجداول » وناظمها صيتاً .

ولعل طه حسين ما كان ليكتب عن « الجداول » وينقدها هذا النقد اللغوى العنيف ، لو لم يقرأ نبذة عن صاحبها فى كتاب بالإنجليزية عنوانه « زعماء الأدب العربى المعاصر » ، تضمن أيضاً نبذة مفصلة عن طه حسين نفسه . وقد كتب هذا

الكتاب طه الحميرى بالاشتراك مع جيورج كامبفماير – اسمان ذكرهما طه حسين فى سياق حديثه – ونشر عام ١٩٣٠ كجزء من المجلد التاسع من مجلة « عالم الإسلام » التى كانت تصدرها وقتذاك « الجمعية الألمانية للمعارف الإسلامية » ببرلين [١] .

ويظهر أن طه حسين – كما نستخلص من مقالته – لم يعتمد فى نقده لـ « الجداول » إلا على الديوان وعلى تلك النبذة .

ثم مرت الأيام ، وشاءت الأقدار أن يلتقى ناظم « الجداول » بكاتب « الأيام » التقاء غير منتظر ، فى أواخر ١٩٤٨ ، عندما دعى الرجلان إلى لبنان لحضور مؤتمر اليونسكو الذى انعقد فى بيروت وقتذاك . وفى هذا اللقاء القصير تبادل الاثنان حديثاً ، نظن أن أكثره كان حديث مجاملات . وافترق الأديبان بعد هذا اللقاء . فرجع طه حسين إلى مصر ، وأبو ماضى إلى أمريكا ، ونسى الواحد الآخر بمشاغل الدنيا .

وجاء ١٢ يناير (كانون الثانى) ١٩٥٠ ، وأسند حزب الوفد وزارة المعارف العمومية إلى طه حسين . ووصل الخبر أبا ماضى . فرأى هذا أن من واجبه كصحافى ، ومن واجبه تجاه أديب عربى آخر ، أن ينقل هذا الخبر إلى قرائه فى المهجر . فكتب إليهم ينبؤهم بالمكانة العالية التى تبوأها طه حسين فى عالم السياسة ، وبما تؤمله مصر على يديه فى عالم الثقافة ، مذكرهم فى الوقت نفسه بما حققه الوزير فى عالم الأدب ، وما أمد به عالم الفكر .

وينتهز ذات الفرصة – على ما نظن – ليكتب رسالة شخصية إلى طه حسين ، يستنجزه فيها وعداً مضى عليه عام دون أن يفى به ، ويرد فيها أيضاً على نقد طه حسين القديم لـ « الجداول » .

إلا أن هذه الرسالة ، التى نجد مسودتها ضمن أوراق شاعرنا المهجرى وبخط يده ، ينقصها للأسف شيئان : ختامها وتاريخ تحريرها الذى قد يكون فى آخرها [٢] . وهذا بالطبع يدعونا إلى تساؤل نخرج منه باحتمالين : إما أن يكون أبو ماضى قد أتم فعلاً كتابة الرسالة ، وبعث بها إلى الأديب الوزير ، ثم ضاع ختام مسودتها من بين أوراقه التى احتفظ بها وبقيت بعده ، وإما أن الرسالة لم

تجد طريقها إلى الأديب الوزير لأنها كانت مشروعاً أعرض عنه شاعرنا لسبب من الأسباب ، فظلت بتراء بشكلها الحالى .

وسواء أأرسل أبو ماضى رسالته إلى طه حسين أم لم يرسلها ، فالرسالة ، كما هى عليه بين أيدينا ، تبقى مستنداً يفيدنا بعدم رضاء الشاعر عن أجزاء من نقد طه حسين لـ « الجداول » — وهو عدم رضاء شاركه فيه آخرون — ووثيقة نقرأ فيها تصحيح أبى ماضى لبعض ما ورد فى هذا النقد .

وإلى القارئ الرسالة[٣] مع بعض التعليقات :

الرسالة

سيدى الأديب الكبير والوزير الخطير الدكتور طه حسين ،

لعلك تذكر — وأنت صاحب الذاكرة النادرة التى تلتقط الصور والأحاديث فتستبقيها ، لكى تعود فتحييها ، أو تعود إليها لتفنيها — أنك التقيت فى مدينة بيروت ، وفى أواخر سنة ١٩٤٨ ، بكاتب هذه الرسالة الذى أعجب بك أديباً قبل أن يراك ، وأعجب بك أديباً وخطيباً بعدما رآك . وأحب أن يبرهن عن هذا الإعجاب فى نفسه ، فترك بين يديك ديوانه « الخمائل »[٤] ، راغباً إليك أن تطالعه لعله يخفف من نقمتك على الشعراء ، ثم لعلك — وأنت تطالعه — تتذكر كيف جمع بيننا القدر فى لبنان على غير موعد سابق ، وعلى غير توقع منك أو منى ، فتحصى ذاك اللقاء من حسنات الأيام ، أو تحصيه فى عداد السيئات والذنوب !

ولما رجعت إلى نيويورك ، وجاء الخبر بارتقائك إلى منصب وزير المعارف ، اغتبطت كثيراً لأنى أحب مصر وأهلها ، وأرجو لها الخير والفلاح على أيدى رجالها النوابغ ، وأنت فى طليعتهم . وقد أنشأت فى جريدتى « السمير » اليومية فصلاً حول ذلك الخبر ، دللت فيه القراء على مكانتك العليا ، ومقاصدك السامية . ولم أبعث به إليك مخافة أن تحسبه نوعاً من الملق والزلفى . ولكنى وددت لو وقع إليك عفواً ، لتضيفه إلى كلمات التحبيذ وأقوال التنشيط .

سيدي الأديب الكبير والوزير الخطير الدكتور طه حسين

لعلك تذكر – وأنت صاحب الذاكرة النادرة التي تختزن الصور والأحاديث فتستبقيها لكي تعود فتحييها أو تعود إليها لتحفظها – أنك التقيت في مدينة بيروت وفي أواخر سنة ١٩٤٨ كاتب هذه الرسالة الذي أحبك أديباً قبل أن يراك وأحبك أديباً وخطيباً بعدما رآك. وأحب أن يبرهن عن هذا الإعجاب الحي نفسه فترك بين يديك ديوانه "الخمائل" راغباً إليك أن تطالعه لعله يخفف من نقمتك على الشعراء. ثم لعلك وأنت تطالعه تتذكر كيف جمع بيننا القدر في لبنان على غير موعد سابق وعلى غير توقع منك أو مني فتحصي ذلك اللقاء من حسنات الأيام أو تحصيه في عداد السيئات والذنوب؟

ولما رجعت إلى نيويورك وجاء الخبر بانتقالك إلى منصب وزير المعارف اغتبطت كثيراً لأني أحب مصر وأهلها وأرجو لها الخير والكلام على الأديب رجالها الكرام وأنت في طليعتهم. وقد أثنيت في جريدتي "السمير" اليومية ثناء جميلاً حول ذلك الخبر ولمست فيه القرار على حاملك العليا ومقاصدك السامية. ولم أبعث به إليك مخافة أن تحسبه تزلفاً من الملق والزلفى. ولكني وددت لو وقع إليك عفواً لتضيفه إلى كلمات التحبيذ وأقوال التشجيع.

أما الآن فقد وثقت أنك ستذكر الوعد الذي بذلته لي حضرتك إذ التقينا في دار [illegible] اللبنانية وهو أنك [illegible] بإرسال مؤلفاتك إلي [illegible] لم يصل منها شيء إلي، فإن لم يكن أدركك صاحب النسيان فلا شك لدي أنه أضاعه الشواغل [illegible] فما استطاع أن ينجز الوعد.

وفيما كان [illegible] يستعد للسفر [illegible] متمنياً لك [illegible]

أما الآن فقد أتيت أستنجزك الوعد الذى بذلته لى عندما التقينا فى دار الإذاعة اللبنانية ، وهو أن يتفضل كاتم أسرارك بإرســال مؤلفاتك إلى . فهذه المؤلفات لم يصل منها شىء إلى . فإن لم يكن أدرك صاحبك النسيان ، فلا شك فى أنه أضاع العنوان ، أو أن تلك المؤلفات نفذت نسخها كلها فما استطاع أن ينجز الوعد .

وكيفما كان الأمر ، وسواء استقام للسكرتير أو لم يستقم عذر ، فإنى ما زلت أنتظر أن أحظى بنتاج قلمك وثمار ذهنك ، حتى « حديث الأربعاء » الذى وقع إلى أمس اتفاقاً ، فطالعت فيه مقالاتك ، ولا أقول رأيك فى « الجداول » وفى صاحب « الجداول » . فما وجدتك وفيت الديوان حقه من النقد ، لأنك — كما يبدو لى — شغلت عما فيه بما فى نفسك وما حولك ، فكتبت عنه وكأنك تكتب عن أحد الشعراء الذين فى محيطك . وانصرفت عن النظر فى معانى قصيدة « الطين »(٥) التى لم تنظم ليغنيها عبد الوهاب ، ولا لتنشدها أم كلثوم بل للتعبير عن فكرة ، وتقريبها إلى الأفهام . وقصيدة من طراز قصيدة « الطين » يجب أن يكون لها عند أديب كبير مثلك شأن أكبر من مؤاخذة ناظمها لأنه « اختار لها الدال الساكنة التى ينقطع عندها النَّفَس » .

ألا تظن أنك لم تحسن الرماية فى هذا المجال ، وأنك عندما شعرت بأنك لم تحسنها ، طرت إلى دنيا الجاهلية لتجىء بأبيات بالية مهجورة تستشهد بها على جمال الحركة فى آخر « أم معبد » ، وفى نهاية « ثهمد » ، وخفى عليك العيب الفاضح فى بيت البحترى « لج هذا الحبيب فى الهجر جدًّا » . فكلمة « جدًّا » لا تليق بشاعر عربى كالبحترى أن ينصب منها قافية فى مطلع قصيدة ، وكلمة « هذا » ، فى البيت ذاته ، حشو بليد . والشطر كله كلام عادى لا يصعب على تلميذ مدرسة أن يأتى بمثله . فواعجباً لك ، كيف انتقيت هذا البيت ، وأنت صاحب الذوق العالى والفن الأنيق .

ولكن ما لنا وللبحترى ، ولدريد بن الصمة ، والحطيئة ، عفا الله عنهم ، وعنا . لقد عملوا ما كان حسناً فى زمانهم ، أو قل عملوا ما يتفق مع الزمان الذى عاشوا فيه . ولذلك لا تجد فى دواوينهم كلها قصيدة كقصيدة « الطين » تدور

حول فكرة مستمدة من الحياة ذاتها .

إن لى سؤالا صغيراً أطرحه عليك ، وأترك الجواب عليه لضميرك ووجدانك ، وهو : هل رأيت فى كل ما رأيت من الدواوين الحديثة التى صدرت باللغة العربية قبل « الجداول » ديواناً كـ « الجداول » يحوى فكراً وشعراً وفلسفة فى قصائد لم يسبق أن نزل مثلها فى ديوان الشعر العربى كله ؟ ! [٦]

أقرأت «العنقاء» ؟ وهل تبحرت فى تفهم معانيها ؟ وقصيدة «السجينة» ، أقرأت مثلها من قبل ؟ و « المساء » [٧] ، ألم تعجبك ؟ و « الضفادع والنجوم » ، و « التينة الحمقاء » ، و « الغدير الطموح » ، وغير هذه مما يجدر بك أن تعود إلى « الجداول » تطالعه من جديد ، وبنفس مجردة عن الهوى الإقليمى ، وعن النزعات العارضة ، وعن مؤثرات المحيط ، وعن الرغبة فى الغمز من قناة أحد .

وليتك سألت ، لعلمت إذن أن صاحب « الجداول » ، لم ينس وطنه الأول لبنان ، بل له فيه قصائد لم يقل مثلها شاعر فى وطن ، ولا سيما قصيدة « الشاعر فى السماء » التى تقرؤها فى « الخمائل » .

لو سألت ، لما فاتك أن تعلم أن لصاحب « الجداول » غير « الجداول » وإذن لما حاولت أن تغضب أصدقاءك اللبنانيين ، ولا أن تستفزهم إلى المجادلة والمناضلة عن شاعر هو لمصر ، ولكل قطر عربى مثلما هو للبنان . شاعر يعترف بفضل لبنان الذى أنبته ، وبفضل مصر التى قضى فيها أحسن أيام الصبا ، وبفضل أمريكا التى نعم فى أرضها بالحرية المطلقة . فإذا كان « الجداول » خلا من قصائد فى لبنان ومصر [٨] ، فما خلا منها ديوانه الأول وديوانه الثانى [٩] .

واسمح لى أن أقول لك إن تفسيرك هذا البيت [١٠] :

كلمـــا أفرغت كـــأسى زدت فى كـــأسى دنـــا

هو تفسير خاطئ يدل على ضعف الخيال عندك ، بل أنا أؤكد أن الخيال عندك ضعيف ، ولولا ذلك لكنت شاعراً لا ناثراً [١١] .

فما الكأس والخمر فى هذا المقام غير رمزين يقصد بهما أن الفكرة تنمو

وتزداد وتتكاثر كلما كثر حفاظها وناقلوها ورواتها . فهى إذن لا تفنى بالإنفاق ، بل تفنى بالإمساك .

إذن ، فأنت ترى ، أنك فى تفسيرك الخاطىء لهذا البيت كنت واحداً من اثنين : إما أنك تعمدت أن تستحدث عيباً بهذا البيت ، لتبرهن على قدرتك فى استحداث العيوب ، وإما أنك لم تجد فى البيت غير ما وجدت من ظاهر الكلام ، فكنت ناقداً غير موفق ، وغير متعمق .

كذلك دورانك حول هذا البيت(١٢) :

لست مـــنى إن حســـبـ ت الشعـــر ألفاظاً ووزنـــا

فالواقع الذى لا ريب فيه أنك تقدر أن ترصف ألفاظاً إلى ألفاظ ، وأن تجعل لها أوزاناً ، ولكنها لا تكون شعراً . وعندنا كثير من الكتب المسجعة والأراجيز والمقامات . والغاية من هذا البيت تبيان خطأ القائلين إن الشعر هو « الكلام المقفى الموزون » . فكثير من الكلام المقفى الموزون ليس شعراً ، وكثير هو الشعر الذى لا يمكن أن يقال عنه إنه كلام مقفى موزون . . فكيف غاب هذا عن نظرتك الوقادة وذهنك النير ؟!! كيف ؟

تعليقات

(١) Tahir Khemiri and Georg Kampffmeyer. Leaders in contemporary Arabic literature : a book of reference. (Die Welt des Islams, Berlin, vol. 9. 1930, parts 2-5).

(٢) كان أبو ماضى أحياناً يضع تاريخ تحريره الرسالة فى آخر الرسالة بدلا من أولها . راجع رسالته إلى محسن جمال الدين فى « الأديب » البيروتية ، فبراير (شباط) ١٩٥٨ ، ص ٦٨ .

(٣) تكرم صديقى الدكتور روبرت ماضى ، نجل الشاعر ، فسمح لى بنشر هذه الرسالة وبنشر صورة الصفحة الأولى منها بخط والده ، فعلى هذا أشكره .

(٤) من المرجح أن أبا ماضى ترك بين يدى طه حسين الطبعة الثانية من « الخمائل » التى أخرجتها مكتبة صادر ببيروت ، والتى وافق ظهورها زيارة الشاعر للبنان ، لا الطبعة الأصلية التى صدرت فى نيويورك عن مطبعة جريدة « السمير » اليومية ، عام ١٩٤٠ . ولعل أبا ماضى كان يؤمل أن تحظى « الخمائل » بكلمة من طه حسين تخفف مما قاله فى « الجداول » .

(٥) ظهرت هذه القصيدة أول ما ظهرت فى « المقتطف» القاهرى ، عدد ١٩٢٥/٢/١ ، وبعد ثلاثين عاماً أثارت ضجة . فى أوائل عام ١٩٥٥ ، نشر روكس بن زائد العزيزى مقالات اتهم فيها أبا ماضى بأنه سرق معانى وألفاظ هذه القصيدة من شاعر بدوى اسمه على الرميثى ، قيل إنه عاش فى البادية الأردنية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ثم نشر هذا الاتهام فى كتاب « فريسة أبى ماضى : أول دراسة علمية للشعر فى البادية » ، عمان ، مطبعة الاتحاد ، ١٩٥٦ ، ٧٠ ص . وقام أبو ماضى ينـ عن نفسه التهمة . فكان مما كتبه مقال ظهر فى « الأديب » البيروتية ، يونيو (حزيران) ١٩٥٥ ، ص ٦٤ — ٦٥ . أما عيسى النـاعورى ، فدافع عن أبى ماضى فى كتابه « إيليا أبو ماضى رسول الشعر العربى الحديث » ، بيروت ، منشورات عويدات ، ١٩٥٨ ، ص ١٢٣ — ١٤٢ .

(٦) لم يكن أبو ماضى مغالياً فى قوله هذا . فقد كان متنبهاً تماماً إلى ما أحدثه من التغيير فى عالم الشعر العربى . وهو قول يذكرنا بما كتبته نازك الملائكة فى «ملامح عامة فى شعر إيليا أبو ماضى» ، فى مجلة «شعر» البيروتية ، عدد ربيع ١٩٥٨ ، ص ٩٨ و ١٠٠ ، إذ قالت :

«لعله ليس كثيراً أن نحكم بأن إيليا أبو ماضى قد كان أول من جدد القصيدة العربية بالمعنى الذى نفهمه اليوم من التجديد ، حتى ليستطيع الناقد الأدبى أن يؤرخ به فترة جديدة فى الشعر العربى . . .

ونأتى إلى الخصائص التى تميز شعر أبو ماضى فنجد أبرزها ذهنية الاتجاه أو الميل إلى التفكير عبر القصائد . إن القصيدة عنده فكرة قبل كل شيء ، والعاطفة بإزائها ثانوية تماماً ، حتى إننا لنفتقد شعر الحب فى ديوان «الجداول» افتقاداً شبه تام» .

(٧) كان أبو ماضى معجباً بهذه القصيدة إعجاباً تامًّا حتى آخر أيام حياته . فهى القصيدة التى أظهر فيها شعوره تجاه أمه سلمى وخلد فيها اسمها .

(٨) استهل طه حسين مقالته بهذه الجملة : «لست أدرى أيرضى أصدقاؤنا اللبنانيون أم يغضبون إن رأيت أن أثر جبالهم الجميلة فى الشاعر الذى أتحدث عنه اليوم ضعيف جدًّا» .

(٩) أصدر أبو ماضى ديوانين قبل «الجداول» : «ديوان تذكار الماضى» ، الإسكندرية ، المطبعة المصرية ، ١٩١١ ، ٨٥ص ، و «ديوان إيليا أبو ماضى الجزء الثانى» ، نيويورك ، مطبعة «مرآة الغرب» اليومية ، ١٩١٩ ، ١٩٢ ص .

(١٠) البيت فى «الفاتحة» .

(١١) اعترف طه حسين اعترافاً صريحاً بهذا الضعف فى كتابه «تجديد ذكرى أبى العلاء» فى أثناء حديثه عن «ذهاب بصر المعرى» . إذ قال (ص١١٣ ، ط٦ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣) :

« ثم هو بعد ذلك كله قد حرم التمتع بلذة يكبرها الناس ، وجهله إياها يضاعف خطرها فى نفسه ، فإن تعاطى صناعة الشعر أو الوصف فإن هذا الحرمان قد استتبع ضعف خياله ، وحال بينه وبين مجاراة الشعراء والواصفين فيما يتنافسون فيه ، إلا أن يكون مقلداً أو محتذياً » .

فلا ريب إذن أن تلك « الآفة المحتومة التى لحقته فى أول حياته » قد منعت طه حسين من متابعة قرض الشعر ، بعدما حاوله فى شبابه ، وألزمتـه التزام النثر .

(١٢) البيت فى « الفاتحة » .

(٧) الشيخ إبراهيم المنذر وأبو ماضى

(١)

عزيزى الأستاذ المحترم ألبير أديب ،

طلع علينا عدد مايو الماضى من « أديبكم » الغراء ، وفيه تعليق لنسيم نصر (ص ٤٧) على « ديوان الشيخ إبراهيم المنذر » (١٨٧٥ — ١٩٥٠) الذى قدمه أمين نخلة ، فتذكرت لتوى تلك المكانة التى كانت للمنذر عند المهجريين ، والتى أشير إليها فى كتاب سماح طليع « الشيخ إبراهيم المنذر شاعر الجيل الجديد » (بيروت ، ١٩٦١) . فالشيخ ، كما جاء فى ص ٣٦ ، « اهتم بالمغتربين من أمته ، وكن لهم الحب والوفاء ، وعنى بأحوالهم ، فبادلوه حبًّا بحب ، ووفاء بوفاء ، وبات اسمه عندهم مرادفاً للصدق والتجرد والعقيدة الصافية ، فهم يذكرونه بالخير كلما ذكروا هذه الصفات ، وتذكروا فى أى عهد كافر جاهر بها » :

فإذا أردنا بعد هذه الكلمة أن نأتى بدليل مادى على العواطف النبيلة التى كان يحتفظ بها للمنذر المهجريون الذين عرفوا الرجل وعاصروه ، فهو خبر تلك الساعة الذهبية التى أهدته إياها شبيبة المحيدثة بالولايات المتحدة، عام ١٩٢٦، كرمز لاعترافها بفضله . وقد رافقت هذه الهدية هدية أخرى ، هى قصيدة نظمها ابن المحيدثة ، إيليا ظاهر أبى ماضى (١٨٨٩ — ١٩٥٧) ، بعث بها من المهجر لتلقى فى حفلة تكريم المنذر . وهذا نص القصيدة لمن لا يعرفها :

سلام عليك فتى المكـــرمات	كماء الغمـــامـــة بل أطهـــر
من الذاكـــــرين ليالى الحمى	إذ العيش مثل المنى أخضـــــر
وإذ نحن نجهل هـــذا الفـــراق	ومن كان يجهل لا يعـــــذر
لقد قصر الدهـــر عمـــر اللقاء	فيا ليت [ع]مـــر النوى أقصر

ولكننا إن نكن غيبًا — فنحن بأرواحنا حضر
بعدنا ولم تبعد الذكريات — وإنك، أجمل ما نذكر
فنمسي من الوجد والاغتباط — يخامرنا طرب مسكر
نقول : ألا ليت نوابنا — – وقد كثروا – كلهم « منذر »
رأيناك تزأر دون الحمى — كأنك فى غيله القسور
وتخدم قومك عفو الضمير — ويخدم غيرك إذ يؤجر
وتجهر بالحق والأكثرون — حرب لحر به يجهر
فصغنا الهدية من عسجد — ليهدى إلى الجوهر الجوهر
فإنك كالذهب الصرف لا — تغيره النار والمصهر
ولما وجدناك مثل الزمان — تجد وتسعى ولا تضجر
جعلنا الهدية مقياسه — وإن كان فضلك لا يقدر
تدق وتنبض مثل القلوب — فيا ليتها مثلها تشعر
ولو لحلالك شئنا الكناية — كان هديتنا الكوثر
ولكن هديتنا مظهر — يشير إلى بعض ما نضمر
وفى قطرة الماء معنى الغدير — ومعنى الخضم الذى يزخر

مع وافر تحياتى واحترامى .

(٢)

بمناسبة صدور الجزء الأول من ديوان الشيخ إبراهيم المنذر (١٨٧٥ — ١٩٥٠) أشرت فى كلمة سابقة (نشرتها « الأديب » فى عدد يوليو الماضى ، ص ٥٤) إلى تلك المكانة التى كانت للشيخ عند المهجريين ، وإلى تلك المودة التى بادلوه إياها .

واليوم أعود فأسوق إلى المهتمين بدراسة حياة المنذر وأدبه ، وإلى المهتمين بالأدب المهجرى ، أبياتاً من قصيدة أخرى فى المنذر مجهولة ، نظمها إيليا ظاهر أبى ماضى (١٨٨٩ — ١٩٥٧) فى سنيه الأخيرة فى الشرق .

وليس واضحاً من هذه الأبيات ، أو من غيرها ، السبب أو الأسباب التى

دعت شاعرنا المهجرى – وكان شابًّا يومئذ – إلى نظم هذه الأبيات مادحاً بها المنذر . كما أنه غير واضح أكان نظمه لها فى مصر أم فى لبنان قبل سفره النهائى إلى أمريكا . ولكن الواضح منها أن أبا ماضى كان يعرف الرجل معرفة وثيقة ، وأن ارتباطاً كان بينهما يتعدي مسقط الرأس المشترك ، مما سهل على بعضهم – على ما أظن – الوشي به إلى المنذر .

أصبحت مثل السيف غادر غمده ... فرداً وجيش الهم حولى يحدق
لا أستقر ببلـــدة إلا على ... سفر إلى أخرى كأنى زئبق
وجريمتى فى الدهـــر أنى شاعر ... والشعر فيه بضاعـــة لا تنفق
ياقلب، ما فى الناس من تشكو له ... إلا « ابن منذر » المحب المشفق
الصاحب البر الوفى بعهـــده ... والكاتب الفطن الأديب المفلق
صحت مودته فليس يشـــوبها ... ريب ولا الأكدار فيها تعلق
وصفت خلائقه فلـــو عاينتها ... عاينت أقمـــار الدجى تتـألق
شيم حكت زهر الرياض وأوشكت ... لو أنه يذر التكتم تعـــبق
رقت شمائله وهذب لفظـــه ... فحديثه السحــر الحلال المطلق
صاحبتـــه فصحبت منه مهذبًا ... وبلوتـــه حرًّا يقول فيصـــدق
كالبحر إلا أنـــه مستعذب ... والبدر إلا أنـــه لا يمحق
ترب الكمـــال وإنـــه نسب له ... تهوى الثريـــا لـــو بـــه تتعلق
ما فيه عيب قط إلا أنـــــه ... متواضع فى قـــومـــه مترفق
سمح كأن المـــال من أعدائه ... ولذا يفـــرق شمله ويمـــزق
ما تلك أنملـــه تفيض بمـــاله ... بل تلك خمسة أبحـــر تتدفق
متأدب يعيي ويفحم خصمـــــه ... حججـًا ويخرس دونـــه المتمنطق
ما راح يكتب فى الطروس يراعه ... إلا رأيت الدر كيـــف ينسق
قد لفق الحســـاد عنى عنده ... وشى به عندى العذول الأحمق
فازداد عندى قدره ، وازداد ود ... ى عنده ، وانحل ما قد لفقوا
لما رأونى باكيًا يـــوم النوى ... طربوا وحثهم السرور فصفقـــوا
وتوهموا الأيـــام تخلق ودنا ... هيهات حبل ودادنـــا لا يخلق

* * *

ياصاحبى ، ولأنت أفضل صاحب يحلو به عهد ويصفو مـوثق
بى من فراقك لوعة لا تنقضى أبداً وهم فى الفؤاد مؤرق
أستنشق الأرواح عَلّ تحيـة ممن أحب بطيبهـا تستنشق
حملتهـا مـا عن سواك أصونه حذراً فسلهـا إنها لك تنطق

(٨) كلمة فى كتاب عن أبى ماضى

(١)

كنت منهمكاً فى كتابة تتمة مقال عن الشاعر المهجرى إيليا ظاهر أبى ماضى (١٨٨٩ — ١٩٥٧) ، لمجلة « الأديب » الغراء ، عندما وقعت يدى على كتاب « إيليا أبو ماضى : حياته وشعره بالإسكندرية ، ١٩٠١ — ١٩١١ م ، مع ملامح من المدينة وصور من المجتمع الشامى فى هذه الفترة » (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ، ١٧٦ ص) . فنَحَّيت مقالى جانباً ، وأخذت أقرأ الكتاب مؤملا أن أجد فيه جديداً عن الشاعر ، أضيفه إلى ما أعرفه عنه . ولكن ، كم كانت دهشتى — حين أتممت الكتاب — من بعض تلك النتائج التى خلص إليها عبد العليم القبانى ، والتى مرجعها — كما سنرى — تفسير غير صحيح لبيت واحد فى « ديوان تذكار الماضى » .

كنت أود ألا أتناول هذا الكتاب لأن مؤلفه شاعر مُجيد ، نال جوائز على قصائد نظمها ، ومؤرخ أدب متفرغ للكتابة ، وصاحب مؤلفات أعرف منها : « شعراء الإسكندرية فى العصور الإسلامية » (١٩٦٤) ، و « أشعار قومية » (١٩٦٦) ، و « مع الشعراء أصحاب الحرف » (١٩٦٧) ، و « البوصيرى » (١٩٦٨) ، و « بقايا سراب ، شعر » (١٩٦٩) ، و « محمود بيرم التونسى » (١٩٦٩) ، و « رواد الشعر السكندرى فى العصر الحديث » (١٩٧٢) ، و « فخرى أبو السعود » (١٩٧٣) ، و « نشأة الصحافة العربية بالإسكندرية » (١٩٧٣) .

وكنت أود ألا أتناول هـــذا الكتاب أيضاً لأن القبانى تربطنى به روابط وثيقة ، فهو ابن الإسكندرية مثلى — وإن ولدت أنا من أبوين شاميين لبنانيين ، وعضو فى أسرة كلية جامعتى التى تخرجت فيها .

كنت أود ألا أتناول هذا الكتاب لهذه الأسباب ، ولكننى رأيت أنه من

واجبى – وأنا أعرف الكثير الثابت عن أبى ماضى الذى مرجعه دراسة نلت بها درجة الدكتوراه فى يونيو (حزيران) ١٩٦٩ من جامعة جورجتاون بواشنطن – أن أعلق على هذا الكتاب بكلمة فيها ما يرضى الحق ، ويرضى النقد الأدبى ، ويرضى الدراسات « الإيلياماضية » ، مدركاً ومقـــدراً فى الوقت نفسه ، تمام الإدراك والتقدير ، مدى الجهد الذى بذله عبد العليم القبانى فى تأليف كتابه .

(٢)

يبدأ عدد سبتمبر (أيلول) ١٩١٦ من مجلة « الفنون » النيويوركية بالصفحة رقم ٢٨٧ وينتّهى بالصفحة رقم ٣٨٤ . ولكن بين غلاف العدد وبين الصفحة الأولى رقم ٢٨٧ ، توجد ١٤ صفحة غير مرقمة ، لو جاز لنا ترقيمها « أبجديًّا » لكانت أرقامها الأحرف ا إلى ن . فى هذه الصفحات ، وتحت عنوان « كلمة عن أدباء الفنون الظاهرة نفثات أقلامهم فى هذا العدد » ، يجد القارئ ، فى صفحة و – ز ، موجزاً عن « إيليا أبو ماضى » هذا نصه :

« شاعر قرض الشعر وهو فى الرابعة عشرة من سنيه ، فأصبح والشعر فيه ملكة والقوافى عبيد له خاضعة يقودها كيف شاء .

ولد فى المحيدثة بلبنان سنة ١٨٨٩ ، وهاجر إلى مصر سنة ١٩٠٠ ، ومكث فيها منصبًّا على المطالعة والدرس لنفسه حتّى سنة ١٩١١ ، فغادرها إلى أمريكا ، وسكن سنسناتى ، ثم جاء نيويورك فى صيف هذا العام ليشتغل بالأدب .

وله « ديوان أبى ماضى » ، طبع الجزء الأول منه فى مصر ، والجزء الثانى سيهيأ للطبع قريباً » .

هذا الموجز ، وهو أقدم موجز لحياة أبى ماضى انتّهى إلينا حتّى الآن ، كان مصدره بالتأكيد أبا ماضى نفسه . فنسيب عريضة ، صاحب مجلة « الفنون » ، ما كان له أن يعرف هذه التواريخ المحددة فى حياة أبى ماضى لو لم يمده شاعرنا بها .

فإذا أردنا بعد هذا ، أن نحدد أيضاً يوم وشهر ولادة أبى ماضى

فى سنة ١٨٨٩ ، قلنا إنه ١٥ مايو (أيار) ، وذلك بناء على ما جاء بعد تحقيق وتدقيق عن تاريخ ميلاد الشاعر ونشأته ، ص ٦٥١ ، من مقال لجرجى إبرهيم نصر ، فى مجلة «المشرق» البيروتية ، عدد تشرين الثانى — كانون الأول (نوفبر — ديسمبر) ١٩٦٩ .

نخلص من هذين المصدرين إذن إلى غير ما خلص إليه القبانى فى كتابه . نخلص إلى : (ا) أن أبا ماضى ولد فى ١٥ /١٨٨٩/٥ ، (ب) وأنه كان إما فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة — نقول هذا لأننا لا نعرف شهر هجرته — عندما هاجر إلى الإسكندرية ، عام ١٩٠٠ ، بصحبة عمه «نعوم» ، (حـ) وأنه كان قد أتم الثانية والعشرين عندما هاجر من مصر إلى أمريكا فى نهاية ١٩١١ ، مارًّا بلبنان .

(٣)

يقول القبانى فى كتابه ، ص ٢٩ — ٣٠ ، ما نصه :

«إذا نحن قرأنا قصيدة الشاعر «مصر والشام» ، واستمعنا منها إلى هذا البيت الذى يقول فيه :

مضى عام علىَّ بأرض «مصر» وذا عام وسوف يجىء عـــام

عرفنا أنه نظم هذه القصيدة بعد أن أقام بالإسكندرية سنة ، ودخل فى الأخرى ، وراح يرتقب الثالثة . وبعبارة محددة نظمها سنة ١٩٠٢ . . . هذه نتيجة لا يجهد الفكر فى الوصول إليها . ولكن الذى يحتاج إلى شىء من التعمق هو القصيدة نفسها» .

وليت القبانى أعطى هذه القصيدة التعمق كله ، لا شيئاً منه فقط ، لأنه لو كان فعل لوضح له آنئذ أن تاريخ نظم أبى ماضى لـ «مصر والشام» ليس عام ١٩٠٢ كما حدده هو ، بل عام ١٩٠٩ . وإن شئنا أن نكون أكثر تحديداً — بناء على ما لدينا من الأدلة — قلنا بعد ٢٥ مارس (آذار) من ذلك العام.

سيسألنى سائل : ومن أين لك بالأدلة ؟ سأجيب : من القصيدة نفسها ، شرط أن نقرأها بنصها الكامل ، ص ٧٥ — ٧٧ ، فى «ديوان تذكار الماضى»

(ط١٩١١) ، لا فى كتاب القبانى ، ص ٣٢ — ٣٣ ، لأن القبانى لم ينقلها هنا بكل معانيها وأفكارها و صياغتها كما ذكر .

لنقرأ معاً هذا البيت المُغْفَل فى نص القبانى ، وقد وضعت بين قوسين ما يهمنا فيه :

أ (قانونًا) قيودهم تسمى ؟ إذًا قد أنث الرجلَ اللثامُ

ألا يشير هذا البيت إلى « قانون المطبوعات الصادر فى ١٨٨١/١١/٢٦ » الذى أحياه مجلس النظار (الوزراء) بقرار أصدره فى ١٩٠٩/٣/٢٥ ، ونشره فى « الوقائع المصرية » ، ص ١ ، عدد ٢٧ /١٩٠٩/٣ ، حتى يحد من حرية الجرائد ؟

ثم لنقرأ هذا البيت المثبت فى نص القبانى :

إلا مَ تمنع الدستور « مصر » وقد كادت تفوز به (سيام) ؟

ألا يشير هذا البيت إلى المعاهدة التى عقدت فى مدينة « بانكوك » بين « سيام » (« تايلاند » الآن) وبريطانيا ، فى ١٠ /١٩٠٩/٣ ، والتى بمقتضاها أصبح البريطانيون المقيمون فى سيام خاضعين لسلطة محاكم سيام الوطنية ، وكانوا قبلها — بسبب الامتيازات الخاصة — خاضعين لسلطة محاكم غير سيامية ؟

ثم لنقرأ الأبيات الآتية المختارة من القصيدة ، وعلى رأسها مطلعها (لاحظ أن البيتين الثانى والخامس ساقطان من نص القبانى) :

أطال الليل أم طال المقام ؟ أم (المحزون) خامره الهيام ؟

فبات يصعد الزفرات وجداً وإما (ناح) أسعده (الحمام)

تجمعت (الهموم) عليه تترى كما اجتمعت على الماء السوام

وأعوزه على (البلوى) معين وأعوز ليله (القمر التمام)

كأن نجومه أجفان (باك) كأن الليل صبٌ مستهام

ألا تشير هذه الأبيات إلى حالة إيليا النفسية التى صار إليها عام ١٩٠٩ بعد وفاة شقيقه طانيوس ، « البدر الآفل » فى الربع الأول من ذلك العام ، عام أصاب القبانى فى تحديده ص ٢٣ ؟

ألا تقطع الأدلة السابقة مجتمعة بأن « مصر والشام » نظمت ١٩٠٩ ، ولم تنظم ١٩٠٢ ؟

سيسألنى السائل : أتريد أن تقول إن أبا ماضى كان متغيباً عن مصر فترة من الزمن عام ١٩٠٨ ؟ سأجيب : تماماً . فهذا ما أستطيع أن أثبته لك ، وبسهولة ، من « ديوان تذكار الماضى » أيضاً ، وإن أنا عجزت — فى ذات الوقت — أن أحدد لك بالضبط تاريخ هذا التغيب ومدته وكذلك سببه . افتح الديوان ص ٤٣ ، واقرأ معى فى باب « الغزل والنسيب » ، هذه الأبيات المتتابعة من قصيدة « لقاء وفراق » :

أصبو إليها وأصبو كلما ذكرت ... عندى اشتياقاً إلى « مصر » وأهليها

أرض سماء سواهـا دونهـا شرفاً ... فلا سماء ولا أرض تحاكيهـا

رقت حواشيها واخضر جـانبهـا ... وأجمل الأرض مارقت حواشيهـا

كأن أهرامها الأطواد باذخـة ... هذى إلى جنبهـا الأخرى تساميها

كأنها كعبـة حج الأنـام لها ... لولا التقى قلت فيهـا : جل بانيها

و« نيلها » العذب ما أحلى مناظره ... والشمس تكسوه تبراً فى تواريها

ألا تدل هذه الأبيات على حنين أبى ماضى إلى مصر ، وتَحَرُّقه شوقاً إليها ، يوم كان بعيداً عنها عام ١٩٠٨ ؟

(٤)

كان إذن أبو ماضى فى آخر العشرين من عمره ، أو أول الحادية والعشرين ، عندما نظم « مصر والشام » ، ولكنه كان فى آخر الخامسة عشرة حينما دارت « معركة شمولبو » فى ١٩٠٤/٢/٩ ، وكان فى السادسة عشرة عند « سقوط بورت أرثور » فاتحة ١٩٠٥ ، وكان فى بداية السابعة عشرة لما توفى الشيخ محمد عبده فى ١١ / ١٩٠٥/٧ . فهل كان أبو ماضى قادراً ، فى هذه السن المبكرة ، أن ينظم ما نظمه فى هذه المناسبات الثلاث ؟ أم أن قصائده التى نقرؤها فى « تذكار الماضى » لهذه المناسبات ليست القصائد الأصلية نفسها التى نظمها فى حينها ، بل القصائد الأصلية بعد أن تناولها أبو ماضى

بالتنقيح ، وربما أيضاً بالتطويل ، قبل نشرها فى ديوانه ، فى النصف الأول من عام ١٩١١ ؟

أقول هذا لأننى لاحظت فى أثناء دراستى لشعر أبى ماضى فى أطواره المختلفة ، أن هناك اختلافاً فى رواية بعض القصائد ، اختـــلافاً فى الشكل و/ أو فى المضمون .

أما فى الشكل ، فقد لاحظت اختلافاً فى رسم بعض الكلمات ، وفى ترتيبها (تقديم وتأخير) ، وفى التشطير وعدمه ، وكذلك فى تجزيء القصيدة .

أما فى المضمون — وهو ما يهمنا هنا — فقد لاحظت اختلافاً فى الألفاظ وفى الأبيات ، وفى طول القصيدة ، وكذلك فى عنوانها .

خذ ، مثلا ، قصيدة « صاحب القلم » (لكن مصراً) التى أرسلها الشاعر من الولايات المتحدة ، عام ١٩١٣ ، إلى مجلة « الزهور » القاهرية ، يحيي بها مصر ، ويحن فيها إلى وادى النيل . إنها ٣١ بيتاً فى المجلة ، بينما هى بزيادة عشرة أبيات فى « ديوان إيليا أبو ماضى ، الجزء الثانى » (ط ١٩١٩) .

وخذ « العميان » (نحن) . إنها ٢١ بيتاً فى « مرآة الغرب » النيويوركية عدد ١٩١٩/١٠/١٤) ، لكنها بزيادة ١١ بيتاً فى « الجداول » (ط ١٩٢٧) .

وخذ « نار القرى » . إنها ١٨ بيتاً فى « السائح الممتاز لسنة ١٩٢٧ » ، ولكنها ٢٤ بيتاً فى « الجداول » .

ثم خذ « الزمان » ، وقارن نصها كما ورد فى « الجداول » بنصها فى مجلة « المقتطف » القاهرية (عدد ١٩٢٤/٧/١) ، وقارن كذلك نص « يارفاقى » فى ديوان « تبر وتراب » بنصها فى جريدة « النصر الجديد » الدمشقية (عدد ١٩٥٢/١٢/٢٢) .

بل قارن « شكوي فتاة » (الزواج التجارى) كما جاءت فى « تذكار الماضى » بها كما جاءت فى « الهدى » النيويوركية (عدد ١٩٠٩/٨/١٢) .

ربما ما حدث بهذه القصائد ، التى سقناها هنا على سبيل المثال ، هو ما حدث أيضاً بالقصائد الثلاث التى نحن بصددها — وربما أيضاً ببعض شعر

صبا أبى ماضى الآخر المنشور فى « تذكار الماضى » — فحدا هذا الأمر بالقبانى إلى أن « يستكثر » ، ص ٣٥ ، على أبى ماضى « أن يتسع أفقه فى السياسة الخارجية إلى الحد الذى ينظم فى أحداثها شعراً عربياً سليماً ، فيه جودة و شمول وعمق ، وإن لم تصل درجته بطبيعة الحال إلى حيث بلغ الشاعر فيما بعد » .

على أننا لا نريد أن نخلص، مما ذكرناه أعلاه ، إلى تأكيد ما قاله القبانى ، ص ٤٣ — ٤٤ : « أن من المستحيل على صبى . . . حتى فى السادسة عشرة أن يقول مثل هذا الكلام ، وأن يفكر مثل هذا التفكير ، ثم — وذلك هو الأشق والأصعب — أن ينظم هذا كله شعراً عربياً صحيحاً لا يعيبه من رعونة الطفولة وقلة التحصيل شيء » . ذلك لأن مثل هذا التأكيد إنما يترتب عليه إنكار أن هناك نمواً أدبياً مبكراً ، ونمواً فكرياً مبكراً ، ثبت وجوده لدى بعض الأدباء .

خذ ، مثلا ، الشاعر المصرى أحمد محرم (١٨٧٧ — ١٩٤٥) الذى تشبه حياته كثيراً حياة أبى ماضى فى معالمها الرئيسية . يقول عنه بدوى طبانة ، ص ١٨ — ٢١ فى كتاب « خمسة من شعراء الوطنية » (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣) ما نصه :

« إن القراءة الدائبة وحدها كانت السبيل إلى تلك الثقافة اللغوية والأدبية والتاريخية التى نمت استعداده الفطرى لصناعة الشعر ، وبلوغه فيه تلك المنزلة الرفيعة التى لا يشك أحد فى بلوغه إياها . . .

ولا نشك كذلك فى أصالة أحمد محرم ، وأنه خلق شاعراً مطبوعاً وعبقرياً موهوباً ، وأن ملكته الفنية جادت مبكرة بمكنونها ، وهو لا يزال غض الصبا وفى ميعة الشباب . وقد شهد له بذلك النبوغ المبكر بعض الذين قرءوا بواكير إنتاجه ، وعاصروا مرحلة حداثته ، ومنهم الشاعر أحمد الكاشف الذى كتب فى العقد الأول من هذا القرن عن أحمد محرم يقول : « لقد أصبح ذكر هذا الشاب الجليل أحمد أفندى محرم متداولا على ألسن الأدباء ، محبوباً لديهم ، لما اشتهر به من علو الهمة ، وبعد النظر فى كتابته التى تعطرت بها الصحف ، وضربت بجودتها ومتانتها الأمثال ، فما زرت أديباً فى العاصمة

أو غيرها من المدن العظيمة إلا استشهد لى بأشعاره إذا دار بينى وبينه حديث قديم وحديث ، ولقد يعرفه معظم أرباب الصحف ويقدرونه حق قدره ، ويظنونه فى الأربعين من عمره ، وأنه من ســـلالة عربية ، وأنه من متخرجى الأزهر أو دار العلوم ، مع أنه من أبوين تركيين ، وعمره لا يتجاوز ثمانية عشر ربيعاً » .

ويتابع طبانة كلامه فيقول :

« وقد اجتمعت فى أحمد محرم طبيعتان كان لهما أبعد الأثر فى توجيه حياته الفنية ، وطبع سلوكه فى حياته العامة بطابع خاص متميز ، وهما : الشاعرية التى وُهبِتَها ، والاستعداد الفطرى للمشاركة فى الحياة العامة .

وكانت الشاعرية التى وهبها ، وبرزت معالمها ، واضحة منذ كان حدثاً صغيراً يستقبل الحيـــاة ، ولزمته حتى صار شيخاً كبيراً يستعد لتوديع تلك الحياة ، هى التى دفعته إلى الفرار من التعليم الرسمى بالمدارس الحكومية ، ليفرغ لهذه الشاعرية ، ويُنَمِّيها بطاقات أدبية يحصلها من قراءاته ، ومن اطلاعه الواسع العميق على آثار كبار الأدباء والفحول من الشعراء الذين كان يطمح إلى بلوغ منازلهم من الشهرة وخلود الذكر . . .

وكانت النزعة الأخرى هى نزعة الحس المرهف والاستعداد الفطرى للمشاركة فى الحياة العامة مشاركة حرة طليقة من سائر القيود التى تحـــد من حريته فى الاستجابة لهذه النزعة . . .

وكذلك اتجه أحمد محرم إلى الصحافة ، وقد وجد فيها المنبر الذى يتطلع إليه لتحقيق غايته ، وإرضاء طموحه إلى الشهرة وذيوع الصيت ، وإشباع رغبته فى المشاركة فى الحياة العامة ، ومعالجة القضايا السياسية ، والاجتماعية التى تشغل الناس إذ ذاك . وكان ذلك فى فترة من فترات نشاط الصحافة واصطراع الآراء فى كثير من القضايا والمشكلات التى تشغل البلاد فى الربع الأول من هذا القرن . . .

وقد خاض أحمد محرم فى هـــذا المعترك فى سن مبكرة ، يقول إنه

لم يكد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى أقبل على الصحف السياسية والمجلات العلمية يكتب فيها عن المبادئ المنتزعة من حقائق التاريخ ، والمذاهب القائمة فى صميم الآداب » .

هذا عن أحمد محرم . أما عن أحمد الكاشف (١٨٧٨ — ١٩٤٨) ، وهو شاعر مصرى آخر . فيقول عنه محمود غنيم ، ص ١٦٦ فى الكتاب نفسه ، ما يلى :

« وفى السادسة عشرة بدأت تتفتح موهبته الشعرية بعد أن نال حظاً من علوم اللغة وأنس أساتذته فيه ذلك، فبدءوا يُدَرِّسون له فن العروض وفنون البلاغة ، فبرز فيهما ، حتى كان يبزّ أساتذته فى بعض مسائل تتعلق بهما أحياناً . وفى تلك الفترة زار القرشية عالم فاضل ، فأعجب بموهبته ، واقترح عليه ارتجال بيتين فى فن الغزل ، فارتجلهما فتنبأ له بمستقبل حافل بالمجد فى ميدان الشعر . ومن هنا أمسك بطرف الخيط فى نظم القريض . وكان له خال — يجيد النظم — فكان يبعث بإنتاجه إليه لينقده له . . .

بدأ — وهو فى السابعة عشرة من عمره — يدبج المقالات الصحفية ، ويبعث بها إلى الصحف ، وعلى الأخص صحيفتى « العمدة » و « الأهالى » ، فلا تكتفيان بنشر ما يكتب ، بل تستزيدانه مما يكتب . كل ذلك وهو تلميذ . على أن مكانته الأدبية الملحوظة جعلته يَدِلُّ بنفسه ، وينظر إلى الأساتذة نظرة من يرى نفسه أكثر منهم إدراكا ، وينظر إلى الكتب نظرة من يرى نفسه أكبر من واضعيها عقلا » .

إذن ، فليس غريباً ولا مستحيلا — والنبوغ الأدبى المبكر ظاهرة ثابتة عند بعض الأدباء ، كما رأينا — أن ينبغ أبو ماضى فى مصر نبوغاً شعريّاً وفكريّاً مبكراً ، سمح له بنظم قصائد معينة فى صباه ، لا نستكثرها على شاعر عبقرى مثله .

(٩) كلمة أخيرة

فى تاريخ ميلاد أبى ماضى وفى شعر صباه

قرأت مؤخراً « قراءة جديدة لإيليا أبو ماضى » بقلم صلاح عبد الصبور — هى تذييل لـ « تذكار الماضى » (١٩١١) فى طبعة جديدة أصدرتها دار العودة ببيروت ، ١٩٧٤ — فرأيت أن عبد الصبور من الشاكين فى تاريخ ميلاد أبى ماضى ، المرجحين أن أبا ماضى حينما بدأ النظم إنما كان أكبر سناً مما هو معروف عنه ، لأن قصائده «فيها قدر كبير من المرانة والمقدرة اللغوية والصياغة بحيث يستبعد أن تكون نتاج صبى فى السنوات الأولى من صباه » (ص ٢٥١) .

وحتى لا يتطرق هذا الشك إلى آخرين من المهتمين بدراسة هذا المهجرى ، أسوق كلمة أخيرة فى هذا الموضوع — بعد كلمة سابقة نشرتها « الأديب» فى عدد ديسمبر ١٩٧٤ — لعل بها يتبدد شك الشاكين ، ويقتنع المرجحون .

قابل عبد المسيح حداد (١٨٩٠ — ١٩٦٣) أبا ماضى لأول مرة فى أغسطس (آب) ١٩١٥ ، فى أثناء زيارته مدينة سنسناتى ، وبعدها كتب عنه فى جريدته « السائح » النيويوركية ، عدد ١٢ / ٨ ، ص ١ ، ما نصه :

«كنت أظن إيليا أبى ماضى كهلا متشبباً ، ولكننى رأيته على عكس ما ظننت . فإنه شاب مكتهل . هو من العمر لا يتجاوز الخامسة والعشرين ، ولكنه بلغ خبرة الكهول ، وحكمة الشيوخ » . ثم أضاف : « والناظر إليه يراه هادئاً قليل الكلام رصيناً ، ولكن لا تخفى عليه العواصف الروحية التى يثيرها الهيكل الهادئ » .

من هذا يثبت لدينا ، بما لا شك فيه ، أن سنة ميلاد أبى ماضى هى ١٨٨٩ ، وليس هناك غيرها . ولزيادة التأكيد ، أثبت فيما يلى ما ذكره الشاعر

المهجرى نعمة الحاج — أطال الله عمره — فى خطاب له إلىّ مؤرخ ١ / ٥ /١٩٧٥ . قال :

« إيليا أعز صديق وأحب عشير ورفيق لى . . . وإنى متـأكد أنه من عمرى . فلطالما تـذاكرنا بذلك . وكلانا ولد سنة ١٨٨٩ ، هو فى شهر أيار (مايو) ، وأنا فى شهر آب (أغسطس) ، وكذلك الصديق ميخائيل نعيمة هو أيضاً من مواليد ١٨٨٩ » .

أما شاعرية أبى ماضى المبكرة ، فيمكننا أن نستدل عليها مما قاله أيضاً عبد المسيح حداد فى المقال السابق نفسه . قال :

« أحرز إيليا شوطاً بعيداً من الشهرة التى بنتّها له قصائده الرنانة . فهو قد خلق ليكون شاعراً ، فالشاعرية ملء فؤاده . وهو من الشعراء الحريثين النشطين ذوى الحرية التامة . وهذه أوصاف تضعه بين الشعراء النابغين الحقيقيين الذين ينظمون لوحى أتاهم ، ويقولون الشعر عفو القريحة ، ويخاطبون الأرواح بلغتها . هو بعيد عن المادة ، لا يتكلف . يتصرف بشعره كما يتصرف الصائغ المتفنن بوضع الجـواهر بأحسن زينة . وهو ليس من أولئك النظامين الذين يقرضون الشعر والشعر يقرضهم — لأنهم لم يخلقوا له — لكنهم يستعملون أوزانه تطلبا للشهرة الكاذبة ، فيجيء شعرهم ركيكا يظهر به التكلف ظهور الشمطاء بشعر جارتها .

هذا هو إيليا أبو ماضى الشاعر السورى العربى كما اختبرته ، وكما رأيته ، وكما عرفته . ولمن يحب الإيجاز أقول : إن إيليا شاعر بالطبيعة ، لا بالاكتساب » .

ملاحظة أخيرة : تاريخ صدور « الجداول » ليس عام ١٩٢٥ ، كما جاء فى « قراءة » عبد الصبور ، وفى بعض مراجع أخرى تناولت أبا ماضى ، وإنما عام ١٩٢٧ .

(١٠) إلى جورج صيدح

عزيزى النابغة جورج صيدح ،

تأخرت « الأديب » العزيزة على قرائها فى أمريكا بسبب الأحداث اللبنانية المريعة ، واليوم ، بعد ستة أشهر من تاريخه ، يصلنى عدد سبتمبر ١٩٧٥ ، وفيه ، ص ٥١ ، تعليق لك على مقالى « الحزب الوطنى المصرى وأبو ماضى » .

١ — نحن متفقان فى أن مدينة نيويورك كانت مكان نظم « لم أجد أحداً » ، ولكننا مختلفان فى مكان وتاريخ نشرها . فبينما أنت تذكر أن القصيدة نشرت فى « السمير » (و« السمير » كان صدورها فى ١٥ /١٩٢٩/٤) أجدها أنا منشورة بالحرف ، وبدون إمضاء ، فى الصفحة الأولى من «مرآة الغرب» النيويوركية ، عدد ١٩١٧/١٢/٢٤ ، أى قبل ظهور « السمير » بما يزيد على أحد عشر عاماً . وثمة دليل آخر لا يتطلب الرجوع إلى جريدة « المرآة » هو أن القصيدة لا تظهر فى « الخمائل » (١٩٤٠) ، ولا فى « الجداول » (١٩٢٧) ، بل فى « ديوان إيليا أبو ماضى ، الجزء الثانى » (١٩١٩) ، ص ٣٣ — ٣٦ .

ولا يمكننى التوفيق بين ما ذكرت أنت ، وما هو ثابت لدىَّ إلا بقولى إن شاعرنا ربما رأى ملائماً تجديد استعمال قصيدته القديمة فى الحفلة التى ذكرتها ، وكذلك إعادة نشرها فى « السمير » ، فهذا محتمل ، ولكنه لن يغير من التاريخ الأصلى لنظم القصيدة ونشرها .

٢ — عندك أن أبا ماضى سافر رأسا من الإسكندرية إلى أمريكا . ولكن جرجى إبرهيم نصر (فى مقاله ، ١٩٦٩) ومن قبله جبور عبد النور (فى مقاله بـ « الآداب » (بيروت) ، شباط (فبراير) ١٩٥٣ ، ص ٣٨ — وهو مصدر اعتمدت عليه ، ولكن للأسف سهوت عن إدراجه فى قائمة مراجعى) يذكران مرور أبى ماضى بمسقط رأسه ، صيف ١٩١١ ، وبقائه به أشهرا ، هاجم أثناءها السلطات قبل هجرته إلى الولايات . وسواء فى ثغر الإسكندرية أو فى

ضيعة المجيدلة لم يكن دور أبى ماضى السياسى أو الإصلاحى دور قيادة ، بل كان دور تعضيد وتأييد . وبرغم تواضع الدور ، فقد جنى منه شاعرنا ثماراً لم يستسغها . ذكر ذلك فى كهولته ، وقال ناصحاً فى « لم يبق غير الكاس »:

واهجر أحاديث السياسة والألى ... يتعلقون بحبل كل سياسى
إنى نبذت ثمارهـا مذ ذقتهـا ... ووجدت طعم الغدر فى أضراسى
وغسلت منهـا راحتى ، فغسلتها ... من سـائر الأوضار والأدنـاس
وتركتها لاثنين : غر ساذج ... ومشعوذ كذبذب دسـاس .

وقال معيداً النصح ، واصفا السياسة فى مرثيته « مجاهد » .

وحذار أشراك السياسـة ، إنها ... بنت أبوها الزئبق الفـرّار
فيها من الرقطاء نـاقع سمها ... ولها نيوب الذئب والأظفـار
ترد المناهل وهى مـاء سائغ ... وتعود عنهـا والمناهل نـار
الكذب والتمـويه خير صفاتهـا ... وشعارهـا ألا يدوم شعـار
لا تطلبن من السياسـة رحمـة ... هى حيث طل دم وحل دمـار

وظنى أن قصيدة أبى ماضى فى مدح إبراهيم المنذر (راجع « الأديب » ، ديسمبر ١٩٧٣ ، ص ٥٤ — ٥٥) إنما كانت دفاعاً عن نفسه بعـد أن لفق بعضهم عنه ، ووشى به سياسيًّا عند أستاذه .

٣ — صحيح أن أبا ماضى ، لسبب أو لآخر ، توخى إهمال ونسيان قصائده الأولى وكذلك أيامها — كما توخى أيضاً إهمال قصائد له نظمها فى أيام تمام شاعريته . ولكن هذا الإهمال لا يلزمنا ، نحن كدارسين ، أن نسلك مسلك أبى ماضى حينما تجوهرت مواهبه ، فنهمل ما أهمله ، ونهتم فقط بما رضى عنه . ثم إن الدراسات الأدبية الموضوعية يجب أن تكون متكاملة ، متممة بعضها البعض ، غير مكرّرة ، وغير مقتصرة على فترة أو فترات محددة من حياة الأديب المدروس ، ولا مركّزة على نتاجه العزيز عليه ، بل يجب أن تتناول كل ما يمكن تناوله لاكتشاف جديد يوسع من نطاق فهمنا الحق له ، وبالتالى تقريب فهم غيره من الأدباء وفهم تطورهم . ومثل هذه الدراسات لا تتحقق إلا إذا توفرت أربعة

أركان : (١) استكمال النصوص الأدبية بالبحث عن المجهول منها ، وجمعه كله — بصرف النظر عن حكمنا الشخصى فى قيمته — وإضافته إلى المعروف (ب) محاولة تأريخ هذه النصوص (ح) عمل معاجم للألفاظ ، وفهارس للمواضيع وللأعلام الواردة فى هذه النصوص (د) عمل ببليوغرافيا شاملة تضم الثمين وكذلك الغث الذى كُتب عن الأديب .

هذه وجهة نظر فى دراسة الأدباء ، قد لا يرضى عنها البعض ، ولكن فيها يشاركنى غير قليل من الدارسين .

أختم داعياً لك ، مخلصاً ، بطول العمر المقرون ببقاء حدة الفكر وثبات اليد ، وعسى لا يطول الوقت إلا والطبعة الجـديدة من كتابك عن الأدب المهجرى بين أيدى القراء . المعجب بك

جورج ديمترى سليم

(١١) تشارلز أغسطس لندبرج

Charles Augustus Lindbergh

١٩٠٢ — ١٩٧٤

فى ٢٦ / ٨ / ١٩٧٤ مات الأمريكى « تشارلز أغسطس لندبرج » الذى طارت معه قلوب ملايين من الناس عام ١٩٢٧ حين قام برحلته المثيرة عبر المحيط الأطلنطى منفرداً .

كان لندبرج عامها قد أتم الخامسة والعشرين ، وحيداً لوالدته (توفى والده عام ١٩٢٤) ، طياراً مجهولا يعمل فى « شركة روبرتسون للطائرات » بمدينة سانت لويس بولاية ميزورى . وكان لندبرج أيضاً طموحاً ، أغرته — كما أغرت غيره — جائزة قدرها ٢٥ ألف دولار أرصدها النيويوركى الفرنسى « ريمون أورتيج » ، منذ عام ١٩١٩ ، لأول شخص يقطع وحده المحيط بين نيويورك وباريس جوًّا بلا توقف . ولم يكن بالطبع قطع ٣٦١٠ أميال ، (٥٨٠٨ كم) جوًّا فوق الأطلنطى عملا مستحيلا فى العشرينيات ، كما ثبت ، ولكنه كان بالتأكيد عملا جنونيًّا انتحاريًّا راح ضحيته بضعة رجال .

وفكر لندبرج فى الأمر مليًّا قبل أن يدخل مسابقة أورتيج الجوية ويجازف بحياته ، وراجع مؤهلاته ، فرأى أنه لائق بدنيًّا ومهنيًّا . فجسمه سليم وفى عنفوانه ، وهو طيار ماهر ، وملاح قدير ، وميكانيكى بارع بالمحركات ، وخبير فى بناء الطائرات ، ولكنه عاجز عن الاشتراك فى المسابقة لأنه فقير ، ادخر من عمله اليومى ألفى دولار لا تكفى لشراء طائرة قيمتها ١٥ ألفاً . فذهب إلى بعض رجال الأعمال الذين كان يعمل بينهم فى مدينة سانت لويس ، وتحدث معهم ، فأظهروا روحاً طيبة ، واتفقوا على شراء طائرة له ، كان ادخاره جزءاً من تكاليفها .

ووضع لندبرج تصميم طائرته ، وذهب به إلى مصانع « رايان » بمدينة

سان دييجو بولاية كاليفورنيا . وهناك بقى شهرين يشرف بنفسه على صنع هذه الطائرة ذات المحرك الواحد . فلما كملت ، أجرى عليها كل الاختبارات اللازمة ليتأكد من تمام أداء تشغيلها ، ثم أطارها إلى الساحل الشرقى للولايات المتحدة ، مجرباً إياها لرحلته الطويلة الخطرة .

وتناهى إلى لندبرج ، وهو فى طريقه إلى نيويورك ، خبر مصرع الرفيقين « شارل نونجيسير » و« فرانسوا كولى » ، وتلاشيهما فى مياه الأطلنطى ، وهما يحاولان معاً عبوره جوًّا من باريس إلى نيويورك . ولم يفت هذا الخبر المزعج من عزم لندبرج الصلب ، بل بالعكس شحذ استعداده ، وجعله يقدم على سفرته كما خططها ، وكله رباطة جأش وثقة بالنفس .

وشاءت « إيفانجيلين » ، أم لندبرج ، أن ترى وحيدها قبل رحيله ، فحضرت بالقطار ، صباح السبت ١٤ / ٥ ، إلى نيويورك . وكان ابنها فى انتظارها على المحطة بسيارته . فأخذها لترى طائرته التى كانت فى حظيرتها ، ثم ذهبا إلى مطعم هادئ لتناول وجبة الغداء منفردين ، وبعدها رجعا إلى المحطة لتستقل هى القطار عائدة إلى تدريس الكيمياء بدترويت ميشيجان ، ويعود هو إلى استعداداته .

ولقد دهش من شاهد أم لندبرج عصر ذلك اليوم ، وهى تودع وحيدها على رصيف المحطة بربتة على ظهره ، وبابتسامة على شفتيها ، ثم بتلويح يدها له من شباك العربة عندما تحرك القطار ، وقد ملكت نفسها وضبطت عواطفها ، وكأن تشارلز كان على وشك القيام بسفرة من تلك السفرات العادية الخاطفة التى كان يقوم بها لنقل البريد ، لا بسفرة واضحة المخاطر . ولكن ، جهل من دهش ، أن وراء هذا الهدوء الظاهرى وهذا التمالك بركاناً جياشاً من المشاعر والأحاسيس ، سيطرت عليه نظرة واقعية للحياة ، ترى الأمور على حقيقتها بتعقل وبدون تهويل .

سأل أحدهم إيفانجيلين عن شعورها قبيل سفر ابنها ، فأجابت باقتضاب : « لولا أنى أكون حملا زائداً على طائرته لذهبت معه . لا أستطيع الآن أن

أقول شيئاً إلا أنى غير خائفة عليه . . . غداً السبت (٢١/ ٥) ، وهو يوم عطلتى ، سيكون إما أسعد أيام حياتى وإما أحزنها » .

وركب لندبرج ، فى الصباح ، « روح سانت لويس » من « مطار روزفلت » بـ « لونج أيلاند » بالقرب من مدينة نيويورك ، وأقلع بها فى ظروف جوية غير مستحبة ، ترافقه العناية الإلهية ، ودعاء الوالدة ، وعطف الملايين على شباب غض وجرأة نادرة سخر منها شيوخ طيران ذلك الوقت .

وظل لندبرج محلقاً فى الهواء مدة ٣٣ ساعة وثلث الساعة ، داعبه خلالها النوم مراراً فما نعس، وتجلد جناحا طائرته وقتاً فما يئس، وأرعد له الرعد فما بئس، وأزبد البحر تحته فما عبس . ورويداً رويداً ، بينما كان لندبرج يشق بثبات عنان السماء ، أخذت الثلوج تتقطع ، والغيوم تتقشع ، وشرعت ريح خلفية خفيفة تهب دافعة طائرته إلى الأمام ، فبدأت هذه تندفع مسرعة شرقاً إلى باريس . وهناك ، بالقرب من « مدينة النور »، وفى ظلام الليل ، هبط لندبرج فى « مطار ل بورجيه » ليجد الفرنسيين قد خرجوا لاستقباله استقبال الأبطال ، مطيرين فى الوقت نفسه ، إلى جميع أطراف الأرض ، نبأ أول إنسان فى التاريخ وصل إليهم عابراً المحيط وحده على جناح الريح .

وبهر نجاح لندبرج العالم أجمع ، فتسابقت الدول إلى دعوته ، والاحتفاء به ، ومنحه الأوسمة . أما الأفراد فبعثوا إليه ، عدا برقيات التهانى ، ما زاد على ثلاثة ملايين ونصف رسالة إعجاب . ولقد أراد أحد الناشرين فى الولايات المتحدة تخليد هذه المناسبة نظماً فأعلن عن مسابقة شعرية بجوائز مالية ، دخلها فى أقل من شهرين أكثر من أربعة آلاف قصيدة ، طبعت المائة الفائزة منها فى ديوان .

والآن ، بعد هذه المقدمة التى كان لا بد منها ، أحب أن أنقل إلى القارئ ثلاث قصائد عربية منسية ، أوحت بها هذه المناسبة التاريخية إلى ثلاثة شعراء مهجريين شماليين .

أما القصيدة الأولى فهى لأسعد رستم (١٨٧٨ — ١٩٦٩)، وعنوانها « لندبرغ ، عندك عندى » . وهى قصيدة فيها حركة وفيها خفة ، سهلة اللغة ، قافيتها « أنجلوعربية » ، وهى مكونة من ١٤ مربعة كل منها مذيلة بالقرار « عندى عندك ، عندك عندى » ، أسقطناه فى النص التالى للإيجاز .

الطائـــر مختصرًا « لندى » رجل أسوجى أرلنـــدى
نسر سيطير إلى «الهند » مرفوع الجـــانح والبنـــد

* * *

أسد بشجاعتـــه اتصفـــا فالرعد لديه إذا قصفـــا
والريح لديه إذا عصفـــا من لحن كمنجـــة « كركند»[1]

* * *

بطـــل بآلة قد فـــاز لم « يحرق دينا » بل كازا[2]
لم يسكر ، لم يأكل « مازا » ماجن على غصن الرند[3]

* * *

بالأمس تجشم أخطـــارا وإلى « بارى » رأسًا طارا[4]
فقضى للأمـــة أوطـــارا يقضيها القـــائد والجنـــدى

* * *

قطع « الأتلنتيكى » فـــردا والجوع تحمل والبـــردا
والطقس ردىء كم أردى من إنسان أو « راشنـــد»

* * *

لاقته « فرنسا » فى الحلك بضجيج يدوى فى الفلك
و بـ « لندن » كان مع الملك يتناول من «بكس الكندى »[5]

* * *

وإلى « نيويورك » لقد قفلا وبشـــوب الشهرة قد رفـــلا
والشعب بعـــودته احتفـــلا من يوم السبت إلى « مندى»[6]

* * *

هذا رجل نفع النـــاسا أشكالا منهم أجنـــاســـا
كن عتـــالا ، كن كناسا كن «موسولينى » ، كن «غندى»[7]

* * *

رجل فى الخمس وعشرينـــا عمرًا ، إن جاوز تشرينـــــا
« مارى » عشقته و« كترينا » فله وجـــه حلو « دندى»[8]

* * *

قد كان فقيراً مسكينـــا　　مع ذلك يـرفض مليونا
ما كان لشخص مديـوناً　　لا يستعطى ، لا يستنـــدى

* * *

غلب الدنيا بشجاعتـــه　　وتفننه وبــراعتـه
فدقائقنـــا من ساعتـــه　　ما قول « أبى ياغى فندى » ؟

* * *

ما قول كسالى الأوطـــان ؟　　أعنى شركاء الشيطـــان
ما قول رعــــاع . . . ؟　　من حرفتهم ضرب الـزند

* * *

لبنى « سوريا » أضـــداد　　فقر ، جهل ، واستبـداد
لكن فى البعض استعـداد　　ليطير على جنح « الوند» (٩)

* * *

يكفيكم شبان اليـــوم　　كسلا وغطيطاً فى النـوم
قومـوا للشغل وللصـــرم　　هذا من وعظ «بلى صندى» (١٠)

أما القصيدة الثانية ، فهى لمسعود سماحة (١٨٨٢ — ١٩٤٥) ، ومطلعها :

مجد تنـــوء بعبئـه الأيـام　　وتفوُّقٌ تعنـــو لـه الأعوم

وقد جاء فيها :

أكرم بـ « لندى » قسوراً متفرداً　　يحتفه الإجـلال والإعظـام
فى نفســه عزم ، وبين ضلوعه　　قلب كبير ملؤه الإقـــدام
لم يعـرف التـاريخ فرداً قبله　　مادت له التيجـان وهو غـلام
ما إن يفى قلمى بوصف مغامر　　فى وصفــه تتحطم الأقلام
عَبَرَ المحيط على الهواء ، وخلفه　　موت يود بـه اللحـاق زؤام
عبر المحيط على الهواء ، ودليله　　فى الليل موج زاخـر وغمـام
أنَّى يقلب طرفه يظهر لـــه　　غيم تألَّب حولـه وقتـــام
ضاق الفضا بالخلق يوم وصوله　　وتعالت الأصوات والأعلام
تهوى الرءوس على الرءوس وتتقى الـ　　أقدام حين وقوعها الأقـــدام

يمشي فتتبعــه الألوف كأنــه ... راع لهم ، وكأنهم أنعـــام
فى شكله ولد ، وفى أقوالــــه ... رجل ، وفى أفعـــاله ضرغــام
«لندى» ، على أم رضعت حليبها ... وعلى أب تحت التراب ســـلام
قد أوجداك فأوجدا بك شعلــة ... وضاءة ، كالبدر وهـــو تمـــام
أكرم بجزع فـــرعـــه كأصوله ... إن الكرام بنوهم لكـــرام
حل لك المجد الذى أحـــرزته ... مستبسلا ، وعلى سواك حـــرام
ملك الهـــواء لك الهـــواء مطية ... ولها البخار شكيمة وزمـــام
أحرزت مجداً ليس يخلق ثوبه ... ما كرت الساعـــات والأيـــام
وحلمت بالمجد الرفيع مغـــامراً ... فهوى عليك ، وصحت الأحلام

وأما القصيدة الثالثة وعنوانها « وثبة خيال ، كيف ودع البطل المجنح أمه » ، فمن نظم إيليا ظاهر أبي ماضي . وهي كما سيرى القارئ ، شطحة من شطحات الخيال ، تصور فيها الشاعر ما قاله الطيار لندبرج لأمه بعدما أراها طائرته ، يوم حضرت إلى نيويورك لتوديعه . والحق أن هذه القصيدة التي تذكرنا كثيراً ببعض مقاطع « الطلاسم » ، إنما هي ، كما أظن ، ترجمة لقصيدة بالإنجليزية نظمها الطبيب والأديب النيويوركي فؤاد ميخائيل العقل . ولا أعلم إن كان هذا الطبيب الشاعر قد اشترك بقصيدته هذه في المسابقة التي أشرت إليها أعلاه ، ولكنني أعلم أنه ضمنها مجموعة شعرية من نظمه طبع منها مائتي نسخة ، لم أوفق بعد إلى العثور على واحدة منها لمضاهاة نص القصيدة الإنجليزية بترجمتها العربية . أما ما عثرتُ عليه من هذه القصيدة حتى الآن فهو الرباعية الأولى ، وهي :

My plane is set and waiting there
To do its part, to mount the air
And flout the winds to earn its share
Of honor; let me go, Mother !

ولعل الطبيب الشاعر أهدى نسخة من مجموعته الشعرية إلى أبي ماضي ابن بلدته ، كما أهدي نسخاً منها إلى غيره ، فقرأ هذا المجموعة ، وراقته منها رباعيات الطبيب في اندبرج لمضمونها ولشكلها ، فدفعه هذا الروق إلى

نقلها نقلا بديعاً فى المقاطع الحماسية التالية :

أمى ! . . انظرى طيارتى كالنسر قد بسط الجناحْ
كى تمتطى متن الفضا وتصول فيه على الرياح
المجد مطلبها ، كذلك مطلبى المجد الصراح
إنى سأمضى عن حماك ، فلا تقولى — لا براح . . .
أماه ! . . إنى ذاهب ، فإلى اللقاء . . إلى اللقاء

* * *

إن المحرك تائق مثلى إلى السر المُخَبَّا
الدورة الأولى . . . ويمضى يقطع الآفاق قطعا
ويشق لى بين الكواكب فى الفضاء الرحب دربا
هو بالعُلَى صَبٌّ ، ولست بغيرها يا أم صبا
أماه ! . . إنى ذاهب ، فإلى اللقاء . . إلى اللقاء

* * *

حان المسير عن الحمى ، أماه ما لَكِ واجمَهْ ؟
أفتجزعينَ من الكوارث ، والكوارث نائمه ؟
المجـــد يدعونى إليه ، وقد لمحت علائمـــــه
فى الشاطئ الثانى . . . فقومى ودعينى باسمه
إنى تزودت الرجاء ، وحبذا منك الدعـــــاء

* * *

تبكين ؟ ما سبب البكاء ، وأى خير فى الدموعْ ؟
صونى لآلئ مقلتيك ، فلست أرضى أن تضيع
لا تتركى الإيمانَ تسحقه المخاوفُ فى الضلوع
واصغى إلى صوت الرجاء يقول فى غدِ الرجوع
أمى ! . . اللقاء غداً . . إذن فإلى اللقاء . . إلى اللقاء

* * *

أما إذا خاب الرجاء ، وخاننى ذاك المضاء .

وجميع أحلامي تلاشت واضمحلت كالهبـــاء
وأراد يصرعني القضاء ، ونال مني ما يشاء
فهويت من أوج السماء إلى الحضيض .. إلى العفاء
لا تعولي كالنادبات ، فلن يردني البكـــاء

* * *

أنا إن هلكت ، فليت شعري أي شيء سوف أخسر ؟
ما في الوجود لذاذة إلا وفيها البؤس أكبر
إني وجدت العيش أضغاثاً بأضغاث تُفَسَّر
والموت آخرة الفتى ، ولو انه كالنسر عَمَّر
وكَمَنْ تَقَدَّمَ مَنْ تَأَخَّر ، والبقاء كلا بقاء !

* * *

فإلامَ أخدع بالمنى نفسي ، وأصدقها جَهَامْ ؟
وأعيش أكدح كالبهيمة للحصول على الطعام ؟
وأعود آكل كي أعيش ، ومنتهى العيش الحمام ؟
هذي الرواية لا بدايتها تطاق ولا الختام
إن لم نكن قتلى الصباح ، فنحن من صرعى المساء

* * *

مثـــل اللوالب في المحـــرك لا تني تتذبـــذب
أمي ! . . أنحن الناس أم تلك اللوالب أعجب ؟
تبغي النجـــاة لنفسها منه ، وأين المهـــرب ؟
تمتص منه غازه ، كيما تدور وتَشْرَب
وتدور كي تمتصه ، فالمنتهى كالابتـــداء

* * *

إنّا نواصل سيرنا دون اعتراض أو ســـــؤال
ونظل منطلقين نركض خلف أخيلة المُحَـــال
حتى ونحن نرى المصير إلى همود وانحـــلال

ونشاهد القدر الغشوم يسوقنـا نحو الوبـال
كالريح تدفعنا كما شاءت ، وليس كما نشاء

* * *

أيكون، يا أمي، المصير كذا، وأرضى أن يكـون؟
وأبيت أجنح للسكون ولا نجاة مع السكـون
والهاربون من الحمام إليه منـه يهـربون ؟
لو كانت الديدان ، يا أماه ، تحتقر المنـون
لرأيتها مثل النسور تجول فى عرض الفضاء

* * *

أمى ! . . اخبرينى أين بى ترسو السفينة فى غد ؟
أتَؤُمُّ ميناء الرموس الصامتات الهُمَّد ؟
خير إذن يا أم لى ، ما دام أمرى فى يدى ،
أن يحطم الأنواء فلكى فى الخضم المُزْبِد
وتغيب قبل وصولها ، وأغيب فى نور ومـاء

* * *

فلعل طائفة من الأسماك تأكلنى وتسمـن
ويصيدها مسترزق طاوى الحشى ضاوٍ فيسمن
أو تشتريها غـادة منـه وتأكلها وتسـمن
فيظل دولاب الحياة يدور ، ياأمى ، ويطحن
هذا أَحَبُّ إلىَّ ، يا أمى ، وأَكْفَلُ للنماء

* * *

وكذا أُوَفِّرُ ذلك الجزء الذى يُدْعى الضريحْ
لسواى . . ياأمى ، لعل سواى فيه يستريح
لتكن لغيرى الأرض خالصة ، ولى البحر الفسيح
لا دود فيه كاللحود ، وليس تفسد فيـه ريح
فأنام فى كفن من الأمواج أو كفن الضياء

* * *

ليكن هنالك مأتمى ، إن لم يكن بين الغيوم
فترتل الأمواج من حــولى ، وتستمع النجــوم
ويكون دَفَّانى إله البحر « نِبْتُون » العظيم
وكذاك أنجو من صلاة القس والوعظ السقيم
وأصون من دمع الأسى مقل العذارى والنساء

* * *

أمى ! . . وداعاً حان أن أمضى وأجتاز التخوم
فالبحــر منتظر يسائل فى الدجى عنى النجــوم
إن لم يصفق فى غدٍ ، ويهنئ النسر العظيم
فلسوف يحنو موجــه منى عــلى بطل كريم
أمى . . وداعــــاً والســــــلام !

الحواشى

(١) كركند : هو الموسيقار المهجرى نعيم كركند ، نائب رئيس « نادى الموسيقى العربية » الذى تأسس فى مدينة نيويورك عام ١٩٣٣ .

(٢) كاز : وقود الطائرة .

(٣) مازا : كلمة عامية فصيحها « مزة » (بتشديد حرف الزاى) ، وهى ما يؤكل على الشراب من نقل وكامخ ونحوهما .

(٤) بارى : العاصمة باريس .

(٥) بكس الكندى : كلمتان إنجليزيتان معناهما « صندوق الحلوى » .

(٦) مندى : كلمة إنجليزية معناها « يوم الاثنين» .

(٧) موسولينى : رئيس وزراء إيطاليا الفاشستى ، حكم ما بين ١٩٢٢ و ١٩٤٣ . غندى : هو المجاهد الهندى الذى دعا إلى المقاومة السلمية ، قتل ١٩٤٨ .

(٨) دندى : كلمة إنجليزية معناها « متأنق » .

(٩) وند : كلمة إنجليزية معناها « الريح » .

(١٠) بلى صندى : هو « وليم أشلى صاندى » ، مبشر إنجيلى أمريكى اشتهر بعظاته ، توفى ١٩٣٥ .

(١٢) الهجاء فى أدب المهجر

تناول الدارسون لأدب المهجر فى دراساتهم خصائص هذا الأدب العربى الحديث ، كما تناولوا فنونه وأغراضه ، وأغفلوا ، وربما كان لهم العذر فى ذلك ، فنًّا مهمًّا ، فى هذا الأدب هو فن الهجاء . ولعل مرجع هذا الإغفال هو اعتماد هؤلاء الدارسين على النتاج المعروف المتداول من أدب المهجر ، وفى مقدمته الدواوين الشعرية ، هذا النتاج الذى اقتصر على ما أراد أدباء المهجر له البقاء والانتشار من نتاجهم دون غيره . وكان من أثر ذلك أن امّحى كل أثر لفن الهجاء فى أدب المهجر ، وكأنه لم يكن ، وإن بقى منه شىء فى النتاج المعروف المتداول لهذا الأدب ، ففى صورة لا تمت إلى الهجاء بصلة ، ولا تنم عليه .

نقرأ مثلا للشاعر المهجرى إيليا ظاهر أبى ماضى فى « الجداول » قطعة عنوانها « العير المتنكر » ، يقول فيها :

زعم المؤدب أن عيرًا ساءه	ألا يسار به إلى الميدان
فمضى فقصرت القواطع ذيله	وسطت مواضيها على الآذان
حتى إذا جاء المروض واعتلى	متنيه راب الفارس الكشحان
لكنه ما زال غير مصدق	حتى علا صوت كصوت الجان
فاستل صارمه فطاح برأسه	ورمى بجثته إلى الغربان
مادام يصحب كل حى صوته	هيهات يخفى العير جلد حصان

نقرأ هذه الأبيات ، ثم نتمعن فيها ، فنراها أبياتاً فى الحكمة ، ساقها لنا الشاعر فى صورة مثل ، وإن جهلنا المناسبة التى أوحت إليه بها . ونراها كذلك ، على ما يظهر لنا ، أبياتاً هادئة لم تصدر عن سخط وغضب ، ولا تهدف إلى التعيير أو إلى الجرح والإيلام . أما تاريخ نظمها ، وإن عجزنا عن تحديده بالضبط ، فتقريبه ممكن . فهو لابد أن يكون الفترة الأمريكية

الثانية للشاعر ، أي ما بين ١٩١٩ (تاريخ نشر « ديوان إيليا أبو ماضى ، الجزء الثانى») و١٩٢٧ (تاريخ نشر « الجداول ») .

هذا ما نستشفه من هذه القطعة بسهولة ويسر ، فى حين أن الحقيقة التى لا يمكن أن تخطر على بالنا غير هذا . فما هذه الأبيات إلا أبياتاً ستة اقتطعها أبو ماضى من قصيدة طولها ٥٢ بيتاً، عنوانها غير عنوانها فى « الجداول » ، نظمها فى فترته الأمريكية الأولى ، أى ما بين ١٩١١ و١٩١٩ ، وكانت خاتمة قصائده فى مناظرة هجائية . وإليكم القصيدة :

يا نوح

أين دلائل الطوفان ؟

أهـــل الفساد وزمـــرة الشيطان ... كم تدعون محبـــة الأوطـــان

خلوا النواح على الربوع وأهلها ... ما ثم من خطر على « لبنان »

أنى يضيع ، وأهله أسد الشرى ... وله من الدولات خير ضمـــان

وإذا الضراغم لم تصن أجمـــاتها ... أيصونها فَسْلٌ من الجِعْلان ؟

أما « البقاع » فلا يُرَدُّ بألسن ... ثرثارة ، بل بالنجيع القـــانى

ردوا على الشعب المهاجـــر ماله ... لا تبدلوه حقـــائقا بأمـــانى

فالقـــوم حاجتهم إلى أمـــوالهم ... مثـــل احتياجهـــم إلى العـــرفان

تعس الذى رضى الأمـــانى ثروة ... إن الأمانى ثـــروة الكســـلان

* * *

قلتم : نذود الضيم عن إخواننا ... إخـــوانكم فى غبطة وأمـــان

يحميهم علم النجـــوم ولم يزل ... علم الكواكب مكرم الضيفان

هم بين أهليه وفى أكنافهم ... وكأنهـــم فى الأهل والإخـــوان

وزعمتم بالنـــازحين غرامـــكم ... وغرامكم بالأصفـــر الرنـــان

لو صح زعمكم وكنتم قـــوة ... لوقيتموهم سطـــوة « العبدان »

جاروا عليهم ، لم يبالوا زاجراً ... جور القوى على الضعيف العـــانى

لهفى عليهم كيف روع سربهم ... وتبدلوا من عزهم بهوان
ولقد أتتكم صرخة استنجادهم ... فكأنها مرت على حيطان
باتوا يسامون العذاب وبتم ... تدعون بالإعزاز للسلطان
نمتم فخلتم كل طرف نائماً ... ما أجهل الوسنان باليقظان
رفع الستار ، وبان كل مكتم ... أتقاتلون الحق بالبهتان ؟
لا غرو إما سبنى سفهاؤكم ... إن الجريح يسب كل سنان
ذم الخفافيش الضياء لأنه ... يعتاق أقواها عن الطيران
ومن العجائب أنها تقلى السنى ... وتظل حائمة على النيران
خلق الورى ، ولكل نفس غاية ... وخلقتم للهذر والهذيان
أنى نجاتك يا عصافير اللزى ... ولقد أتاك كاسر العقبان

* * *

قل للذى ملأ اليباب سفائنا : ... يانوح ، أين دلائل الطوفان ؟
من ذا يسير بها إلى غاياتها ؟ ... بل كيف تحميها من القرصان ؟
الآن أيقنت البرية أنها ... — وإن ارتقت — فرع من السعدان
لا تعذل الصبيان فى سخف ، فقد ... تحوى الكهول سخافة الصبيان
يضع المسلم كفه فى كفه ... وتظل عيناه على الهميان
والله لولا أنه فى مثله ... ماكان إلا سائق الأظعان
أوما تراه حاملا كشكوله ... متنقلا من موضع لمكان
خبلته شاردة القوافى فانثنى ... للذعر يمشى مشية السرطان
متخبط والشمس فى كبد السما ... فكأنه فى حالك الأدجان
أمسى يسمى الناثبات قصائداً ... وفتى القصائد طارق الحدثان
فإذا تطيف به اقشعر فؤاده ... خوف الصغير طوائف الغيلان
ويظنها فى أكله وشرابه ... وتخالها الأجفان فى الأجفان
ياقوم ، أخشى أن يضيع رسولكم ... من « عنزة » قد ضاع قبل اثنان
إن كان فى أكبادكم من رحمة ... فتداركوه بالرسول الثانى

* * *

ما بال مصفوع المفارق والقفا ... يهذى ، كمن قد بات فى سجران
لا تحسدا ، يا أخدعيه ، قذاله ... عندى لكل منكما نعلان
بل ما لمقلوب اسمه يخفى اسمه ... والحسن لايخشى من الإعلان
إن التحجب لو يكون فضيلة ... لم يَبْدُ من خدريهما القمران
وإذا هتكت الستر عن متكتم ... لم تلق إلا خائفاً أو جانى
زعم المؤدب أن عيرًا ساءه ... ألا يسار به إلى الميدان
فمضى فقصرت القواطع ذيله ... وسطت مواضيها على الآذان
حتى إذا جاء المروض واعتلى ... متنيه ، راب الفارس الكشحان
لكنه مازال غير مصدق ... حتى علا صوت كصوت الجان
فاستل صارمه فطاح برأسه ... ورمى بجثته إلى الغربان
مادام يصحب كل حى صوته ... فالعير لا يخفيه جلد حصان
إن تستتر هيهات تستر مفرقًا ... آثار شسعى فيه كالعنوان
يأيها الغر الذى من أجله ... لعن القريض مؤلف الأوزان
ما أنت بالغ ما وطأت بأخمصى ... حتى تنال الفرقدين يدان

ونحن لا نعلم الأسباب الحقيقية أو الدوافع النفسية التى دفعت الأدباء المهجريين ، وأبا ماضى منهم ، إلى إهمال مثل هذه الأهاجى التى قدحوا قرائحهم فى تأليفها أو فى نظمها ، و إلى إسقاطها من حسابهم .

لعلهم فعلوا ذلك ظنًّا منهم أنها ليست من الأدب الإنسانى العالمى الذى يراد له البقاء ، بل من الأدب الوقتى العابر المحدود الذى لا يحمل رسالة ، ولهذا يجب أن تزول بزوال الزمن التى كتبت فيه ، وبزوال الأسباب التى دعت إليها .

أو لعلهم تعمدوا إسقاطها — برغم ما فى بعضها من إبداع وطرافه — لأنها تحتاج إلى مقدمات وإيضاحات ، بدونها لا يستقيم تفهمها ويساء الحكم عليها ، وهذه المقدمات والإيضاحات ، مهما كان نفعها ، لن تؤدى فى النهاية إلا إلى فتح جروح اندملت ، وإشعال نيران خمدت ، وتجديد معارك هدأت .

بل لعلهم تبينوا ، مع مضى الوقت ، أن هجاءهم كان أكثره نتيجة التسرع وسورات الغضب ، والإنسان فى تسرعه كثيراً ما يزل ، وفى غضبه أبشع ما يكون ،

فرجعوا عما قالوه ، وندموا على ما كتبوه ، وأرادوا لأهاجيهم أن تبقى مجهولة حتى لا تتلطخ الصورة الجميلة التى احتفظ لهم بها المعجبون بهم ، إذ قد يكون فى تلطيخ هذه الصورة ما يفقد فلسفتهم قيمتها .

أو لعلهم صفحوا وعفوا حقًّا عما جرى ، فتغاضوا عن هذا النتاج ، وأسدلوا ستار النسيان عليه .

على أن إهمال الأدباء المهجريين أنفسهم لنتاجهم الهجائى ، وتغاضيهم عنه ، وتناسيهم إياه ، مهما كانت أسبابه ودواعيه ، لا يدعونا نحن بالتالى إلى إهمال هذا النتاج أيضاً ، بل يجب أن نجمعه ، لأسباب تاريخية وأدبية ولغوية ، قبل أن يضيع ويندثر ويصير إلى ما صارت إليه الكثير من النصوص ، مما سبب تعثراً فى دراساتنا . ثم لا يجب أن يرجعنا هذا التغاضى للأدباء المهجريين ، عن دراسة الهجاء عندهم . فكما درسنا الحنين والوطنية فى أدبهم ، وكما درسنا الطبيعة والحب والحيرة والتساؤل ، وكما درسنا التأمل والتصوف والتفجع وغيرها من الموضوعات ، آن لنا أن ندرس فن الهجاء فى أدبهم . إذ بدونه لا تكمل دراسة الأدب المهجرى ، وتظل الصورة التى رسمتها لنا هذه الدراسة ، للفرد المهجري ومجتمعه ، صورة مشوهة بعيدة عن الحقيقة . فنحن نرى — كما رأى محمد محمد حسين من قبل ، فى كتابه « الهجاء والهجاءون فى الجاهلية » — أن « فن الهجاء من أكثر فنون الشعر اتصالا بالحياة وبالواقع » . ثم إن الهجاء — كما ذكر سامى الدهان أيضاً فى كتابه « الهجاء » — « سوق رائجة منذ القديم ، وفن مطروق منذ فجر الأدب الغربى ، لابد من البحث فيه ، ودراسته على أنواعه وأقسامه . . . إن الهجاء فن من فنون الأدب الرفيعة فى الأدب العربى ، قد يعين على تصور الحياة عند الأفراد وفى المجتمع ، وقد يساعد على تأريخ الحياة العربية حين يصدق الشاعر . . . وهو على ذلك يحوى ألواحاً من الصور تضاف إلى الآداب الإنسانية فى القديم والحديث ، فتُغنى متحفَ الهجاء فى الأدب العالمى ، وتكسبه روعة لا تقل عن روعة الآداب الأخرى ، إن لم تزد عليها وتبزها وتسبقها إلى ميادين النبوغ والعبقرية والإلهام » .

فإذا أضفنا إلى هذين القولين قول جورج صيدح : « بأن كل ظاهرة فى أدب

المهجر تتوافر أنت على تحليلها وتعليلها تغنم منها درساً عن الجانب الخفي من أوضاع الأدباء ، وتكسب خبرة تعينك على التأليف عن نفسيتهم ، وعقليتهم ، ونزعاتهم ، وخصوماتهم ، لا عن أدبهم وفتوحاتهم فحسب . إن لهم مباذل كما لهم مطارف ، وأدبهم حلية ذهبية بهرتنا بلألائها ، فعمينا عما في جانبها الخافي من القصدير والتنك . والآن بعد أن تواترت الدراسات عن وجه الحلية المتألق ، أصبح من الجديد المفيد دراسة ظهرها الصدئ » . إذا أضفنا هذا ، تبين لنا أهمية دراسة الهجاء في أدب المهجر .

فستربنا هذه الدراسة نشأة هذا الفن ومسوغاته في المهجر ، وسترينا الأزمات التي كانت تعصف بالمجتمع العربي الصغير في غربته ، كما أنها سترينا الصراع والتطاحن المستمر الحاد الذي بقي يعيش فيه المهجريون ما بقيت لهم تكتلات على اختلاف أشكالها وأغراضها ، وما بقي هناك كتاب وشعراء يدافعون عن هذه التكتلات على صفحات الجرائد المهجرية المختلفة . هذا من الناحية التاريخية .

أما من الناحية الأدبية ، فسترينا دراسة الهجاء في أدب المهجر مثلا ، مدى المقدرة الشعرية التي كانت لبعض الشعراء المهجريين . فقد أجاد بعضهم في فن الهجاء إجادته في الفنون الأدبية الأخرى ، وإن جهلنا نحن حتى الآن هذا الأمر ، الذي كان له صداه بين معاصريهم .

طالع « معجب » قصيدة من قصائد أبي ماضي في الهجاء – هي أبلغ وأقوى ما نظمه هذا الشاعر في هذا الفن – فكتب : « على أني أقدر أن أقول إن القصيدة التي ظهرت في « المرآة » منذ عهد قريب بلا توقيع ، سيكون حظها من الخلود كبيراً لما فيها من السلاسة والرقة وأداء المعنى المبتكر بلا تكلف ولا تعسف ، مما يشهد لناظمها بالمقدرة على التصرف بالمعاني والألفاظ كما يشاء .

إن تلك القصيدة ستخلد ، وإن كان صاحبها على ما يظهر من تكتمه لا يود لها الخلود . فإن بقاء القصيدة أو زوالها لا يتوقف على رغبة ناظمها ولا على رغبة سواه ، ففيها من الأبيات ما يصح أن يستشهد به الناس في كل زمان ومكان . . .

وقد كنت من قبل شديد الإعجاب ببيت المتنبي المشهور :

لا يقبض الموت نفساً من نفوسهم　　إلا وفي يده من نتنها عـــود

ولكنى اليوم أشد إعجاباً بهذين البيتين الجامعين فى وصف نفس الذى كنى الشاعر عنه ، « الأخطبوط » :

وإن تكن نفسه فى الجسم باقية فإنما خبثها فى الجسم أبقــاها
فإن « عزريل » يخشى أن تدنسه والأرض إن أصبحت فى الأرض مثواها

وهكذا كلما دقق المطالع النظر فى هذه القصيدة البليغة ، يجد أن كل بيت من أبياتها يصلح للتمثيل به فى حالة من الحالات العامة ، أو موقف من مواقف الحياة اليومية . . .

ربما كان اللذان قيلت فيهما هذه القصيدة يتمنيان لو بقيت سرًّا مكتوماً فى صدر الزمان ، وربما كان ناظمها يتمنى لو لم يكن ذانك الشخصان فى الوجود لكى لا تكون له هذه القصيدة ، ولكن أنا والذين يقدرون الشعر الجيد قدره نعتقد أنها « من حيث الفن » طرفة لا يسمح الدهر بمثلها إلا نادراً . وأخشى إذا بقى ناظمها مجهولا أن يدعيها سبعمائة شاعر لا سبعون فقط » .

أما من الناحية اللغوية ، فلا شك أن جمع النتاج الهجائى ، كأثر أدبى ، سيساعد على توسيع مادة القاموس اللغوى للأدب العربى فى المهجر ، لمن يريد حصر مفرداته ، والتعرف على معانيها المختلفة ، وكذلك على تتبع تطور استعمال الألفاظ فى العربية عامة .

بقى « بعد ما تقدم » أن آمل أن أكون قد وضحت توضيحاً كافياً أن هناك مسالك غير مطروقة فى دراسة الأدب المهجرى أولى بأن تطرق من التكرار المعهود فى دراستنا .

(١٣) الكلاب فى أدب المهجر

(١)

تابعت بإعجاب طرائفكم عن « الأدب والكلاب » ابتداء بعدد أبريل الماضى ، حتى جاء الحديث عن « الكلاب فى شعر المهجر » فى عدد أغسطس . وهنا أحب أن أصحح خطأين وردا فى « رواية جورج صيدح » المنشورة ص ص ٥٤ :

١ — إن الأبيات السبعة الأولى المذكورة ليست لإيليا أبى ماضى ، كما جاء فى « الأديب » ، وكما جاء أيضاً فى كتاب صيدح « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية » (ط ٣ ، ١٩٦٤ ، ص ١٦٤) ، وإنما هى لنسيب عريضة (١٨٨٧ — ١٩٤٦) ، من قصيدة هذا نصها :

خليانى بلوعتى وانتحـــــابى	ياخليلى ، فقد فقدت صوابى
ما أرا أسلو « فنى » وهواها	فدعانى ، ولا تطيلا عــذابى
عضها الدهر بعدمـــا عضت النا	س ، وقامت بحق حفظ الحجاب
كم فقير أتى ليشحذ قـــوتاً	حــرمته « فنى » الوقوف ببــابى
وغريم قد جـــــاء يطلب مالا	تـــــركتـــه معفراً فى التراب
وشقى أتى ليسرق شيئـــــا	غـــادرته ممزق الأثـــواب
رحمة اللحم والعظام عليها	وصلاة الصحون والأكواب
فارقتهـــا وطالمـــــا لحستها	وكستها غلالـــة من لعـــاب
غفر الله ذنبهـــا كم توارت	للقـــاء العشاق بعد الغيـــاب
وأتت الصباح تهتز غنجـــاً	غضة القـــد والصبا والإهاب
فى زوايا العينين منها بـــريق	غامض مثل شعلة فى الضباب
ثم لما رأت تجهم وجهـــى	ودرت تحتـــه كلام العتــاب
أقبلت تلحس اليدين وتـــرجـــو	رحمة أو هوادة فى العتـــاب
غفر الله ذنبهـــا ووقـــاها	حر نار الجحيم ذات العذاب

فهى خير من الأنـــام وأوفى — من «سعاد» و«زينب» و«الرباب»
لم تكن تحلف اليمين لمـين — أو تعالج نميمـة لاغتيـاب
لم تصانع ، ولم تخادع صديقاً — أو تقابل ذا منـة بالبـاب
لم تخامر فى الود يوماً لتخفى — بجميل الكلام طبع الذئاب
ما سعت لاكتساب مال وجاه — بخداع وسرقـة واغتصاب
ولو ان الإلـه كان يجازى — مثل نسل الأنـام نسل الدواب
لحباها النعيم تختال فيـه — بين حور وولـدة أتـراب
تأكل البقسماط يغمس بالشهـ — ـد ، وتعطى ما تشتهى من كباب

* * *

« صاح هذى قبورنا تملأ الرحـ — ـب » ، فأين اختفت قبور الكلاب ؟
أوَ ليس الكلاب أكثر وداً — ووفـاء من شيبنا والشباب ؟
أوَ ما للكلاب حرمة موت ؟ — أوَ ما للكلاب حق الصحاب ؟
يا « فى » ، قد حرمت قبراً ولكن ، — ستعـودين مثلنـا للتراب
وثرى الناس ليس أفضـل جنساً — من تراب الكلاب عند السحاب
فسقتك الدموع منى ، وروّ — لك عيون السحاب بالتسكاب

٢ ـ إن الأبيات الستة الثانية ليست لأبى ماضى أيضاً ، كما جاء ، وإنما هى لفيليب كاتسفليس ، شقيق وليم ، الذي كان له صديقة اسمها « فى » ، وذلك حسب ما جاء فى كتاب صيدح السابق ، وكما هو واضح من نص البيتين الأخيرين .

أما أبو ماضى نفسه ، فقد رثا فعلا الكلبة « فى » بموشح فى منتهى الطلاوة ، ظهر فى « السمير » ، وهو ممهد بالمقدمة الآتية :

«كان لصديقنا «وليم كاتسفليس» كلبة اسمها « فى » ، رباها فأحسن تربيتها ، فترعرعت تحت سماء « هوليس » بـ « لونج أيلاند ، بولاية نيويورك » ، ذكية وفية ، لا تنبح غير اللص الطارق ، فكأنها تشم ضمير السارق .

كانت تشيع صاحبها عند خروجه من المنزل إلى الباب ، وتستقبله إلى نصف الطريق عند الإياب ، فتشمه حتى تكاد تضمه ، وربما تمرغت بالتراب عند قدميه ، من فرط الحنين إليه .

هذه المخلوقة الأمينة التى ألفت المنزل حتى صارت لاتفارقه، وعرفت فضل صاحبها فلم تخرج عن طاعته لحظة ، أصابها داء عياء ، لم ينجح فيه دواء، أقعدها عن الهراش ، فماتت على الفراش ، فجل الخطب بها فى مملكة ذوات الأربع.

ولما طار النعى ، شعر الأصدقاء أن عليهم واجباً نحو « وليم » ، فنظموا هذا الموشح المعلم . وإن الصديق ليعطف على الصديق إذا اختطف سارق بردته ، أو أطارت الريح قبعته ، فكيف إذا اختطف الموت كلبته — وكانت مثل « فنى » فى الجمال اليوسفى » .

ماتت « فنى » أم البنين ... فلا « وليم » طـــول البقاء
قل للكواكب تســـتكين ... فلقد مضى معها العـــواء

* * *

ذهبت وفيهــــا للغـــرا ... م بقيـــة والعمـــر غض
وطوى الثرى ذاك القـــوا ... م عن النـــواظر وهو بض
ما عضهـــا صرف الحمـــا ... م ، لو أنـــه شىء يعض
هيهـــات ما الدمع السخين ... ليفى « فنى » حق البكـــاء
ساد الأسى فى العـــاشقين ... وأمضَّ « وليم » ذا اللّـــواء

* * *

قد كان يبسم كلمـــا ... ذكروا « فنى » وجمالهـــا
واليوم يبكى عندمـــا ... إذ يذكرون خصالهـــا
ويكاد أن يستسلمـــا ... إذ يجتـــلى أنجالهـــا
يا أيها البـــاكى الحزين ... ماذا استفدت من البكاء ؟
انظر إلى جيش البنـــين ... وتَعزَّ عن أم الجـــراء

* * *

نخشى إذا طـــال الأسى ... من روعة المـــوت الخؤون
ألا يطيف بك المســـا ... إلا وأنت إلى الجنـــون
فاصبر على البـــلوى عسى ... ما نتقيـــه لا يكـــون
يا صاحب القلب العجين ... الحزن نار لا ضيـــاء

بالنفس إن تك تستهين لا تستهن بالأصدقاء

* * *

بجرائها ، برفاتها خلّ التفكر بالرزيه
أوصتك قبل وفاتها يا صاحِ ، فاعمل بالوصيه
أن تعتنى ببناتها وتصونهن من الخطيه
وبنجلها البكر السمين ألا يعاشر أردياء
اربطه بالحبل المتين واطعمه لحمًا لا حساء

* * *

وعلى الصغار القصر بعدى أقمتك ، موضعى
فارفق بهم وتبصّر واعطف كعطف المرضع
اختنهم أو طهر بالماء أو بالمبضع
سران إن السر « سين » موصولة أبدا بـ «راء »
أنا من وجوه العابسين ومن الألى عبسوا بسرّاء

* * *

الدهر يمتحن الفتى ليرى رجاحة لبه
فيخونه متعنتا فى هره أو كلبه
فاهزأ بدهرك إن عتا كيما تفوز بغلبه
ولأنت ذو خلق مكين راس كطود فى الفضاء
كن قدوة للبائسين الناقمين على القضاء

* * *

قد ماد « رَضْوَى » واضطرب جزعًا على ذات المخالب
فالحزن فى أرض « العرب» والنوح فى أرض المغارب
والدمع يهطل كالقرب من أعين الشهب الثواقب
والكونُ أَجْمَعُ — كالطعين فى الحرب — يشخط بالدماء
والأُسْد تزأر فى العرين مجروحة فى الكبرياء

* * *

اليـــوم إن جن الدجى لاتسمع الآذان « عـــوّ »
وخبت مصـــابيح الرجـــا فلا يفيدك قـــول لـــو
لا صوت يهدى المدلجـــا ليـــــلا ولا فى الحى ضو
ياصاحِ ، لا تَكُ كالذين قنطوا فليس لهم رجـــاء
كن واثقـــًا كالمؤمنين بعد المنيـــة باللقـــاء

(٢)

حظيت النعال مؤخراً باهتمام شديد ، حتى بلغ ما نشرته « الأديب » الغراء « من أدب النعال » ، منذ سبتمبر ١٩٦٩ حتى الآن — حسب إحصاء محمود الحسنية — ٣٦ مقالا ، يضاف إليها مقاله (راجع «الأديب » ، مايو ١٩٧٤ ، ص ٣٨) .

أما الكلاب ، هذه الحيوانات العجماء ، فلم تحظ بعد بمثل هذا الاهتمام منذ شرع كتاب « الأديب » فى ولوج هذا الباب .

واليوم أعود ، تاركاً جانباً « باب النعال » ، طارقاً ثانية « باب الكلاب » (راجع « الأديب » ، نوفمبر ١٩٧١ ، ص ٥٠ ، ومارس ١٩٧٢ ، ص ٥٩) ، آملا أن تفتح مجلتنا هذا الباب من جديد ، بعد أن اضطرت إلى إقفاله « إلا — كما وعدت فى عدد أغسطس ١٩٧١ ، ص ٥٤ — إذا كان الموضوع مجهولا ، ومن الأدب المعاصر » .

والقصائد الأربع التالية التى أنقلها اليوم إلى قراء المجلة الأعزاء ، قصائد مجهولة ، ومن أدب المهجر ، فيها من الطرافة والإبداع ، ومن الفكاهة والبلاغة المقرونة بالحكمة ما يشفع لها بالرواية وبالنقل . الثلاث الأول منها لأسعد رستم ، والرابعة ، « حكاية » ، لإيليا ظاهر أبى ماضى .

الرجل والكلب

ورب امرئ أحنت يد الفقر ظهره ... ذليلا بأسواق المدينة جـــالا
يجد وراء الرزق لكن وراءه ... صغار وأم صـوتهم يتعـــالى
يمر به أهل الوجــاهة والغنى ... عليهم كالشمس الحلى تتـــلالا
فيسألهم قوتًا لـــه وولده ... ولا أحد منهم يجيب ســؤالا
وقد أرجف البرد الشديد عظامه ... ولكن رست فيه الهموم جبـــالا
يقاتله صرف الزمان ، وجسمه ... عديم القوى لا يستطيع قتـــالا

* * *

ومرت لديه مركبات تجرهـــا ... جياد تجارى الراكبات دلالا
بدور تجد السير لكن جـــوالس ... يفقن على البدر التمــام كمالا
فأبصر أنثى بينهن وكلبهـــــا ... بجانبهـــا يهـــنا وينعم بـــالا
تقبله طورًا وطورًا تضمـــــه ... إليها بشوق يمنـــة وشمـــالا
كأنهما إلفـــان طاب لقاهما ... وبينهما عهد التفرق طـــالا

* * *

ففكر هذا فى تعاســة حالـــه ... وأدرك أن الكلب أحسن حـــالا
فعاد على أعقابه وهو لاعن ... زمانًا غدت فيه الكلاب رجالا !!

هو يسبح وهى تنبح

كان يومًا ثلاثة من كلاب الـ ... ـحى فى الساحة الفسيحة تمـــرح
جمعتهـــا هناك ليلة فصل ... يورق الغصن فيه ، والطير يصدح
ليلة فى الربيع مقمـــرة قـــد ... لاح فيها فى أفقه البدر يسبح
أخذت تنظر الكلاب إلى البد ... ر ، فتملا الفضاء غيظًا وتقدح
تتمنى إلى العــــلاء سبيـــلا ... وبأبصارهـــا إلى البدر تطمح
إنما البدر ما أساء إليهـــا ... ولها من مكـــانه ما تزحـــزح !!

وبتلك الكلاب قد مــر كلب رابع جاء كى يشير وينصح
بصبص الذيل للـــرفاق وحيا ها ، فأعطته بينهـا خير مطرح
عقدت معه بعد ذاك اجتماعاً كلها باعتقاده فيــه صــرح
قال كلب : يا إخوتى ، ذاك بدر فى سما المجد والكرامة أصبــح
مالك مــرسح الكيــان بعز وهو فيه هائم « المجرة » ينطح.
وإليه الأبصــار تشخص والأفـ ـواه عن حسنــه تقول وتشرح
قال كلب : ونحن ننتظر اللقمة ممـن بها :يجود ويسمـــح
نقرع البــاب ، ثم نطــرد منه باحتقار ، فيا ترى كيف ننجح ؟
قال كلب : إذن ،وما الذنب ذنب الـ ـبدر حتى بشتمــه نتطـــوح
ثم قال الكلب الأخير وقد كـ ـشر عن نـــابه الكبير المقرح :
إن هذا النباح ليس يضر الـ ـبدر تأثيره ، ولا هو يجـــرح!
إنمـا بالنباح نسمع شخصاً غيره ، شأن من أشار وألمــح
وبه نقلق الأنـــام فيرمــو ن لإسكاتنا عظماً ، فنربــح !

* * *

ظل الأفق يسبح البدر بالعز وظلت تعوى الكلاب وتنبح ! !

ذنوب وأذناب

على الشارع اليوم صادفت كلبا إلى ، بعين الرجــاء نظر
وقفت ، وقد كنت مستعجلا فقلت بنفسى لــه : ما الخبر ؟
فقال، على صمته نـــاطقاً ، يخاطبنى بلسان البصـــر :
سلام. فقلت : ومن أنت ؟قال : أنا هو كلب الورى المحتقر
وما اسمك ؟ قال : أناهو «فيدو» الأمين على الصـــاحب المعتبر
أهبهب حول البيوت نهــاراً وليلا ، لأنذركم بالخطـــر
ألاعب بالــركض أولادكم فأحمل عنكم بعض الضجر
وأحرسكم ، فلكم من غريب هجمت عليه كليث كسر

على أنكم تنظـــرون إلىّ بعين احتقـــار وعين حذر
يعيّر بعضكم البعض بـــاسمى وذلك يملأنى بـــالكـــدر
ونحن كلابٌ شعورٍ وفهـمٍ فلسنا حميراً ولسنـا بقـــر
بخلتم علىّ — وأنتم عظـــام — ببعض العظـام وبعض الكسر
ولست أعض أخى مثلكـــم ولا أنـا أسعى له بـالضرر
أيضربنا بعضكم بالعصـا ؟ ويرشقنا بعضكم بـالحجر ؟
أهذا من العدل ، يا سيدى ؟ أهذا الذى منكم ينتظـر ؟
فأشفقت من كل قلبى عليـه وطبشت مدحًا له فافتخـر
وسرت به نحو بيتى سريعًا وباللحم أشبعتـه والثمـــر
وبعد أن انتعشت نفســـه ونور السرور عليـه ظهـر
تحرك للشكر منتفضـــا وهز لى الذيل والمختصـــر
أرى أن هـز ذيول الكـــلاب لأصدق من هز أيدى البشر

حكاية

ربيت كلبًا صغيـــرًا وكـان ذلك نـــذرا
وقلت : يحـــرس دارى إذا أتى اللص ســـرا
فكنت آتيـــه صبحًا باللحم ، والشحم عصـــرا
حتى إذا اجتـــاز ستًا من الشهـــور وأخرى
وأشبه الوعـل ســـاقًا وأشبـه البغل ظهـــرا
وصار كالعلج عنْقـــًا وصار كالفيل صـــدرا
وافى إلىّ صحـــابى وأنت بالصحب أدرى
فأبصروا الكلب عنـدى عينـاه تقدح جمرا
فقال منهم ظـريف : قنوت والله مهـــرا !
بجـرمة البـود إلا سميت الكلب « نمـرا »

* * *

أطعت أمـــر صديقى   وقد سررت وســرا
لكنمــا الصفـــر صفر   وإن دعـــونـــاه تبرا

* * *

ترعرع الكلب « نمـــر »   فصـــار أعظم شــرا
يعوى إذا الناس نـــاموا   فيسمع النـــــاس نكــرا
وينبح البـــدر ليــــلا   وينبح الشمس ظهـــرا
وكلما مــــــر سارٍ   أوهبت الــريح هــــرا
ويتبــع الضيف حـــتى   إذا اســـتقر استقــرا
ويترك العظم ملـــقى   ويسرق الخبز جهـــرا
فـــروّع النشء حتى   مـــا تطلب الـــدار ذعـــرا
ونفــــر الطير حتى   ما تألف الــــطير وكرا
فأقبل الحى يشــــكو   فقلت : ياقـــوم ، صبرا
لو كنت أكسب أجــــرا   أو كنت أحـــرز فخـــرا
خنقت بـــالحبل « نمرا »   لكن للكلب عمـــرا

(١٤) تاريخ ديوانين لأبي ماضى

قل من الشعراء والكتاب من يؤرخ أعماله الأدبية عند نشرها مجموعة ، وذلك – فى أغلب الظن – حتى تبقى هذه الأعمال طلقة جارية ، غير مقيدة بزمان أو بمكان. ولكن هدف الأدباء هذا لا يتفق وهدف دارسى أعمالهم. لهذا يحاول الدارسون – قدر استطاعتهم – تأريخ الأعمال ، لأن تأريخها من أهم الوسائل المساعدة على تتبع وتحديد التطور الفكرى والأدبى واللغوى لأصحابها ، ولأن بدون التأريخ تنتهى الدراسات الأدبية إلى تكهنات متضاربة ، لا إلى حقائق ثابتة .

والأعمال الأدبية بالنسبة للتأريخ نوعان : أعمال تؤرخ ذاتها ، ولا تحتاج فى هذا إلى جهد يذكر ، وأعمال لا تتأرخ إلا بتخريجها من مصادر أصلية ، وتحتاج بالطبع إلى بعض الجهد .

أقول هذا وأنا على أهبة عرض تأريخ ديوانين للمهجرى أبى ماضى : « ديوان إيليا أبو ماضى ، الجزء الثانى » (نيويورك ، مطبعة مرآة الغرب اليومية ، ١٩١٩ ، ١٩٢ ص) ، وديوان « الجداول » (نيويورك ، مرآة الغرب ، ١٩٢٧ ، ١١٢ ص) . فقد جاءت أشعار أبى ماضى فى هذين الديوانين ، وفى دواوينه الثلاثة الأخرى أيضاً ، غفلة من التأريخ ، مما أوجد عقبة فى طريق دراسة هذا الشاعر دراسة كاملة .

ولعل أول من نبه إلى هذا الأمر إحسان عباس وزميله محمد يوسف نجم ، وهما يكتبان عن أبى ماضى فى كتابهما « الشعر العربى فى المهجر : أميركا الشمالية » (بيروت ، دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٧) ، إذ قالا ، ص ١٣٧ : « متى وكيف حصل ذلك ؟ هذا ما نفتقد الشواهد عليه ، لأننا لا نملك تأريخاً دقيقاً يعيننا على دراسة شعره دراسة متدرجة » .

فالتأريخ التالى إذن محاولة أولى فى ملء جزء من ثغرة ظلت شاغرة للآن ، وهى محاولة – برغم قصورها عن التمام – لا بد أن يفيد منها شيئاً من أراد دراسة شاعرنا .

وقد اعتمدت فى تأريخى هذا على الطبعة الأولى الأصلية للديوانين . ولأن « الجزء الثانى » غير موجود فى الأسواق ، وطبعات « الجداول » الحديثة أصبحت تضم قصائد لم تكن فى « الجداول » أصلا ، رأيت من اللازم عرض ترتيبين لكل من الديوانين :

١ — ترتيب ديوانى يبين محتوى الديوان الأصلى ، وتسلسل القصائد كما وردت به .

٢ — ترتيب زمنى يعرض القصائد مسلسلة وفقاً لتاريخ نشرها أو نظمها .

وسيلاحظ القارئ ما يلى فى الترتيب الديوانى :

(ا) يبدأ المدخل برقم مسلسل ، فعنوان القصيدة (أو القطعة) كما ورد فى الديوان ، فرقم الصفحة التى بها القصيدة فى الديوان .

(ب) بين القوسين ، يجىء المصدر الذى ظهرت فيه القصيدة ، فتاريخه ، فرقم الصفحة التى بها القصيدة ، فعنوان القصيدة إن كان مختلفاً فى المصدر عنه فى الديوان .

(حـ) بعد القوسين ، يجىء عدد أبيات القصيدة . فإذا اختلف عدد أبياتها فى الديوان عنه فى المصدر جىء بالعددين : العدد بالديوان ، فالعدد بالمصدر .

(د) لزيادة الفائدة ختم المدخل برقم مسبوق بالحرف « ى » ، هو رقم الصفحة التى بها القصيدة فى كتاب « دار اليقظة العربية » .

أما الاختصارات المستعملة فى التأريخ فهذا بيانها :

ب بيت فى القصيدة .

ز « الزهور » ، القاهرة .

س « السائح » ، نيويورك .

سم « السائح الممتاز » ، نيويورك .

ص صفحة .

ف « الفنون » ، نيويورك .

م « مرآة الغرب » ، نيويورك .

مع « المجلة العربية » ، نيويورك .

مق « المقتطف » ، القاهرة .

ى « إيليا أبو ماضى شاعر المهجر الأكبر » . ط ٢ مزيدة تحتوى على شعر الشاعر كله . (دمشق) ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣ ، ٨٧٩ ص .

أما النجمة (*) فتشير بالرجوع إلى الترتيب الديوانى .

وقبل عرض التأريخ ، قد يكون مفيداً تبين الآتى :

١ — « الجزء الثانى » أكثر دواوين أبى ماضى الخمسة المعروفة أبياتاً ، إذ فيه ٢٨٤١ بيتاً .

٢ — « الجداول » أقل الدواوين الخمسة أبياتاً ، إذ فيه ١٢٠٢ من الأبيات .

٣ — الاثنان معاً بهما ٤٨,٤٧٪ من مجموع أبيات الدواوين الخمسة البالغ ٨٣٤٠ بيتاً .

٤ — « الجزء الثانى » أرخ منه ٨٦,٤٥٪ .

٥ — « الجداول » أرخ منه ٧٢,٨٨٪ .

٦ — ما أرخ من الاثنين معاً يبلغ ٣٩,٩٥٪ من مجموع أبيات الدواوين الخمسة .

« الجزء الثانى »

من « ديوان إيليا أبو ماضى »

١ - الترتيب الديوانى

١ - إهداء الديوان ، ص ٢ (١٩١٩/٦ ، وهو تاريخ صدور الديوان) ١٣ ب ، ليست فى ى .

٢ - الشاعر ، ص ٦ (لم تؤرخ) ٥٠ ب ، ى ٤٣٤ .

٣ - فلسفة الحياة ، ص ١٠ (لم تؤرخ) ٤٠ ب ، ى ٦٢٤ .

٤ - أم القرى أو ملفرد الجميلة ، ص ١٣ (م ١٩١٧/٨/٢٨ ، ص ٤ ، ملفرد بنسلفانيا أو أم القرى) ٥٧ ب ، ى ٤٠٤ .

٥ - أنا وأخت المهاة والقمر ، ص ١٧ (لم تؤرخ) ٤٧ ب ، ى ٣٥٣ .

٦ - الشاعر والأمة ، ص٢٠ (ف١٩١٦/٩ ، ص ٣٢٩) ٥٩ ب، ى ٤٤٧ .

٧ - وإنى ، ص ٢٣ (س ١٩١٦/١٠/٢ ، ص ٤) ٢ ب ، ليسا فى ى .

٨ - أما أنا ، ص ٢٤ (س ١٩١٦/٩/١٨ ، ص ٤) ١٤ ب ، ى ٤٧٧ .

٩ - وداع وشكوى ، ص ٢٥ (ز ١٩١٢/٦ ، ص ١٩٩) ٣٢/٥٢ ب ، ى ٥٣٠ .

١٠ - عصر الرشيد ، ص ٢٨ (م ١٩١٤/٦/١٠ ، ص ٤ ، بغداد أمس واليوم) ٧٥ ب ، ى ٨٤٣ .

١١ - لم أجد أحداً ، ص ٣٣ (م ١٩١٧/١٢/٢٤ ، ص ١) ٥٠ ب ، ى ٣٠٧ .

١٢ - ؟ ، ص ٣٦ (ف ١٩١٧/١ ، ص ٧٠٧) ٨ ب ، ى ٢٣٨ .

١٣ - بنت سوريا ، ص ٣٧ (س ١٩١٨/٩/٥ ، ص ٥ ، فتاة سوريا . وقد نبهت س إلى أن القصيدة نظمت من سنين عديدة) ٤٥/٤٦ ب ، ى ٥٨٧ .

١٤ — الفقير ، ص ٤٠ (لم تؤرخ) ٥١ ب ، ى ١٠٧ .

١٥ — بين الكاس والطاس ، ص ٤٣ (لم تؤرخ) ١١ ب ، ى ٦٣٣ .

١٦ — فى السفينة ، ص ٤٤ (نرجح صيف ١٩١١) ١٦ ب ، ى ٦١٠ .

١٧ — يا صاح ، ص ٤٥ (ف ١٩١٧/٨ ، ص ٥٠) ٢٢ ب ، ى ١٩٠ .

١٨ — بلاء أم نعمة ، ص ٤٦ (نرجح ربيع ١٩١٨) ٢٠ ب ، ى ٤٨٣ .

١٩ — الخلود ، ص ٤٨ (ف ١٩١٦/٧ ، ص ١٥٦ ، الخلود والفناء ، بتوقيع «عطارد») ٢٩ ب ، ى ٨٦٥ .

٢٠ — عيناك ، ص ٥٠ (لم تؤرخ) ١٢ ب ، ى ٤٣٢ .

٢١ — ١٩١٣ ، ص ٥١ (١٩١٣/١ ، القصيدة تؤرخ ذاتها) ٥٨ ب ، ى ١٧٨ .

٢٢ — بلادى ، ص ٥٥ (م ١٩١٣/٥/٢٨ ، ص ٤) ٥١/٥٠ ب ، ى ٦٨٣ .

٢٣ — البلبل السجين ، ص ٥٨ (م ١٩١٣/٩/١٧ ، ص ٤ ، يا ليل) ٥٧ ب ، ى ٦٥١ .

٢٤ — أنت ، ص ٦٢ (م ١٩١٣/٧/٥ ، ص ٥) ٥٢ ب ، ى ١٠٣ .

٢٥ — معركة بورغاس ، ص ٦٥ (١٩١٢/١٠/٣١ . وهو تاريخ انتهاء المعركة) ٦٩ ب ، ى ٧١٦ .

٢٦ — خير شىء ، ص ٦٩ (س ١٩١٦/١٠/٥ ، ص ٤) ٩ ب ، ى ٨٦٤ .

٢٧ — حكاية حال ، ص ٧٠ (م ١٩١٨/١/٢٦ ، ص٤) ٢٠ ب ، ى٨٠٦ .

٢٨ — شكوى ، ص ٧١ (لم تؤرخ) ٩ ب ، ى ٣٢٣ .

٢٩ — بائعة الورد ، ص ٧٢ (لم تؤرخ) ٨٢ ب ، ى ٤٦٣ .

٣٠ — ١٩١٤ ، ص ٧٧ (م ١٩١٤/١/١٤ ، ص١ ، طوى العام) ٣٧ ب ، ى ٣٢٧ .

٣١ — بنت الدوالى ، ص ٨٠ (مع ١٩١٦/١٠/٣٠ ، ما العيش إلا ساعة الغرور . التاريخ هو تاريخ «الهدى» النيويوركية التى نشرت ، ص ٢ ، محتويات عدد مع) ١٠ ب ، ى ٤٩٣ .

٣٢ — الطيران ، ص ٨١ (م ١٩١٤/١/٢٣ ، ص ١) ٤٣ ب ، ى ١١٧ .

٣٣ — العاشق المخدوع . ص ٨٤ (س ١٩١٦/٩/٢١ ، ص ١ ، المخدوع) ٨٣ ب ، ى ٤١٥ .

٣٤ — أهلها عرب . ص ٨٩ (مع ١٩١٦/١٠/٩ ، وهو تاريخ « الهدى » التى نشرت . ص ٧ ، محتويات عدد مع) ١٢ ب ، ى ١٣٩ .

٣٥ — صاحب القلم ، ص ٩٠ (ز ١٩١٣/٧ ، ص ٢٥٦ ، لكن مصرا) ٣١/٤١ ب ، ى ٦٦٥ .

٣٦ — بلا عنوان ، ص ٩٢ (لم تؤرخ) ٤ ب ، ى ٧٨٣ .

٣٧ — نزوة ألم ، ص ٩٣ (م ١٩١١/١٢/٦ ، ص ٤ ، خواطر شاعر) ٣٩/٣٨ ب . ليست فى ى .

٣٨ — الكأسان ، ص ٩٥ (س ١٩١٦/١٠/٣٠ ، ص ٤ ، القدحان) ٢٤/٢١ ب ، ى ٥٩٧ .

٣٩ — بلا عنوان . ص ٩٦ (لم تؤرخ) ٣ ب ، ى ٦٣٨ .

٤٠ — لأرفعن للسما احتجاجى ، ص ٩٧ (لم تؤرخ) ٢٤ ب ، ى ٢٣٣ .

٤١ — أنتم معى ، ص ٩٨ (لم يؤرخا) ٢ ب ، ى ٢٨٧ .

٤٢ — الحرب العظمى ، ص ٩٩ (م ١٩١٤/١١/١٦ . ص ١ ، صرخة قانط) ٦٩/٦٨ ب ، ى ٧٣٤ .

٤٣ — دموع وتنهدات ، ص ١٠٣ (م ١٩١٥/١/٢٨ ، ص ١ ، عنوان وطنية شاعر) ٦٠ ب ، ى ٨٣٦ .

٤٤ — أخت البلجيك ، ص ١٠٧ (م ١٩١٥/٢/١٣ ، ص ١ ، سوريا) ٤٠ ب ، ى ٥٤٩ .

٤٥ — بين الضحك واللعب ، ص ١٠٩ (س ١٩١٦/٩/٢٥ ، ص ٤) ٥ ب ، ى ١٦٦ .

٤٦ — أمة تفنى وأنتم تلعبون ، ص ١١٠ (م ١٩١٦/٧/٣١ ، ص ١) ٧٢ ب ، ى ٦٩٤ .

٤٧ — فى الليل ، ص ١١٥ (م ١٩١٦/١٠/٩ ، ص ١ ، متى يذكر الوطن النُّوَّم) ٤٠ ب ، ى ٢٧٩ .

٤٨ — سقوط أرضروم ، ص ١١٨ (م ١٦/٣/١٩١٦ ؛ ص ٤ ، إلى الفاتح الغازى ، بتوقيع «عطارد») ٧٢ ب ، ى ٥٥٣ .

٤٩ — بلا عنوان، ص ١٢٢ (س ١/١١/١٩١٥ ، ص ٤، بتوقيع «أحدهم») ٤/٥ ب ، ى ٤٨٦ .

٥٠ — ١٩١٦ ، ص ١٢٣ (م ٣١/١٢/١٩١٥ ، ص ١ . العام الجديد) ٤٨ ب ، ى ٥٨٣ .

٥١ — ما للكواكب ؟ ، ص ١٢٦ (س ٦/١/١٩١٦ ، ص «ب») ٣٩ ب ، ى ٢٦٩ .

٥٢ — بلا عنوان ، ص ١٢٨ (س ١/١١/١٩١٥ ، ص ٤ ، ما كان أحوجنى) ٤ ب ، ى ٤٨٥ .

٥٣ — البغضاء ، ص ١٢٩ (م ١٩/٢/١٩١٥ ، ص١) ٤١ ب ، ى ٧٢١ .

٥٤ — حكاية قديمة ، ص ١٣٢ (س ٦/١/١٩١٦ ؛ ص ١٢) ٤٠ ب ، ى ٢٤٧ .

٥٥ — لمن الديار؟ ، ص ١٣٥ (م ٢٧/٩/١٩١٥، ص ٤) ٨٥ ب ، ى ٥٧٦ .

٥٦ — يا بلادى ، ص ١٤٠ (نرجح بعد ٨/١٩١٦ ، كما توحى القصيدة به) ٦٩ ب ، ى ٢٦٣ .

٥٧ — الفردوس الضائع أو رؤيا القيصر الألمانى ، ص ١٤٤ (م ٢٥/١/١٩١٦، ص ٤) ٤٦ ب ، ى ٧٣٠ .

٥٨ — مسرح العشاق ، ص ١٤٧ (م ٣/١٠/١٩١٣ ، ص ٤ ، آها عليكِ) ٩٨ ب ، ى ٣٩٥ .

٥٩ — حكاية حال ، ص ١٥٣ (م ٢٢/١٢/١٩١٦ ، ص ٤) ٤٣ ب ، ى ٥٦٠ .

٦٠ — يا جارتى ، ص ١٥٦ (سم ١٧/١/١٩١٨ ، ص ٢ ، أنة نائح) ٣٨ ب ، ى ٧٠٧ .

٦١ — هَمْلِيتْ ، ص ١٥٨ (م ١٠/٣/١٩١٦ ، ص ٤ ، شبيبة الشرق) ٢٤ ب ، ى ٥٧٤ .

٦٢ — العيون السود ، ص ١٦٠ (م ١٩١٥/١/١٨ ، ص ٤ ، هى نظرة) ٣٧ ب ، ى ٣١٥ .

٦٣ — هاتها ، ص ١٦٢ (لم تؤرخ) ١٠ ب ، ى ٢٤٢ .

٦٤ — إلى صديق ، ص ١٦٣ (لم تؤرخ) ٤٠ ب ، ى ٦٨٠ .

٦٥ — باخرة الإغاثة ، ص ١٦٥ (م ١٩١٦/١٢/١٦ ، ص ٣ ، الباخرة) ١٢ ب ، ى ٤٤٥ .

٦٦ — مصرع القسر ، ص ١٦٦ (س ١٩١٦/٤/٢٤ ، ص ٤ ، دمعة حارة) ٤٨ ب ، ى ٢٩٥ .

٦٧ — فى فراش المرض ، ص ١٦٩ (م ١٩١٤/١٠/٨ ، ص ٤ ، لو تَبَلَّدْتُ ساعة) ٤٣/٤٤ ب ، ى ٣٠٤ .

٦٨ — رثاء المطران رفائيل هواوينى ، ص ١٧٢ (م ١٩١٥/٣/٢ ، ص ٣ ، الشاعر الوطنى يرثى فقيد الأمة) ٣١/٣٠ ب ، ى ٥٦٤ .

٦٩ — فتح أورشليم ، ص ١٧٤ (م ١٩١٧/١٢/١١ ، ص ٣ ، إلى الفاتح) ٣٠ ب ، ى ٦١٥ .

٧٠ — إلى الفاتح ، ص ١٧٦ (م ١٩١٩/١/١١ ، ص ٣ ، السيف) ١٣ ب ، ى ٢٤٣ .

٧١ — فى القطار ، ص ١٧٧ (س ١٩١٧/٥/١٧ ، ص ٥ ، بلا عنوان) ٢٧/٢٤ ب ، ى ٤٣٨ .

٧٢ — السيد المجتبى ، ص ١٧٨ (م ١٩١٧/٥/١٦ ، ص ٤ ، القصيدة العصماء) ٢١/٢٠ ب ، ١٧٦ .

٧٣ — مرآة الغرب فى سنتها التاسعة عشرة ، ص ١٨٠ (م ١٩١٧/٩/١٢ ، ص ١) ٣٣ ب ، ى ٣٦٠ .

٧٤ — مزح فى جد (معربة) ، ص ١٨٢ (١٩١٨/١/١٩ ، ص ٤) ٢٠ ب ، ى ٢٢٤ .

٧٥ — نشيد التباراري (معربة) ، ص ١٨٣ (م ١٩١٦/١/٦ ، ص ٤) ٢١ ب ، ليست فى ى .

٧٦ — ذكرى، ص ١٨٤ (س ١٩١٧/٦/٢١، ص ٤، ولقد ذكرتُكِ) ٢ ب، ى ٩٩ .

٧٧ — جرجى زيدان ، ص ١٨٥ (م ١٩١٤/٨/٤ ، ص ٤) ٤٥ ب ، ى ٨١٠ .

٧٨ — أيهـا الراعى ، ص ١٨٨ (س ١٩١٥/٨/٢٦ ، ص ٤) ٣١ ب، ى ٢٩٩ .

٧٩ — ابنة الفجر ، ص ١٩٠ (س ١٩١٧/١٠/١١ ، ص ٤ ، إذا مت) ٤٧ ب ، ى ٧٧٧ .

٢ — الترتيب الزمنى

١٦ — فى السفينة	صيف ١٩١١	—
٣٧ — نزوة ألم	١٩١١/١٢/٦	م
٩ — وداع وشكوى	١٩١٢/٦	ز
٢٥ — معركة بورغاس	١٩١٢/١٠/٣١	—
٢١ — ١٩١٣	١٩١٣/١	—
٢٢ — بلادى	١٩١٣/٥/٢٨	م
٣٥ — صاحب القلم	١٩١٣/٧	ز
٢٤ — أنت	١٩١٣/٧/٥	م
٢٣ — البلبل السجين	١٩١٣/٩/١٧	م
٥٨ — مسرح العشاق	١٩١٣/١٠/٣	م
٣٠ — ١٩١٤	١٩١٤/١/١٤	م
٣٢ — الطيران	١٩١٤/١/٢٣	م
١٠ — عصر الرشيد	١٩١٤/٦/١٠	م
٧٧ — جرجى زيدان	١٩١٤/٨/٤	م
٦٧ — فى فراش المرض	١٩١٤/١٠/٨	م
٤٢ — الحرب العظمى	١٩١٤/١١/١٦	م

٦٢ — العيون السود	١٩١٥/١/١٨	م
٤٣ — دموع وتنهدات	١٩١٥/١/٢٨	م
٤٤ — أخت الباجيك	١٩١٥/٢/١٣	م
٥٣ — البغضاء	١٩١٥/٢/١٩	م
٦٨ — رثاء المطران رفائيل هواويني	١٩١٥/٣/٢	م
٧٨ — أيها الراعي	١٩١٥/٨/٢٦	س
٥٥ — لمن الديار ؟	١٩١٥/٩/٢٧	م
٤٩ — بلا عنوان	١٩١٥/١١/١	س
٥٢ — بلا عنوان	١٩١٥/١١/١	س
٥٠ — ١٩١٦	١٩١٥/١٢/٣١	م
٥١ — ما للكواكب ؟	١٩١٦/١/٦	س
٥٤ — حكاية قديمة	١٩١٦/١/٦	س
٧٥ — نشيد التباراري	١٩١٦/١/٦	م
٥٧ — الفردوس الضائع	١٩١٦/١/٢٥	م
٦١ — هَمْلِتْ	١٩١٦/٣/١٠	م
٤٨ — سقوط أرضروم	١٩١٦/٣/١٦	م
٦٦ — مصرع القمر	١٩١٦/٤/٢٤	س
١٩ — الخلود	١٩١٦/٧	ف
٤٦ — أمة تفنى وأنتم تلعبون	١٩١٦/٧/٣١	م
٦ — الشاعر والأمة	١٩١٦/٩	ف
٨ — أما أنا	١٩١٦/٩/١٨	س
٣٣ — العاشق المخدوع	١٩١٦/٩/٢١	س
٤٥ — بين الضحك واللعب	١٩١٦/٩/٢٥	س
٧ — وإني	١٩١٦/١٠/٢	س
٢٦ — خير شيء	١٩١٦/١٠/٥	س
٣٤ — أهلها عرب	١٩١٦/١٠/٩	مع

٤٧ — فى الليل	١٩١٦/١٠/٩	م
٣١ — بنت الدوالى	١٩١٦/١٠/٣٠	مع
٣٨ — الكأسان	١٩١٦/١٠/٣٠	س
٦٥ — باخرة الإغاثة	١٩١٦/١٢/١٦	م
٥٩ — حكاية حال	١٩١٦/١٢/٢٢	م
٥٦ — يا بلادى	بعد ١٩١٦/٨	—
١٢ — ؟	١٩١٧/١	ف
٧٢ — السيد المجتبى	١٩١٧/٥/١٦	م
٧١ — فى القطار	١٩١٧/٥/١٧	س
٧٦ — ذكرى	١٩١٧/٦/٢١	س
١٧ — يا صاح	١٩١٧/٨	ف
٤ — أم القرى أو ملفرد الجميلة	١٩١٧/٨/٢٨	م
٧٣ — مرآة الغرب	١٩١٧/٩/١٢	م
٧٩ — ابنة الفجر	١٩١٧/١٠/١١	س
٦٩ — فتح أورشليم	١٩١٧/١٢/١١	م
١١ — لم أجد أحداً	١٩١٧/١٢/٢٤	م
٦٠ — يا جارتى	١٩١٨/١/١٧	سم
٧٤ — مزح فى جد	١٩١٨/١/١٩	م
٢٧ — حكاية حال	١٩١٨/١/٢٦	م
١٨ — بلاء أم نعمة ؟	ربيع ١٩١٨	—
١٣ — بنت سوريا	١٩١٨/٩/٥(*)	س
٧٠ — إلى الفاتح	١٩١٩/١/١١	م
١ — إهداء الديوان	١٩١٩/٦	—

٣ ـ ما لم يؤرخ

« الجداول »

١ - الترتيب الديوانى

١ — الفاتحة ، ص ٤ (لم تؤرخ) ٢١ ب ، ى ٧٦٤ .
٢ — العنقاء ، ص ٥ (س ١٩٢٧/٢/٢٨ ، ص ٧) ٤٢ ب ، ى ٥١٢ .
٣ — السجينة ، ص ٩ (مق ١٩٢٤/١٢/١ ، ص ٥٢٢) ٣٢ ب، ي ١٣٣ .
٤ — الضفادع والنجوم ، ص ١٢ (لم تؤرخ) ١١ ب ، ى ٦٨٧ .
٥ — السماء ، ص ١٣ (س ١٩٢٦/١٠/٧ ، ص ٦) ٢٣ ب ، ى ٩٧ .
٦ — بَرِّدى يا سحب ، ص ١٥ (سم ١٩٢٧/٣/٢٤، ص ٢٦) ١٦ ب ، ى ١٨٣ .
٧ — الغير المتنكر ، ص ١٦ (م ١٩١٤/٧/١٧ ، ص ٤ ، يا نوح ، أين دلائل الطوفان ؟) ٥٢/٦ ب ، ى ٧٣٩ .
٨ — تعالى ، ص ١٧ (سم ١٩٢٥/٢/٩ ، ص ٦٥) ٣٢ ب ، ى ٥١٧ .
٩ — ريح الشمال ، ص ٢٠ (سم١٩٢١/١/١٠ ، ص٣١) ٢٤ ب، ى ٥٧٢.
١٠ — الحجر الصغير ، ص ٢٢ (مق ١٩٢٤/٤/١ ، ص ٣٩٢) ١٤ ب ، ى ١٢٣ .
١١ — الطين ، ص ٢٣ (مق ١٩٢٥/٢/١ ، ص ١٣٢) ٥٧ ب ، ى ٣١٨ .
١٢ — التينة الحمقاء ، ص ٢٨ (سم ١٩٢٥/٢/٢٩ ، ص ٦٦) ١١ ب ، ى ٣٣٩ .
١٣ — فى القفر ، ص ٢٩ (س ١٩٢٤/٨/٢٨ ، ص ٤) ٣٣ ب ، ى ١٥١ .
١٤ — التمثال ، ص ٣٢ (س ١٩٢٦/٦/١٧ ، ص ٧) ١٣ ب ، ى ٤٨٢ .
١٥ — المساء ، ص ٣٣ (م ١٩٢١/٥/١٠ ، ص ٤) ٥٠ ب ، ى ٧٨٤ .
١٦ — الكمنجة المحطمة ، ص ٣٨ (مق ١٩٢٥/٧/١ ، ص ١٢٩) ٣٣ ب ، ى ٨١٧ .

١٧ — زهرة أقحوان ، ص ٤١ (م ١٩٢٠/٦/١٤ ، ص ٤ ، زهرة من أقحوان) ٢٧/٢٩ ب ، ى ٧٢٧ .

١٨ — الأسرار ، ص ٤٤ (سم ١٩٢٥/٢/٩ ، ص ٦٦) ٩ ب ، ى ٤٠٢ .

١٩ — العميان ، ص٤٥ (م١٩١٩/١٠/١٤ ، ص٤) ٢١/٣٢ ب ، ى ٧٧٤ .

٢٠ — الزمان ، ص٤٨ (مق١٩٢٤/٧/١ ، ص١٢٩) ٢٥/٢٦ ب ، ى ٢٥٢ .

٢١ — اليتيم ، ص ٥٠ (س١٩٢٤/١٠/٩ ، ص٥ ، بلا عنوان) ٢٦/٢٠ ب ، ى ٨٤١ .

٢٢ — المجنون ، ص ٥٢ (سم ١٩٢٥/٢/٩ ، ص ٦١) ٤٣ ب ، ى ٦٠٠ .

٢٣ — قطرة الطل ، ص ٥٧ (س ١٩٢٣/١١/١٢ ، ص ٤) ٨ ب ، ى ٤٧٤ .

٢٤ — نار القرى ، ص ٥٨ (سم ١٩٢٧/٣/٢٤ ، ص ٢٥) ١٨/٢٤ ب ، ى ١٠١ .

٢٥ — ابن الليل ، ص ٦٠ (سم ١٩٢٧/٣/٢٤ ، ص ٨٥) ١٨ ب ، ى ٦٠٧ .

٢٦ — أنا ، ص ٦٢ (م ١٩١٩/١١/١٠ ، ص ٤ ، بتوقيع « الهدهد ») ١٢/١٦ ب ، ى ١٤٧ .

٢٧ — الإله الثرثار ، ص ٦٤ (لم تؤرخ) ١٠ ب ، ى ٧٩٨ .

٢٨ — الأشباح الثلاثة ، ص ٦٥ (سم ١٩٢٥/٢/٩ ، ص ٦٣) ٧٤ ب ، ى ٤٨٨ .

٢٩ — العليقة ، ص ٧٢ (مق ١٩٢٧/٦/١ ، ص ٦٠٩ ، العوسجة) ٣٥ ب ، ى ١٦٢ .

٣٠ — هى ، ص ٧٥ (م ١٩٢٣/٧/٢ ، ص ٤ ، سِرُّها) ٤٠/٣٧ ب ، ى ٨٣١ .

٣١ — لا أنت ولا أنا ، ص ٧٨ (سم ١٩٢٧/٣/٢٤ ، ص ٢٧) ٧ ب ، ى ٧٥٢ .

٣٢ — الناسكة ، ص ٧٩ (س ١٩٢٤/٦/١٩ ، ص ٤) ١٥ ب ، ى ١٨٨ .

٣٣ — عيد النهى ، ص ٨١ (س ١٣ / ٥/ ١٩٢٦ ، ص ٧ ، فى عيد « المقتطف » الخمسينى) ٥٩ ب ، ى ٢٥٨ .

٣٤ — موت العبقرى ، ص ٨٦ (م ١٩٢٥/٦/١٨ ، ص ٤) ٣٢ ب ، ى ٢١٨ .

٣٥ — الغدير الطموح ، ص ٨٨ (سم ١٩٢٧/٣/٢٤ ، ص ٢٧) ٦ ب ، ى ٣٦٣ .

٣٦ — الطلاسم ، ص ٨٩ (لم تؤرخ) ٢٨٤ ب ، ى ١٩٣ .

٢ — الترتيب الزمنى

٧ — العير المتنكر	١٩١٤/٧/١٧	م
١٩ — العميان	١٩١٩/١٠/١٤	م
٢٦ — أنا	١٩١٩/١١/١٠	م
١٧ — زهرة أقحوان	١٩٢٠/٦/١٤	م
٩ — ريح الشمال	١٩٢١/١/١٠	سم
١٥ — المساء	١٩٢١/٥/١٠	م
٣٠ — هى	١٩٢٣/٧/٢	م
٢٣ — قطرة الطل	١٩٢٣/١١/١٢	س
١٠ — الحجر الصغير	١٩٢٤/٤/١	مق
٣٢ — الناسكة	١٩٢٤/٦/١٩	س
٢٠ — الزمان	١٩٢٤/٧/١	مق
١٣ — فى القفر	١٩٢٤/٨/٢٨	س
٢١ — اليتيم	١٩٢٤/١٠/٩	س
٣ — السجينة	١٩٢٤/١٢/١	مق
١١ — الطين	١٩٢٥/٢/١	مق
٢٢ — المجنون	١٩٢٥/٢/٩	سم
٢٨ — الأشباح الثلاثة	١٩٢٥/٢/٩	سم
٨ — تعالى	١٩٢٥/٢/٩	سم

١٢ —	التينة الحمقاء	١٩٢٥/٢/٩	سم
١٨ —	الأسرار	١٩٢٥/٢/٩	سم
٣٤ —	موت العبقرى	١٩٢٥/٦/١٨	م
١٦ —	الكمنجة المحطمة	١٩٢٥/٧/١	مق
٣٣ —	عيد النهى	١٩٢٦/٥/١٣	س
١٤ —	التمثال	١٩٢٦/٦/١٧	س
٥ —	السماء	١٩٢٦/١٠/٧	س
٢ —	العنقاء	١٩٢٧/٢/٢٨	س
٢٤ —	ذار القرى	١٩٢٧/٣/٢٤	سم
٦ —	بَرِّدى يا سحب	١٩٢٧/٣/٢٤	سم
٣١ —	لا أنت ولا أنا	١٩٢٧/٣/٢٤	سم
٣٥ —	الغدير الطموح	١٩٢٧/٣/٢٤	سم
٢٥ —	ابن الليل	١٩٢٧/٣/٢٤	سم
٢٩ —	العليقة	١٩٢٧/٦/١	مق

٣ — مالم يؤرخ

١ — الفاتحة

٤ — الضفادع والنجوم

٢٧ — الإله الثرثار .

٣٦ — الطلاسم

(١٥) موجز عن حياة أبي ماضي

١٨٥٤ فى ضيعة المحيدثة بلبنان، ولد والده ظاهر (ضاهر) إيليا طانيوس أبو ماضي .

١٨٦٤ فى المحيدثة ، ولد عمه نعوم .

١٨٨٧ فى المحيدثة . ولد أخوه الأكبر مراد .

١٨٨٩ فى ١٥/٥ ، فى المحيدثة ، وضعت سلمى — أم مراد — إيليا .

١٩٠٠ هاجر إلى إسكندرية مصر ، بصحبة عمه نعوم ، حيث بدأ يتعاطى بيع السجاير والدخان نهاراً ، منصبًّا على الدرس والمطالعة ليلا ، تارة على نفسه ، وتارة فى بعض الكتاتيب .

١٩٠٣ أول ما قرض الشعر ، وكان فى الرابعة عشرة .

١٩٠٨ فى ٢٢/١٠ ، نشرت « الهدى » النيويوركية خبراً ، أرسله إليها أحدهم ، يفيد أن أخاه مراد قتل بالرصاص فى سنسناتى . فكذب مراد الخبر فى مقال نشرته « الهدى » فى ٢٧/١٠ .

١٩٠٩ فى ٤/٢ ، علقت « الهدى » النيويوركية على قصيدته « فى سبيل الإصلاح » . فى الربع الأول ، فى الإسكندرية ، توفى أخوه طانيوس .
فى ١٢/٨ ، نشرت « الهدى » النيويوركية قصيدته « شكوى فتاة » (الزواج التجارى) .

١٩١١ فى ٣٠ / ١ ، نشرت « مرآة الغرب » النيويوركية قصيدته « نفثة مصدور » .
فى النصف الأول ، فى الإسكندرية ، صدر عن المطبعة المصرية « ديوان تذكار الماضى » ، فى ٨٥ ص ، مُهدًى « إلى الأمة المصرية » . وكان ثمن الديوان عشرة قروش .
فى مارس (آذار) ، نشرت « الهداية » القاهرية قصيدة « أنا هو » كنموذج من هذا الديوان ، ونقدتها .

في النصف الثاني ، أهدى نسخة من ديوانه إلى كل من « المقتطف » و « الهلال » القاهريتين .

في الصيف ، غادر مصر نهائيًّا إلى لبنان حيث أقام بضعة أشهر . وبعد انضمامه للمعارضة ، هاجم السلطة الحاكمة بقصيدة « وداع وشكوى » ، ثم سافر هارباً إلى الولايات المتحدة الأمريكية للعمل مع أخيه مراد في تجارة السمانة . وكان محل أخيه قائماً في الركن الشمالي الغربي من ملتقى الشارع الثالث بشارع سيراكيوز بمدينة سنسناتي بولاية أوهـايو .

في ٦ / ١٢ ، في « مرآة الغرب » النيويوركية ، ظهرت « نزوة ألم » (خواطر شاعر) ، طليعة قصائده المهجرية .

١٩١٥ في أغسطس (آب) زار عبد المسيح حداد سنسناتي ، وقابل أبا ماضي لأول مرة ، وكتب عنه في جريدته « السائح » النيويوركية .

١٩١٦ في ١/٦ ، في نيويورك ، ظهر أول عدد من « السائح الممتاز » ، وبه قصيدتان له : « ما للكواكب ؟ » و « حكاية قديمة » .

في ٣/٣١ ، في سنسناتي ، توفي أخوه ديمتري (متري) منتحراً بالرصاص ، غير متجاوز العشرين من عمره .

في منتصف العام ، في نيويورك ، ظهرت الرابطة القلمية .

في يوليو (تموز) ، في « الفنون » النيويوركية ، ظهرت « الخلود والفناء » ، أولى قصائده في هذه المجلة ، موقعة بإمضاء « عطارد » .

في أغسطس (آب) ، انتقل إلى مدينة نيويورك للتحرير في « المجلة العربية » . ولم يطل الوقت حتى أسهم في تحرير « الفتاة » النيويوركية التي كان يصدرها شكري بخاش .

١٩١٧ في مارس (آذار) ، في سنسناتي ، تزوج أخوه مراد سليمة سمعان . وكان الإشبينان يوسف فلفـلي وآسين سمعان شقيقة العروس .

في مايو (أيار) ، في نيويورك ، أقام نعوم مكرزل — صاحب « الهدى » — دعوى عليه ، وعلى شكري بخاش صاحب « الفتاة » ، وعلى عبد المسيح حداد صاحب « السائح » .

في ١١/٧ ، في نادى القديس نيقولاوس ببروكلن ، انتخب أبو ماضى — عن العلمانيين — كاتم أسرار المجلس الملى الأرثوذكسى العام لأبرشية بروكلن .

١٩١٨ في الربع الأول ، صار محرراً لـ « مرآة الغرب » .

في ١٥/٤ ، في منزل آل دياب بنيويورك ، خطب دوروثى (دورا) ابنة نجيب موسى دياب صاحب « مرآة الغرب » ، وبارك الخطبة المطران أفثيميوس عفيش .

في ٢٨/١٠ ، في أحد شوارع بروكلن ، دهمت سيارة أولغا — أخت خطيبته — فتاة ، وذهبت بحياتها .

١٩١٩ يونيو (حزيران) ، في نيويورك ، صدر عن « مرآة الغرب » « ديوان إيليا أبو ماضى ، الجزء الثانى » ، في ١٩٢ ص ، بمقدمة لجبران خليل جبران ، ومهدى إلى الثرى نعمة تادرس ، تاجر سجاد شرقى معروف في نيويورك .

١٩٢٠ في ٢٥/٤ ، في بيت آل دياب بنيويورك ، تزوج دوروثى . وقد بارك الإكليل الأسقف أفثيميوس عفيش والأبوان باسيليوس خرباوى وتيودورى ينى . وكان الإشبينان رشيد سمعان وعائدة مبارك شقيقة العروس . أما شهر العسل ، فقد أمضاه العروسان في مدينة أتلانتيك سيتى بولاية نيو جرزى .

١٩٢١ في فبراير (شباط) ، في نيويورك ، أصدر الموسيقى المهجرى أنيس فليحان كراسة في ثمانى صفحات من الحجم الكبير بعنوان « بين الضحك واللعب » تضمنت قطعة أبى ماضى المعروفة بهذا العنوان واللحن الموسيقى الذى وضعه لأدائها على البيانو .

في ١٠/٨ ، بمستشفى روزفلت في نيويورك ، توفيت حماته كاترين سابا دياب بداء السرطان ، ولها من العمر ٤٣ سنة .

في الربع الأخير ، في لبنان ، اقترنت أخته جنى (أوجينى) بإبراهيم نمر الخورى نعيمة .

في ديسمبر (كانون الأول) ، في نيويورك ، صدرت « مجموعة الرابطة

القلمية لسنة ١٩٢١ » عن المطبعة التجارية السورية الأمريكية ، تتضمن خمس قصائد له مختارة .

١٩٢٢ في ٢/٢٣ ، رزق رتشرد أول أنجاله .

في ١٠/٢٧ ، تزوج حموه نجيب السيدة أنجلينا زريق ، ابنة جبرائيل الصايغ . وكان شاهدا الإكليل إيليا ومالكة سليم سمارة .

١٩٢٣ في أبريل (نيسان) ، في قوسايا البقاع بلبنان ، توفيت أخته جني إثر ولادتها الأولى .

في ٦/٣٠ ، في مستشفى برمانا بلبنان ، توفيت والدة حميه .

أكتوبر (تشرين الأول) ، وصل إلى نيويورك والداه قادمين من لبنان .

١٩٢٤ في ١/١٧ كان ميلاد إدوارد ، نجله الثاني .

في ٦/١٥ . صار ثمن « ديوان إيليا أبو ماضي . الجزء الثاني » خمسة دولارات بعد أن كان دولارين .

في أكتوبر (تشرين الأول) ، أعلن على صفحات « السائح » و « الهدى » أنه أصبح وكيل مجلة « المقتطف » القاهرية في أمريكا .

في ٣٠ / ١١ ، في منزل أبي ماضي بنورووك كونيكتيكات ، عمّد رئيس الأساقفة أفثيميوس عفيش والأب باسيليوس خرباوي إدوارد بن إيليا . وكفل إدوارد جده نجيب وامرأة عمه سليمة .

١٩٢٥ في فبراير (شباط) ، في نيويورك ، صدرت أسطوانة « نشيد يوسف كرم » ، تلحين وإنشاد مدحت سربجي ، أبيات أبي ماضي .

١٩٢٦ في يناير (كانون الثاني) ، وقعت بينه وبين أسعد رستم مناظرة هجائية .

في نوفمبر (تشرين الثاني) ، أعلن أن عنوانه الجديد هو ١٩ شارع ريكتور ، نيويورك .

١٩٢٧ في يوليو (تموز) ، في نيويورك ، صدر عن مطبعة « مرآة الغرب » ديوان « الجداول » ، في ١١٢ ص ، وبمقدمة لميخائيل نعيمة .

١٩٢٨ في يوليو (تموز) ، اعتزل تحرير « مرآة الغرب » بعد أن صرف في إدارتها أكثر من عشر سنوات .

في ٧/٢٧ ، أبحر والده على الباخرة « باتريا » راجعاً إلى لبنان وسوريا .

في ١٢/١ ، أعلن أن عنوانه الجديد هو ٢ جريجوري بوليفارد بنورووك ، بولاية كونيكتيكات .

كان أحد أعضاء اللجنة التمهيدية لحفلة يوبيل جبران خليل جبران الفضي التي أقيمت في ١٩٢٩/١/٥ ، في نزل مكالبن ، في بروكلن ، نيو يورك .

١٩٢٩ في ٢/٢٦ ، نشر « السائح » و « الهدى » أول إعلان عن عزمه على إصدار مجلة نصف شهرية اسمها « السمير » .

في ٤/١٥ ، أصدر أول عدد من « السمير » .

في يونيو (حزيران) انتقلت « السمير » إلى مكتبها الجديد في الطابق الأول من البناية رقم ٧٤ شارع واشنطن ، نيويورك .

١٩٣٠ في ٣/٢٨ ، انتخب كاتم أسرار اللجنة المؤقتة لتكريم ذكرى الشيخ عبد الله البستاني .

١٩٣١ في أوائل العام ، في المحيدثة ، توفي والده .

في ١٠ / ٤ ، في نيويورك ، توفي جبران ، وخصصت « السمير » عددها المؤرخ ٥/١ لذكراه .

١٩٣٢ في ٣/٢٨ ، في نيويورك ، توفيت أولغا — أخت زوجته — في عقدها الثالث ، إثر عملية الزائدة المعوية .

١٩٣٣ في ٥/١ ، رزق روبرت ثالث أنجاله .

في مايو (أيار) استحصل حكماً على « مرآة الغرب » بنحو ١٥٠٠ دولار في مقابل دين عليها له .

في ١٠/٣ ، عند حبيب السكاف في بروكلن ، أنشئ نادي الموسيقى العربية ، وانتخب أبو ماضي رئيساً له .

١٩٣٥ في بنجهامتن بولاية نيويورك ، أقامت الجالية حفلة تكريم له .

١٩٣٦ فى ١١/٧ ، فى مستشفى ميثوديست إبيسكوبال بنيويورك ، توفى حموه إثر عملية جراحية ، وفى ١٥/٧ دفن فى مقبرة جرينوود .

فى يوليو وأغسطس (تموز وآب) ، تطوع للتحرير فى « مرآة الغرب » ولمعاونة أنجلينا — زوجة حميه — فى إدارة الجريدة ، منصرفاً عن الاهتمام بـ « السمير » .

فى سبتمبر (أيلول) ، انتقل بعائلته من نورووك كونيكتيكات إلى مسكن جديد فى بروكلن نيويورك ، ليكون قريباً من عمله .

فى ٢/١١ ، تحولت « السمير » من مجلة نصف شهرية إلى جريدة يومية ، وظهرت فى ٤ صفحات من قطع الصحف العادى .

١٩٣٧ فى النجف بالعراق ، أعادت كل من مطبعة الغرى ومطبعة الراعى طبع « الجداول » بدون استئذانه .

١٩٤٠ فى نيويورك ، صدر عن مطبعة جريدة « السمير » اليومية ديوان « الخمائل » ، فى ١٩١ ص .

فى ١٤/١٢ ، فى نزل سانت جورج ببروكلن نيويورك ، أقيمت له حفلة بمناسبة نشر « الخمائل » . وقد أصدرت « السمير » عدداً ممتازاً استوعب كل ما قيل فى الحفلة .

فى ١٧/١٢ ، فى منزل أبى ماضى ، عمد الأب مكاريوس المر روبرت بن إيليا . وكان كفيل روبرت المطران أنطونيوس بشير وسليمة امرأة عمه .

١٩٤٣ دعا توفيق فخر للتعاون معه فى تحرير « السمير » ، فلبى هذا الدعوة ، ورافقه حتّى النهاية .

فى ٢٢/٣ ، فى مدينة نيويورك ، توفيت والدته سلمى ، وكانت تقطن فى المنزل رقم ٢٥٣ شارع ٨٤ فى بروكلن . وفى ٢٤/٣ صُلّيَ على جثمانها فى كاتدرائية القديس نيقولاوس الأرثوذكسية ، ثم شيعت إلى مدفن جبل الزيتون حيث وُوريت .

في ٥/١٠ ، في بروكلن نيويورك ، ترأس حفلة تأبين الطبيب الشاعر رزق حداد ، التي أقيمت في قاعة الدفان وولدك .

في ١٠/٣١ ، دشن المبنى الجديد لجريدة « السمير » ، وقد أقيمت حفلة ترأسها إبراهيم قرعان .

١٩٤٤ في مارس (آذار) ، عُرض فيلم « رصاصة في القلب » ، وفيه غنى الموسيقار محمد عبد الوهاب مقاطع من قصيدة « الطلاسم » .

في ٧/١٤ ، توفيت المطربة أسمهان قبل أن تغنى أبياتاً من قصيدة « المساء » ، كان قد لحنها لها رياض السنباطي .

١٩٤٦ في ٢/٢ ، في بروكلن نيويورك ، ترأس الحفلة التي أقيمت في منزل عبد المسيح حداد ، بمناسبة زفاف ليلى ابنة الأخير على فريدريك عبد النور .

في ٣/٢٧ ، في بروكلن نيويورك ، ترأس حفلة تأبين نسيب عريضة التي أقيمت في قاعة الدفان وولدك .

١٩٤٧ في ٥/٢٤ ، في ميلفورد بنسلفانيا ، ترأس حفلة تأبين نجلاء صباغ التي أقيمت في الكنيسة الكاثوليكية .

في الصيف ، عهد إلى محام في بيروت أن يلاحق الدعوى ضد إبراهيم الزين صاحب مكتبة العرفان لطبعه ديوان « الجداول » بدون استئذانه . كما سلم إلى محام آخر الدعوي ضد المطرب محمد عبد الوهاب .

١٩٤٨ دعته الحكومة اللبنانية ممثلا لصحافة المهجر في مؤتمر اليونسكو الذى عقد في بيروت ما بين ١١/١٧ و ١٢/١١ .

في نوفمبر (تشرين الثاني) ، في بيروت ، أخرجت مكتبة صادر طبعة ثانية لـ « الخمائل » ، صادف ظهورها زيارته للبنان .

في ١١/١١ ، وصل إلى مطار دمشق قادماً من الولايات المتحدة .

في ١١/١٤ ، زار المحيدثة مسقط رأسه ، وهناك في نادى المدرسة ، أقيمت له حفلة تكريمية .

في ١١/٢٧ ، أذيعت مقتطفات من شعره ، كانت مديرية الدعاية

والنشر والإذاعة قد دعته لإلقائها .

في ١٢/٢١ ، صدر مرسوم بمنحه وسام الاستحقاق اللبناني الفخري المُذهّب .

١٩٤٩ في ١/٤ ، في فندق الريجنت ببيروت ، أقام هو حفلة ترأسها فؤاد عمون ، مدير الخارجية العام ، الذي علق على صدره وسام الأرز الوطني اللبناني من رتبة ضابط .

في ١/٦ ، في مدرج الجامعة السورية بدمشق ، أقامت الحكومة السورية حفلة له برعاية الرئيس شكري القوتلي الذي علق على صدره وسام الاستحقاق الممتاز .

في ١/١٦ ، غادر دمشق عائداً إلى أمريكا على إحدى طائرات شركة بان أميريكان .

١٩٥٠ في ٥/٣٠ ، في بروكلن نيويورك ، ترأس حفلة تأبين ندرة حداد التي أقيمت في قاعة الدفان وولدك .

في أوائل نوفمبر (تشرين الثاني) ، دخل مستشفى باي ريدج ، في بروكلن نيويورك ، وفي ١٢/٩ غادره . وقد حضر أخوه مراد ، من ميامي فلوريدا ، للإشراف على « السمير » .

١٩٥١ في ٩/٨ ، في الكاتدرائية الأرثوذكسية ببروكلن نيويورك ، تزوج ابنه رتشرد من ماري لويز كيرك . وقد بارك القران المتروبوليت أنطونيوس بشير . وكان الشاهدان روبرت شقيق العريس ، وجين شقيقة العروس .. وللمناسبة أقيمت حفلة في قاعة فندق بوسرت ، ببروكلن ، وكانت أول مرة يخطب فيها أبو ماضي بالإنجليزية .

١٩٥٢ في الربع الأخير ، في نيويورك ، نشر أخوه مراد « السنابل » ، في ٢٠٨ ص .

١٩٥٤ في ١٢/٥ ، احتفل بيوبيل « السمير » الفضي . وكان منظم الحفلة توفيق فخر .

١٩٥٥ في فبراير (شباط) ، اتهمه روكس بن زائد العزيزي بسرقة قصيدة

« الطين » من شاعر بدوى اسمه على الرميثى ، قيل كان يعيش فى البادية الأردنية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

١٩٥٧ فى الربيع ، حجب « السمير » ، وباع المطابع وموجودات الإدارة .

فى يوليو (تموز) اضطر إلى دخول المستشفى النرويجية ، فى بروكلن .

فى ١١/٢٣ ، فى بروكلن ، توفى بالسكتة القلبية ، وكان يقطن المنزل رقم ٢٥٩ شارع ٨٥ .

فى ١١/٢٥ ، نشرت أرملته وأولاده وشقيقه نعياً فى « الهدى » . وفى نفس اليوم أقامت الجالية حفلة تأبين فى قاعة كاتدرائية القديس نيقولاوس الأرثوذكسية ، فى بروكلن ، حيث كان يرقد جثمانه . وقد ترأس الحفلة صديقه فوزى البريدى . وفى هذه الحفلة ، أعلن إميل مطر ، قنصل لبنان العام ، منح الحكومة اللبنانية الفقيد وسام الأرز الكبير من رتبة كومندور .

فى ١١/٢٦ ، صلى المتروبوليت أنطونيوس بشير عـــلى جثمانه فى الكاتدرائية ، ثم شيع ووُورى . وقد ودعه شقيقه مراد بأبيات رقيقة .

سجلت إحدى شركات التلفزيون مناظر الجنازة ووقائعها ، كما سجلت جميع الخطب التأبينية على شريط صوتى .

فى ١٢/١٨ ، نشرت « البيان » النيويوركية عدداً خاصًّا لما قيل فى الشاعر .

١٩٥٨ فى ١/٢٣ ، فى منتدى الجامعة الأمريكية ببيروت ، أقيمت حفلة ذكراه ترأسها ميخائيل نعيمة ، كما أقيمت حفلة أخرى بدار المعلمين العالية ببغداد .

فى ١/٢٨ ، فى النادى العربى بدمشق ، أقيمت حفلة ذكراه بحضور الرئيس شكرى القوتلى الذى أصدر مرسوماً بمنحه وسام الإخلاص من الدرجة الممتازة .

فى فبراير (شباط) ، قرر مجلس بلدى بيروت إطلاق اسمه على أحد شوارع العاصمة تكريماً له :

في ٢/١٢ . في القاهرة . أقامت جمعية الأدباء المصريين ندوة عنه ، قدمها عبد الحليم عبد الله . واشترك فيها : شوقي ضيف ، كمال نشأت ، محمد عبد الغني حسن ، محمد مندور .

١٩٦٠ في يناير (كانون الثاني) ، في بيروت ، نشرت دار العلم للملايين أول طبعة لديوان « تبر وتراب » ، بعد أن أشرف على إعداده جورج صيدح .
في ٩/١٨ ، في كنيسة القديس جورج بواشنطن العاصمة ، تزوج ابنه روبرت بجلوريا آن ابنة سليم وكاترين شامة ، على يد المطران أنطونيوس بشير .

١٩٦٢ في ٥/١٢ . في ميامي فلوريدا ، توفي شقيقه مراد بمرض في كليتيه .

١٩٦٨ في الصيف ، توفي ابنه إدوارد في نيويورك . كما زار روبرت المحيدثة مسقط رأس والده .

١٩٧٢ في الصيف ، زارت أرملته دوروثي لبنان لأول مرة .

البَابُ الثاني

أَشعار مجهولة

مقدمة الباب الثانى

يرجع اهتمامى بالأدب المهجرى إلى أيام دراستى فى كلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، عندما كان أستاذنا الدكتور محمد محمد حسين يحاضرنا فى هذا الأدب . وبقى معى هذا الاهتمام ، وازداد مع الأيام . فلما سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وانتهيت من دراساتى العالية ، وجاء دور اختيارى موضوع رسالة الدكتوراه ، اخترت إيليا ظاهر أبى ماضى كشاعر . وانقطعت بعدها ، لثلاث سنوات متتابعة ، إلى تحليل دواوين الشاعر الخمسة المعروفة تحليلا زمنيًّا ، لتحديد معجمه اللغوى وكذلك تطوره ، مستخدماً فى ذلك « الكومبيوتر » . وجرتنى هذه الدراسة إلى تأريخ جزء كبير من أشعار أبى ماضى المعروفة ، وإلى اكتشاف أن هناك أشعاراً له لم ينشرها شاعرنا . فأخذت أجمع هذه الأشعار المجهولة الثابتة حتى تجمع لدى هذا الديوان الجديد الذى أضعه بين يدى القارئ ، والذى يبلغ ١٥٧٠ بيتاً . فإذا عرفنا أن مجموع أبيات دواوين أبى ماضى الخمسة المتداولة هو ٨٣٤٠ بيتاً ، رأينا أن الزيادة الجديدة مقدارها ١٨,٨٢ فى المائة ، وهو مقدار له وزنه حتى لو نظرنا إلى هذه الأشعار المجهولة نظرة كمية بحتة .

ولا أدرى لماذا لم ينشر أبو ماضى هذه القصائد ضمن دواوينه . أكان « يهملها خشية الناقدين ؟ » ، كما يقول جورج صيدح فى « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية » (ط ٣ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٤ ،ص ١٢٩) ، أم أن هناك أسباباً أخرى دفعته إلى ذلك ؟لقد تعمّد مثلا أن ينسى « إلى النابح العاوى » — كما تعمد أن ينسى غيرها — وكأنها لم تُنْظم ، وهى القصيدة التى كتب عنها « معجب » ، فى مرآة الغرب » ، ١٩٢٦/٢/١٩ ، ص ٤ ، يقول :

« على أنى أقدر أن أقول إن القصيدة التى ظهرت فى
« المرآة » منذ عهد قريب بلا توقيع سيكون حظها من
الخلود كبيراً لما فيها من السلاسة والرقة وأداء المعنى المبتكر

بلا تكلف ولا تعسف ، مما يشهد لناظمها بالمقدرة على التصرف بالمعانى والألفاظ كما يشاء .

إن تلك القصيدة ستخلد ، وإن كان صاحبها على ما يظهر من تكتمه لا يود لها الخلود . فإن بقاء القصيدة أو زوالها لا يتوقف على رغبة ناظمها ، ولا على رغبة سواه ، ففيها من الأبيات ما يصح أن يستشهد به الناس فى كل زمان ومكان » .

وسواء أكان هذا الديوان ، كله أو بعضه ، من جَيِّد شعر أبى ماضى أم ليس من جيده — حسبما كان حكم القارئ عليه — فهو لا يجب أن يغفل فى دراسة شاعرنا خاصة ، وفى دراسة الأدب المهجرى عامة ، من ناحية ، ولا فى الدراسة اللغوية من ناحية أخرى . فكم تعثرنا فى دراستنا الأدبية واللغوية على السواء بسبب إهمال النصوص وفقدها . وكم كان صادقاً جورج صيدح حين قال ، فى كتابه ص ١٢٩ :

« عندنا تراث غال من شعر المناسبات تركه لنا الشعراء القدامى ، وزاده غنى الشعراء المحدثون والمعاصرون ، فإن أهملناه قد لا يخسر الشعراء شيئاً ، ولكن الأدب العربى يخسر أشياء . وأية خسارة أفدح من أن نهمل ديوان المتنبى برمته ، ونصف « الشوقيات » ، وقسماً كبيراً من شعر القروى وأبو ماضى وفرحات ؟ » .

وكما سيرى القارئ ، فإن معظم شعر هذا الديوان شعر مناسبات . والمناسبة — كما يقول جورج صيدح أيضاً ، ص ١٢٤ — ١٢٥ :

« لا تعيب الشعر قدر ما يعيبه نقصان الحس والتجربة الفردية والعبرة الإنسانية فى المناسبة . وليس على الشاعر أن يخنق عاطفته فى المناسبة ، بل أن يمثّل عاطفة المجتمع فى عاطفته ، سواء شكر أو امتدح أو رثى أو هجا .

المناسبة عند شاعر كإيليا أبو ماضى ، لا تخلق الأفكار

والخواطر ، بل تهيئ لها فرصة للظهور . وإنك لتقرأ
قصائد المناسبات فى ديوانه فتشعر أنه غمر المناسبة وسما
فوقها لأن روحه تحركت بإلهام صادر من النفس لا من
خارجها . وأنت لا تهتم بالمحرك الذى هو المناسبة ، إلا
كما تهتم باليد التى أدارت زر الكهرباء حين امتلأت
غرفتاك بالنور » .

ولا شك أننا نستقى معلومات جديدة عن أبى ماضى من قراءتنا لهذه الأشعار المجهولة . فنحن نعرف الآن أن « اللواء » و «العلم » و « الشعب » القاهرية ، كانت من الجرائد التى نشرت أشعاراً لأبى ماضى أيام كان فى مصر . ونعرف أن أبا ماضى لم يكن جديداً على الجالية العربية عندما جاء إلى سنسناتى أوهايو أواخر عام ١٩١١ ، فقد تقدّمته قصائده إلى أمريكا — قبل أن يحل بها — على صفحات الجرائد المهجرية . ونعرف أيضاً أنه كان قادراً على الدعابة البريئة قدرته على الفلسفة المتعمقة ، وقادراً على المناظرة الشعرية الحُبِّيّة قدرته على المناظرة الهجائية ، وأنه لم يكن يلجأ إلى الهجاء لطبيعة فيه ، وحبه لهذا الفن ، وإنما كان يلجأ إليه مضطرًّا للدفاع عن نفسه . ونعرف أنه كان مُجيداً فى هذا الفن الشعرى إجادته فى غيرها من الفنون الشعرية ، وأنه كان نبيلا مع خصومه ، كريماً ، فلم يعبأ بنشر أى من قصائده الهجائية فى أى من دواوينه ، بل تركها للنسيان مطوية فى صفحات الجرائد . ثم نعرف أن الرجل كان ذا وعى إنسانى يدفعه إلى الدفاع عن المظلوم أيًّا كان وأينما وجد ، وأنه كان شجاعاً غير هياب ، يُبدى رأيه دون خوف . ثم نعرف أيضاً أنه كان قوى الذاكرة ، قادراً على ارتجال الشعر فى الحفلات عندما يطلب إليه ، وأنه كان يحب الطبيعة حبًّا جعله يحلها محل الصدارة حتى فى مراثيه . ثم إنه كان قارئاً واسع الاطلاع ، مستوعباً لما يقرأ ، مما جعل مستودعه اللغوى كبيراً ، وأن بعض مطربى المهجر لحّن بعض قصائده وغنّاها . هذا بعض ما نستدل عليه من هذه الأشعار المجهولة .

وكنت أود — لإتمام الفائدة — تذييل الأشعار ببعض الشروح والتعليقات ، وتذييل الكتاب ببعض الفهارس ، ولكننى — رغبة فى عدم تضخيم الكتاب — اكتفيت

بإيراد الأشعار مع بيان مصادرها . هذا ، وقد رتبت الأشعار ترتيباً زمنيًّا ، مفضلا هذا الترتيب على الترتيب الموضوعى أو الترتيب حسب القافية .

أما نسخ دواوين أبي ماضى التى اعتمدت عليها وكانت مرجعى فى تحديد الأشعار المجهولة فهى :

١ — « ديوان تذكار الماضى » ، الجزء الأول . الإسكندرية ، المطبعة المصرية ، ١٩١١ . ٨٥ ص .

٢ — « ديوان إيليا أبو ماضى ، الجزء الثانى » . نيويورك ، مطبعة مرآة الغرب اليومية ، ١٩١٩ . ١٩٢ ص .

٣ — « الجداول » . نيويورك ، مرآة الغرب ، ١٩٢٧ . ١١٢ ص .

٤ — « الخمائل » . نيويورك ، مطبعة السمير اليومية ، ١٩٤٠ . ١٩١ ص .

٥ — « تبر وتراب » . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ . ٢٣٢ ص .

وطبعة هذه النسخ هى الطبعة الأولى الأصلية التى أصدرها أبو ماضى بنفسه ، باستثناء « تبر وتراب » الذى أشرف على إصداره جورج صيدح ، بعد وفاة الشاعر . فأى أشعار لأبى ماضى لم تَرِد فى هذه الدواوين اعتبرتُها أشعاراً مجهولة .

بقى أن آمل أن يكون عملى هذا فاتحة اهتمام جديد بأدب المهجر .

١

إلى بطل الوطنية
الشيخ عبد العزيز جاويش

لئن حجبوك عن مقل البرايــا   فما حجبوا هــواك عن الصدور
وإن تَكُ قد حُبِستَ وأنت حر   فكم في الحبس من أسد هصور
كبير القــوم أكبرهم خطوبًا   لذاك رُميت بالخطب الكبــير
لقد أعْلَيْتَ قدر السجن حتى   أحب السجن سكانُ القصــور
ولا عجب إذا أُسْكِنْت فيــه   فكم في الليل من قــمر منير
تعددت الطيــور فــلا حبيس   سوى الغرد الجميل من الطيور
يقول الشامتون : السجن يُزرى   لئن صدقوا فبالجانى الكفــور
وما في صحبة الأشرار عيب   على الداعى إلى ترك الشرور
فصبرًا، يا نزيل السجن ، صبرًا   فما عرف الهناء سوى صبور
وحسبك عطف هذا الشعب فخرًا   وحسب عداك توبيخ الضمير

٢

مصر والاحتلال

خلّنى أستصرخ القوم النياما … أنا لا أرضى لـ «مصر» أن تُضاما

لا تلُمْ فى نصرة الحق فتى … هاجه العابث بالحق فلاما

أو فلُمْنى إن قلبى كلّما … زدت فى تعنيفه زاد هياما

سوف أشكو الهم إن أحرجنى … ربما خففت الشكوى السقاما

وقفة فى شاطئ « النيل » معى … نقرئ « النيل » التحايا والسلاما

وأناجيه أمانى أمة … منعوها ماءه إلا لماما

علّهُ يبعث من أسراره … قوة تبعث فى الشعب اعتزاما

قسما بـ « النيل » لو أن به … ما بنفسى من جوى سال ضراما

لست أنسى ليلة بتُّ بها … والأسى يدفع عن عينى المناما

أرقب الأقمار فى أفلاكها … مثل ما يرقب راعيها السواما

لم يؤرقنى اشتياق أو هوى … ما الهوى بغية من بالمجد هاما

راع نفسى أن « مصرا » روّعت … بأبى « مصر » ومن فيها أقاما

حسب « مصر » أنها الأرض التى … أمن الله بها « البيت الحراما »

وبنيها إنهم نسل الألى … عركوا الدهر فتيًّا وغلاما

كرمت « مصر » وأهلوها فما … نقضت عهدًا ولا خانوا ذماما

كان للأحرار فيها موئل … يعصم الحر فلا يخشى اهتضاما

ثم هاض الدهر من جانبها … إنما يهتضم الدهر الكراما

أربى « مصر » على رغم العدا … لست أعنى بالعدا إلا الطغاما

لست مصريًّا ولكن نسبة … بيننا تجمع « مصرا » و« الشآما »

أمة ترتقب استقلالها … مثلما يرتقب الصادى الغماما

ما لهم يسعون فى إيذائهـــا ؟ مارمت سهمًا ولا سَلَّتْ حساما
زعمـــوا إصلاحهــــا وهى التى ما شكت غير همو داء عقـــاما
حبسوا « النيل » على نفعهمـــو وأعاضوها من الرى الأواما
فإذا ما صرخت تشكو الصـــدى جعلوا القانون فى فيهـــا لجامـــا
أنكروا خطوتهـــا نحو العــــلا « رُبَّ ذى لب عن الحق تعامى »
ورمــــوهـــا بالتوانى ، ويحهم أخمول إنهـــا تهوى السلامـــا ؟
قد خلت تسعة أعـــوام على شقوة « النيل » سوى عشرين عاما
وانقضى العمر ولما تنجلـــوا فإلامَ أيهــــا القوم ، إلا ما ؟

* * *

كَبِّلوا أقلامنا جهد كمـــو وامنعوا الألسن والصحف الكلاما
وإذا عَزَّ عليكم أننــــــا فى وئام فانشروا فينـــا الخصـــاما
وإذا عز عليكم أننـــــــــا فى حياة فابعثوا فينا الحمــــــاما
ينزع الأرواح من أجسادهـــا أو فكونوا أنتم المـــوت الزؤامـــا
إنما ينقلب الأمــــــر إلى ضده إن جاوز الأمـــــر التمـــاما

٣

روزفلت ومصر

خطيبَ الأمس ما أنصفت «مصرا» ولا أنصفت ماضيك القريبا
ولكن كنت للباغي علينـــا أقومى ، إن للباغي ضريبـــا
لعمرك ما حَلَلْتَ بنـــا صديقًا ولكن كنت طَوَّافًا مُريبـــا
أطعت بنا الوشاة ، وما عهدنـــا — وحقك — واشيًا إلا كذوبـــا
كأنى بـ « العميد » إليك أوحى بما أوحى ، فقمت بنا خطيبـــا
تحاول أن تحببهم إلينـــا متى ألفيتنا نهـــوى الخُطُوبـــا ؟
وتأمل أن نبيت على قنوط كأن اليأس ما قتل الشعوبـــا
أيا ضيف «الكنانة» جُرت فاقْصُدْ فما شعب « الكنانة » دون « كُوبا»
أترجو أن تكون لنا نصيرًا وترجو لو تكون لهم حبيبـــا ؟
لقد خدعتك ، يا «روزفلت» ، منهم زخارف تخدع الفطن الأريبـــا

٤

عيد الحرية العثمانى

هذا مجال ، فهل فى الحى قَوَّالُ ؟ إنى على العجز فى المضمار جوَّال
ما أجمل القول والآذان صاغيـة والصمت حيث على الأسماع إقْفَال
حسبى وحسبك أن الشمل ملتئم والصفو دانٍ وللأيام إقبـال
وحسب شعرك هذا العيد من سبب إذا نَبَتْ بك أسباب وأوصال
لم يبق فى الشرق من قطر ولا بلد إلا وفيه احتفالات وحُفَّـال
فانشر قوافيك فى الآفاق ، فهى على الـ أكباد ماء وفى الأذواق جِرْيال
إنى أراك مطاعًا فى شواردها ماأنت ممن على الأشعار يحتـال
إن القوافى إذا أحكمت عقدتها فما يعيبك إكثار وإقـلال
وإن أجَدْتَ فلا تعبأ بذى سفه فحيثما كان مجد كان عـذال
ففيم صمتك لا واشٍ ولا رَصَدٌ يُخْشَى ولا ظالم لِلْحُرِّ يغتال ؟
إن كنت تبخل بالأقوال تملكهـا فكيف جودك بالدنيا ولا مـال ؟

* * *

طال السكوت ، ومالى فيه من أرَب وإنما بى لهـذا العيد إجـلال
عيد إذا عُدَّ فى الأعياد زَيَّنَهَا كالشمس فى الشهب ، هَلْ للشمس أمثال ؟
عيد رآه ذَوُو الحاجات فابتسموا شوقًا وكم لذوى الحاجات آمـال
تفاءلوا أن « تَمُّوزا » يكون لهم عيدًا كغيرهم ، قد يصدق الفال
« تموز » أنت مُنيلُ الشرق بغيته فى حين أسْمَحُ قَوْمٍ فيه بُخَّال
بتنا نود شهور العام أجمعها « تموز » أو أن يوم العيد أجيال

* * *

باد الزمان الذى تُخشى غوائله فينا ، وبُدِّلَتْ الأحوال أحوال
وبات طاغية الأملاك مُعْتَقَلا له من الهَمِّ أصفاد وأغـلال

لم أنسه – وهو فى « يلديز » ممتنع ... خوف المنية ، إن الخوف قتّال
والشعب قد جاش كالبركان من غضب ... أو الغضنفر بانت عنه أشبال
والجيش مندفع كالسيل من حنق ... والبيضُ مُشْرَعَةٌ والرمح عَسّال
وللقذائف حول القصر فرقعة ... يكاد يحدث منها فيه زلزال
وللبنادق أصوات إذا طرقت ... أذنيه أيقن أن الشعب فعّال
لما رأى الموت أمسى منه مقتربًا ... بكى بكاء صغير ما له آل
أمسك عليك دموعًا غير مجدية ... دمع المُضَيَّع دمعَ الشعب إذلال
نقضت عهدك لما صرت مؤْتَمَنًا ... لو عاهد الذئب أوفى وهو ختال
قم فانزع التاج طوعًا قبل تنزعه ... عنك العوالى فقد ضاقت بنا الحال
ودّعْ سرير « بنى عثمان » عن كثب ... ما أنت أهل له ، للملك أقيال
الملك لاقَ بمن كـ « الرشاد » حِجًى ... هيهات ما لـ « رشاد » الملك أمثال
به المنازل أضحت وهى عامرة ... وكنت فيها وكانت وهى أطلال

* * *

« دار السلام » سقتك السحب هامية ... مادام للسحب فى الأكوان تجوال
إنى أرى فيك « بغدادا » وأبصر فى ... بُرْدِ « الرشيد » « رشادَ » الملك يختال
يَعُدُّنى القوم من نُزّال « مصر » ولى ... قلب على البعد ممن فيك نزّال
إمّا تَنَتْ بصرى عنك الجبالُ فما ... كانت لتحجب سمعى عنك أجبال
يادرة الشرق ، دُمْتِ الدهر حالية ... فالشرق لولاك أمسى وهو معطال

٥

نفثة مصدور

سوى « لبنان » يمقتـه فؤادى — وغير بنيـه أمنعهم ودادى
بلاد الله واسعـة ولكن — تضيق لدىّ إن ضاقت بـلادى
بلاد قد طبعت على هـواها — كما طبع الزمـان على عنـادى
فما أنفك أطمح للمعـالى — ولا ينفك يبخل بالمـراد
يصوب كل حين كل سهـم — إلى فلا يصيب سـوى فـؤادى
لقد كثرت خطوب الدهـر عندى — ولم تبرح لدىّ على ازديـاد
لعمر أبيك لـو كانت نضـارًا — أمنتُ عليه من داء النفـاد
نحلت من الهـموم ، فلـو ترانى — لما ميزت طيفى من سـوادى
ولا أدرى وقد طـال اغترابى — لمن أشكو وقد طال انفـرادى
فلولا يشمت الأعـداء منى — جرى دمعى فأزرى بالسهـاد
أضن بـه ولى قلب كـريم — جواد لا يضن بمستفـاد
شعوب لا تعد ولا كقـومى — تساوى باعتقادهم اعتقـادى
أحن إلى لقائهم وأصبـو — كما حنت إلى الماء الصـوادى
يكاد الشوق ينقلنى إليهـم — لو ان الشوق ينقل غير بـاد
تُرى ، هل عندهم أنى ودهرى — لأجلهم أبيت على جهاد ؟
ففى أرق إذا غفلوا ونـاموا — وفى خـوف ولو أمنوا العوادى
كرام فى زمان ليس فيـه — كريم الكف فى الكرب الشداد
يزينون النجاد إذا احتبـوه — ويزدان العـوالم بالنجـاد
شمـوس يستضاء بهم ، غيوث — إذا سئلوا ، ليوث فى الطراد
ولكن ساءت الأحـكام فيهم — فساءوا سمعة فى كـل نـاد

تمادوا فى التساهل مع أناس ... تمادوا فى النقائص والفساد
فراج الظلم حتى بــات سهلا ... وإن الظلم أجدر بالكساد
وبات العدل مضطهداً لديهم ... وهم أولى بذاك الاضطهاد
فيا لهفى على « لبنان » يمسى ... وأهلوه على وشك الحــداد
عليل يستغيث ولا طبيــــب ... ومأسور وليس هنــاك فــــاد
يسوم الساكنيه الخسف غِرٌ ... غوِىٌّ ضل عن نهج الرشاد
وأحزاب كما أدرى وتــــدرى ... تنادى بالوفـــاق ولا تنادى
رأوا فى الشعب راحلــة ذلولا ... على وهن ، فكانوا كالقُـــراد
وفى « لبنان » مرتبعاً خصيباً ... على ضعف فكانوا كالجـــراد
فما تركوا لنا مجــداً طريفــاً ... ولا أبقوا على مجد تــلاد
ستأتيهم شوارد مقلقـــات ... تقيم الهــاجعين عن الوساد
أشد على النفوس من المنايــــاً ... ومن وقع السيوف على الهوادى
يُحَبِّرُها فتى فى الشعــر فذ ... « حبيب » دونه و « أبو دؤاد »
يغرهم سكوت الشعب حيناً ... ولا يدرون ما تحت الرمــــاد
ولا يدرون أن الشعب سيـــل ... إذا ما انصب أفعم كــل واد
وبحر ليس يسلم راكبــــوه ... فإن البحر صعب الانقيـــــاد
فإن يــرقد فإن لكل جفن ... ولا نكر نصيباً فى الــرقاد
لنا دَيْن عليهم غير نـــــذر ... وإن الدَّيْن أحرى بالسداد
فإن دامت عمايتهم وداموا ... ودام الظلم يجرى فى العبــاد
فأنذرهم بيـــــوم مستطير ... يطير لهوله قلب الجمـــاد
تنوب به عن القلم العـــوالى ... وأنهار الدمــاء عن المــــداد

٦

نجوى لبنانى

لا الغيد تصبينى ولا الأقداحُ مهما تغالى فيهما المداحُ
إنى امرؤ كَلِف بإدراك العلى دأبى الجهاد وغايتى الإصلاح
أهوى بلادى دانيًا أو نائيًا أعَلَىَّ فى حب البلاد جُناح ؟
«لبنان» ، لست أبى ، ولست فتاك ، إن صرفت فؤادى عن هواك رَداح
زعم العواذل أن سلوتك ، ويحهم غير السلو لمن أحب يتاح
ما إن هجرتك عن قِلًى لكنما قلب إلى نيل العلى طماح
« لبنان » ، حسبى أننى لك أنتمى وكفاك أنى البلبل الصداح
أشدو بذكرك ما بقيت ، ومرقمى تجرى به فوق الطروس الراح
قالوا : سَكَتَّ . فقلت : ليس بضائرى بعض السكوت كأنه إفصاح
فلربما صَمَتَتْ شفاه ذَوى الهوى عَمْداً ، لكى تتخاطب الأرواح

* * *

شيخ الرواسى ما لأهلك أصبحوا لا الحزن يجمعهم ولا الأفراح
كالغصن يَسْكُن كلما سَكَن الصَّبَا ويميل أنى مالت الأرياح
عبثت بهم أهواؤهم فتفرقوا شيعًا ، وليس مع الخلاف نجاح
لا يملكون مع الزمان قيادهم كالفلك تجرى ما لها مَلاَّح
لله أنت إذ الزمان مسالم وبنوك كوكب سعدهم وَضَّاح
أيام كان عليك من صنع العلى حلل ، ومن نسج الفخار وِشاح
بالأمس يرهبك الزمان وصرفه واليوم بات حماك وهو مباح
لم يبق شىء فيك لم يعلق به الا أكدار ، إلا الماء فهو قراح
أضحى صباحاً ليل «مصر» بـ «يوسف» فعلام ليس لليلنا إصباح ؟

سعدت به وبعهده ، في أرضنا ... يشقى الأمير ويُرْهَقُ الفلاح
وتنال كف الظلم كل أخي نُهى ... حر، ويُخْفَى الحق وهو صُراح
فكأن «بيت الدين» أصبح « يَلْدزا » ... وكأنما هو ذلك السفـاح
نرجو الصلاح من الفساد جهالة ... هيهات ، ليس مع الفساد صلاح

* * *

أبناء ذا الجبل الأشم ، تحيـة ... تزكو ويزكو نشرها الفيـاح
حتَّام أنتم مغمضون على القذى ... لا تنهضون كأنكم أشبـاح ؟
أجهلتم أن البقاء تنـازع ؟ ... أنسيتم أن الحياة كفـاح ؟
فمتى أراكم طارحين خمـولكم ... ولكم غُدُوٌّ للعلى ورواح ؟
بالعلم فاعتصموا فَلَمْ أرَ سُبَّةً ... كالجهل ، فهو لأهله فضاح
فالعلم في الرجل القوى فضيلة ... والعلم في الرجل الضعيف سلاح
هؤلاء أهل «الغرب» قد بلغوا «السُّهى» ... مجداً ، وما غير العلوم جَنَاح
«فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكـرام فـلاح »

٧

عتاب إلى إلياس عطا الله

يا روح « إلياس » ، بالأرواح نفديك إن المليكة تُفدَى بالمماليك
لولا تَجَنّيك لم أحسد أخا ولع ما كان أسعدنى لولا تجنيك
ليم الصدود وما قلبي بمنصرف إلى سواك ، ولا سرى بمهتوك ؟
« كاتبتنا مرة فى العمر واحدة ثن ولا تجعلنها بيضة الديك »

* * *

« نيويورك » ، يامن فتنت الخلق كلهم ماكنت فاتنتى لولا فتى فيك
أخو سجايا . لو ان الله فرقها فى الناس ما أبصرت عينى بصعلوك
هلال لطف وظرف غير منخسف وطود حلم وحزم غير مدكوك
يجود للناس بالعقيان مرقمه إن شاء منسبكًا أو غير مسبوك
فاقت كتابته الكتاب قاطبة وفاق إعلانه إعلان « مَلّوك » !
لو كان يكتب لا « إفرنج » كان له رسم يمثله فى كل مسلوك
لو كنت ذا نَشَب أهديته نشبي لكنّ لا ذهب عند المفاليك
شاء الزمان — ومن يعصي مشيئته ؟— ألا يُرَى الحر فينا غير مأفوك
لولم يَكُ الدهر فَدْمًا لا كفاء به ما بات ينعم فيه كل بَارُوك
يمشى إلينا على تيه يكاثرنا بالمال ما بين مطبوع ومسكوك
حتى لتحسب « كسرى » من بطانته وقد تخال عظيماً قدر « مَنْلِيك »
وكان يهتز قبل اليوم من طرب لو رأى فى النوم أشباح « المتاليك »
دنياى ! قد ضاع فيك كل ذى أدب كما يضيع الشذى فى أنف مضنوك

* * *

يا نفس ، إن الليالى غير عاقلة فإن شكوت أذاها بت أشكوك
صبرًا ، فإن تنقمى أركبتنى خشنًا أو تقنطى فلقد أشمت شانيك
لعلما رقعة تحظى العيون بها من الحبيب فتشفيها وتشفيك

٨

اليهودى التائه

أو كل حامل كشكول

أكل يوم مَخْرَقَهْ   وقصة ملفقَهْ ؟
من أحمق ذى غَرَرَ   أو جاهل ذى فيهقه
وكل يوم طارق   يأخذكم بـ « الهيبقه »
كذا الذى طاف عليـ   كم يَسْتَدِرُّ الصدقه
ويستثير الدين فيـ   كم ، وهو رب الزندقه
فما تراءى شبح   منكم إلا الحقبه
وما أصاب مُوصَداً   فى الحى إلا طرقه
وما رأى مائدة   إلا أمال عنقه
أعجبه سمنكم   فصار مثل العلقه
يمتص أموالكم   مص الهجير الزنبقه
يملأ من جيوبكم   جيوبه المُخَرَّقَه
إن تستحبوا لا يستحى   كذا الإله خلقه
جارى « اليهودى » تائهاً   بل بَزَّهُ ، بل سبقه
فاليوم فى مِنْطَقَة   وفى غد فى منطقه
ياحامل « الكشكول » فى الـ   عاتق ، أين « المنطقه » ؟

* * *

ما عجبى من رجل   صار قفاه مَفْرِقَه
بل عجبى من مَفْرِق   قد صار خلف العَنْفَقَه

فيا لهـا من قـرعـة   بل يا لهـا من مـزلقه !
دائرة مثل الـرحى   بيضـاء مثل « الشرنقـه »
فى البرد تغدو جَمَـدًا   وفى الهجير مِبْصَقَهْ
رأس تظل أرجـل البُرْ   غُوث فـيه قَلَقَـه
فلـو تـراه حاسرًا   ظننتـه قـد حلقـه
هذا هو « السندان » وال   أنف الكبير « المطـرقـه »

* * *

عقَّ بنانى قـلـمى   أضـاع شِعْرِى رونقه
ولا أطاعتنى القـوا   فى الشـاردات المـونقـه
إن كنت لا أرعـاكم   رعى الجفـون الحـدقـه
إلامَ يسـتجهلكم   أجهل من « هبنقـه » ؟
دم القـلوب مـالكم   فحـاذروا أن يهـرقـه
أتجعلون عَـرَقَ الأجـ   ساد منكم « عـرقـه » ؟
أراقكم منطقـه ؟   وقد عـرفتم منطقـه
أم صوته ؟ وصـوتـه   أحسن منـه النقنقـه
أم وجهـه ؟ ولـو رآ   ه القـرد « طاح الحلقـه » !
قومـوا اقرأوا تـاريخه   هل فيـه إلا مُوبِقَـه ؟
فى كل يـوم يبتغى   ضريبـة أو نفقـه
كأنكم بُعُـولـة   كأنـه مُطَلَّقَه
بل كلمـا أحس بالإ   مـلاق أبدى ملقـه
فصـور البحـر لكم   وهو أجـاج « مرقـه »
وصـور الأرض على ا   تسـاعهـا ك « البندقـه »
وحـولـه عصابـة   تجهـل إلا الشقشقـه
ضمائر ميتـة   وألْسُن مُفَرَّقَـه
يـرعى لها عهـودها   كما تـراعى مـوثقـه
قد وافقتـه مثلمـا   وافق شَنٌّ طبقـه

٢٠٦.

لكنهــــا لبِعلّـــة قد نـــزعت منــه الثقــه
والله ، لو كان قصــاً صُ « النّصْبِ » مثل السرقه
لأصبحت أيـــديهم مقطـــوعــة مُعَلّقَــه
وأبصرت أعينـــكم أتقاهم فى المشــنقــه

٩

وُقِفَ عليك الشِّعْرُ

إلى كل حامل كشكول

أسفى على الكشكول كيف تمزقا ... يا صاحب الكشكول ، طال لك البقا
لا يحزننك اليوم أنك مخفق ... ما أنت أول ذى رياء أخفقا
عُقْبَى الحماقة ما علمتَ ، وإنما ... هيهات أن تعظ الحوادث أحمقا
أعييت كلَّ مُهذّب ومؤدّب ... حتى العصا ، وعييت أن تتخلقا
كم ذا تطوف فى المدائن والقرى ... متبجحًا ، متنطعًا ، مُتَفَيْهِقا
متوعداً كل امرئ مستضعف ... متملقًا من يعشق المتملقا
خلَت السنون وأنت تستجدى الورى ... فمتى أراك على الورى متصدقا ؟
جادوك بالموفور حتى أملقوا ... وتلفتوا فرأوك منهم أملقا
أنفقت مالهم كما أنفقته ... الله أعلم كيف باد وأُنْفِقا
لو كان شَعْرًا كنت صاحب لِمَّة ... أو كان لفظًا كنت أغزر منطقا
بددته وعفوت عن أرواحهم ... لله قلبك ما أرق وأشفقا !
مال الشحاذة لا يدوم ، وإن يَدُمْ ... فقد اقتنيت به سعيرًا محرقا

* * *

كم ذا تشيد الباخرات وتبتنى ... مهلا ، فإن البحر أصبح ضيقا
أقلقت حتى « الإنكليز » وطالما ... ظنوا العباب لهم حلالا مطلقا
هلا — وقد هيجت كامن حقدهم — ... صافيتهم وعقدت معهم مَوْثِقا ؟
لا ؛ لا ، فإن هم أغرقوها كلها ... بقيت لديك « سفينة » لن تغرقا
أعنى « المدرعة المصفحة » التى ... تخشى العواصف حولها أن تخفقا
هى طاسة سحرية ، مرها تكن ... فى الماء فلكاً ، فى الفضاء محلقا

قد قال قوم : مغنطيس تحتها ويقول قوم : إن فيها زئبقـا
كذب الذين تقوّلوا ، يا سيدى ! الحق أن بها الجنون المطبقـا !

* * *

جف القذال ، وبات أجرد عارياً لو كنت تحفظ ماء وجهك أورقا
طار السواد عن المفارق وامّحى فاليوم أصبح كل رأسك مفـرقا
لو حـاول البرغوث يمشي فوقـه لم يأمن البرغوث أن « يتزحلقـا »
ضيعت عمرك فى المعاصى كلـه فمتى تحن إلى الفضيلة والتقى ؟

* * *

وُقِفَ عليكَ الشعْرُ حتى ترعوى وعلى الضلال الحق حتى يزهقـا
أنّى حلَلْتَ وَجَدْتَ ثَمّ شوارداً تلهيك إن تلهو وإن تتشـدقا
ملء الشفاه ، فإن هممت بلفظة نَطَقَتْ بها الأفواهُ كى لا تنطقا
تغرى بقلبك كـل هم مقلق وتذود عنك النوم حتى تأرقـا
وتكون إما سرت غرباً مغربـا وتكون إما سرت شرقاً مشرقـا
فإذا رآك إلى لقائك شـيق أمسى إلى التوديع منـه أشوقا
لا « مرحباً » إما نزلت ، ولا إذا أزمعت تسمع من يقول « إلى اللّقا »
يا ساكنى « كَنَدا » ، السلام عليكم إن المنافق بينكم لن ينفقـا
وافاكم ذاك الغراب مبـكراً فمنعتموه بينكم أن ينعقـا
لو لم تكونوا الأسد أو أشبالهـا ما خاف أن يعوى ولا أن ينهقـا
ما مَرّ ذِكْرُكمُ على ذى مسمع إلا تملكـه السرور فصفقـا

١٠

ماذا ؟

ما الطير ضاقت بها الأوكار فاضطربت في الأرض باحثة عن مرتع خصب
تغالب الريح فى الأجواء صاعدة وتتقى الناس عند الحسو والنغب
حتى إذا هبطت فى السفح مُزْدَرَعًا فيه الفواكه من نخل ومن عنب
وأودعت زغبها الأعشاش وانطلقت تقتات بالبسر أحيانًا وبالرطب
ساق القضاء إليها كل محتبل فلم تجز عطبًا إلا إلى عطب
أشقى وأتعس حظًا من مُهاجِرَة فى « الغرب » شرقية الأنساب والحسب
كأنما البؤس خلق من خلائقها فكلما غالبته فاز بالغلب
طلب النوائب فى حل ومرتحل فى دارة الأرض أو فى دارة الشهب
إن تركب البحر فالسمسار يرصدها أو تطلب البر فالدلال فى الطلب
حاموا عليها كما حام النسور على جرحى اللهاذم والهندية القضب
أو كالذباب على صحن من الضرب أو كـ « اليهود » على عجل من الذهب
كأنها الشاة ، غال الموت راعيها فكُلٌ ضرع عليه كُلُ محتلب
هناك يسلبها حكامها ، وهنا أهل الكشاكيل والأكياس والحقب
باسْم المساكين أحيانًا ، وآونة باسْم الهياكل والإصلاح والأدب
موتى الضمائر ، موتى كل عاطفة فليس فيهم — وكم بين اللصوص — أبى
إن يرهقوها ، وهم منها ، فلا عجب لا يعرف السوس غير الفتك بالخشب
فى كل يوم لهم فى قتلها أرب وما لها أرب. فى قتل ذى أرب
تغربت فى سبيل المجد ، واغتربوا طماعة بمجانى كل مغترب
ياليت من شاطروها مالها حملوا شطرًا من الظلم أو شطرًا من التعب

* * *

يا أمة هاضت الأيام جانبهم — وطمّع الضعف فيهم كل مغتصب
لا تأخذوا بأمانىّ مزوّقة — ما دُرُّ أهل الأمانى غير مُخشْلَب
أمّوا لكم ، أنتم أولى الأنام بها — فراقبوا الله مستحدث النشب
هذا السلاح الذى يشرى السلاح به — هذا المسمى بحق كاشف النوب
هذا المنجى من الآفات صاحبه — إن تفقدوه فقدتم أنفع الصحب
لا تحسبوا أننى بالشح آمركم — إن المواطر عندى أفضل السحب
وإنما رَفْدُكُمْ من لا خلاق لهم — كَمُلْبِسِ الخز ذات الظليف والغبب
جود الكريم على من يستخف به — مضيع ، كالحيا فى الموضع الخرب
ماذا ؟ أيعجبم أهل اللؤم عودكم — وأنتم النجب نسل السادة النجب ؟
وتطربون ، وسيف الموت منصلت ؟ — وتلعبون ، وشر الناس ذو اللعب ؟
إن كان صوتى لم يبلغ مسامعكم — فذاك من حسن حظ البوم والخرب

* * *

ثلاثة لا أصابت غير أولها — أهل النفاق وداء السل والجرب
يقول قائلهم : مهلا إلى « رجب » — كأننى سوف أبقيه إلى « رجب »
إن يعجب الناس من قدم توعّدنى — فإنه عجب أدعى إلى العجب
إن الغريق إذا ضاقت مذاهبه — لا يحمد البحر ذا التيار والعبب
تب النحاة ، وتب المؤمنون بهم — أهل السخافات والتضليل والكذب
كم جوّزُوا من كلام لاجواز له — وأوجبوا من أمور قط لم تجب
وكم روَوْا من أحاديث ملفقة — وزوّروا من حكايات ومن خطب
النحو والصرف والإعراب أجمعها — سفاسف ، لم تكن من قبل فى « العرب »
هذى تعاليم كسْلَى ما يُدِلُّ بها — إلا فتى « أعجمى » الخلق والنسب
فلا حبا الله نحوياً برحمته — أولى برحمته منه « أبو لهب »
لولا أكاذيبهم ما بات منتصباً — بين العوالى الغوالى فارغ القصب
« ما كنت آمل أن يمتد بى زمنى » — حتى يطاولنى قرد بلا ذنب
يا أجهل الخلق — حتى ناقل القرب — اربأ بنفسك أن يهتاجنى غضبى
أو تطلعن عليكم كل آكلة — ترعى الهشيم ولا تبقى على العشب

تنقض مثل نجوم الرجم هـــاوية في إثر كل رجيم غير ذي أدب

فما تغادر قلباً غـــير منخلع ولا تغـــادر حبلاً غـــير مضطرب

فإن جنحتم إلى كهف ليحجبكم وجدتم الموت في الأستار والحجب

حتى إذا ظن أن الساعة اقتربت جعلت كـــل قريب غـــير مقترب

وما أنا بالذى يهوى البقاء لـــكم لو أن في الموت ما في العيش من كُرَب

١١

حكاية

ربَّيتُ كلبًا صغيرا   وكان ذلك نذرا
وقلت : يحرس داري   إذا أتى اللص سرا
فكنت آتيه صبحًا   باللحم ، والشحم عصرا
حتى إذا اجتاز ستًّا   من الشهور وأخرى
وأشبه الوعل سباقًا   وأشبه البغل ظهرا
وصار كالعلج عنقًا   وصار كالفيل صدرا
وافى إلىَّ صحابى   وأنت بالصحب أدرى
فأبصروا الكلب عندى   عيناه تقدح جمرا
فقال منهم ظريف :   قنوت ، والله ، مهرا !
بحرمة السودِّ إلا   سميت ذا الكلب « نمرا »

* * *

أطعت أمر صديقى   وقد سررت وسرا
لكنما الصفر صفر   و إن دعوناه تبرا

* * *

ترعرع الكلب « نمر »   فصار أعظم شرًّا
يعوى إذا الناس ناموا   فيسمع الناس نُكْرا
وينبح البدر ليلا   وينبح الشمس ظهرا
وكلما مر سارٍ   أو هبت الريح هَرًّا
ويتبع الضيف حتى   إذا استقر استقرا

ويترك العــــظم ملقى   ويسرق الخبـــز جهــرا
فـــروّعَ النشء حـــتى   ما تطلب الدار ذعــــرا
ونَفّـــــــر الطير حتى   ما تألف الطير وكــــرا
فأقبل الحى يشكــــو   فقلت : يا قــوم ، صبرا
لـــو كنت أكسب أجرًا   أو كنت أحـــرز فخـــرا
خنقتُ بالحبل « نمــرا »   لكن للكلب عمــــرا

* * *

« مدينــــة العلم » كانت   لأهلــــــه مستقــــرا
فخانهـــا الدهـــر حتى   بنى بهـــا الجهل حجـــرا

* * *

يا منشئَ الفلك ، مهلا   لا تمخر الفلك بــــرا
ويا كثير الأمــــانى ،   شيدت فى الجــــو قصرا
أضاقت الأرض حـــتى   وَلّيْتَ وجهك بحــــرا ؟
أتــأكل المــال سحتًا   وتقتضى الشعب أجــرا ؟
أتحسب النـــاس حمقى ؟   يا أحمق النـــاس طــرا
لا تلبس الدّينَ ثوبًا   عصر الجهـــالة مـــرا
ولا تقـــاتــل بمكــر   فالله أعظم مكــــرا

* * *

وأنت يا واو « عمـــرو »   حتـــام تتبع « عمــرا » ؟
ولست تجلب نفعــــًا   ولست تـــدفع ضـــرا
إن البلــــية غـــر   أمسى ينـــاصر غـــرا
لا تعذل الشعر إمـــا   جنى عليك الأمَــــرّا
قد كنت قبــــل القوافى   أقل عقــــلا وقــــدرا

* * *

ما فى ضلوعى حقـــــد   ولست أطلب ثــــأرا
لكنمــــا الحُريــأبى   أن يخدع النذل حُــــرا
وأهل « لبنـــان » أهلى   وكنت بالأهـــل بـــرا

١٢

أيا عجل اليهود

توعـــدنى مقلـــد « نفطـــويه » كما تتوعد الأنثى الـــــرجالا
ويعلم أنـــــه دونى مقامـــاً ولكن ينبح الكلب الهـــلالا
ولـــو أغنى ولاح لـــه خيالى لظن المـــوت باغتـــه خيالا
معاذ الله يخلـــق غير شيء فمن هذا الذى خلق المحـــالا ؟
ويكذب « آدم » إما ادعـــاه فإن الناس لا تلد البغـــالا
أبعد اليوم أعجب من عجيب ومقلوب اسمه يبغى النضالا ؟
أظن حيـــاته هانت عليـــه وإلا لاتقى الـــداء العضـــالا
وإما الله شـــاء هـــلاك نفس على ظمإ ، أراهـــا المـــاء آلا
شحا فـــاه فلمـــا مر ذكرى بطرف لهـــاتـــه أمسى سعالا
وكنت نسيت أهل اللؤم حتى نظرت اليـــوم ألأمهم خصـــالا
وإما فكرت بالغـــوغـــاء حتى سمعت اليوم أسخفهم مقـــالا
إذا عُدَّ الأفاضل كان صفراً وصفراً يلزم الجنب الشمـــالا
فواعجبا ، أمـــات الخلق حتى يمارس حرفـــة الأدب الكسالى ؟
ويالهف البلاغـــة كيف ذلت ولهف الشعر كيف غدا مذالا
ويالهف الصحافة يدعيهـــا حمار طالمـــا لبس الجلالا
متى فارقت ، يا هذا ، المراعى ؟ وكيف قطعت ، يا هذا ، الحبالا ؟
أتنهق ، والغضنفر قيد باع وتحسبـــه ومـــا عـــاف القتالا ؟
فما زالت مواضعه حـــداداً وما بـــرحت مخالبه طـــوالا
بلى، أنت الذى بالأمس شدّت عليك يداى فى السَّفَرِ الرحـــالا
فلست بنابغ الشعـــراء إن لم أرُدَّ عليك جُلَّك والسِّحـــالا

أما ، والله ، لو طلت « الثّريا » وجاوزتَ المناكب والقلالا

لما أمسيت إلا دون شسعى ينالك كيف ملت وكيف مالا

فإما تستّر الفودين عنبه فلست بساتر عنه القذالا

ودعوى الفضل لا تجديك شيئاً فقد كنت الحقير ولن تزالا

أيا عجل « اليهود » ، ولست تبراً وإلا كنت أحسن منك حالا

إذا هز العصا « موسى » وأهوى فليس يقيكها قرنان طالا

أتهرب من أمام الليث ذعراً وتزعم أنه لزم الدّحالا ؟

وتجبن ثم تدعوه جباناً ؟ لقد أضحكت ، يا هذا ، الثكالى

ومن تكن الحماقة فيه طبعاً يكن هذا المآل له مآلا

يدافعنى « اللئيم » بكل غمر فلم أرحم ، ولا رحم السخالا

زعانف لست أرضاها مطايا ولا أرضى رءوسهم نعالا

لقد فرست نفوسهم القوافى وإن الحق يفترس الضلالا

إذا حرم الهجاء على حرام فليس يكون فى شيء حلالا

ومن يدرى ويغضى عن فساد فقد خان الفضيلة والكمالا

لتذروهم عواصفها رمالا وتنسفهم ولو صاروا جبالا

وترميهم أوائلها سهاماً وتقرعهم أواخرها نصالا

وتمسى فى حناجرهم جراحاً وتمشى فى دمائهم سلالا

فإن سلموا فقد سلموا ليوم توقاه الأجنة والحبالى

١٣

يا نوح

أين دلائل الطوفان ؟

أهل الفساد وزمـــرة الشيطان كم تدعـون محبـة الأوطـان

خلوا النواح على الربوع وأهلهـا ما ثم من خطـر على «لبنـان»

أنى يضيع ، وأهله أسد الشرى وله من الدولات خير ضمـان

وإذا الضراغم لم تصن أجماتها أيصونها فَسْلٌ من الجعْـلان ؟

أما « البقاع » فلا يُرَدُّ بألسن ثرثارة ، بل بالنجيع القـانى

ردوا على الشعب المهـاجر مالـه لا تبدلـوه حقائقـا بأمـانى

فالقوم حاجتهـم إلى أمـوالهم مثل احتياجهم إلى العـرفـان

تعس الذى رضى الأمـانى ثروة إن الأمـانى ثروة الكسـلان

* * *

قلتم : نذود الضيم عن إخواننا إخوانكم فى غبطة وأمـان

يحميهم علم النجوم ولم يـزل علم الكواكب مكـرم الضيفـان

هم بين أهليه وفى أكنـافهم وكأنهم فى الأهل والإخـوان

وزعمتم بالنـازحين غـرامكم وغرامكم بالأصفـر الرنـان

لو صح زعمكم وكنتم قـوة لوقيتموهم سطوة « العبدان »

جاروا عليهم ، لم يبالوا زاجراً جور القوى على الضعيف العـانى

لهفى عليهم ، كيف روع سربهم وتبدلوا من عـزهم بهـوان

ولقد أتتكم صرخـة استنجادهم فكأنهـا مـرت على حيطـان

باتوا يسامون العذاب ، وبتم تدعـون بالإعـزاز للسلطـان

نمّم فخلتم كل طــرف نائمًا ما أجهل الوسنــان باليقظــنــان
رفع الستار ، وبــان كل مكتّم أتقاتلون الحق بالبهتــــان ؟
لا غرو إما سبّى سفهــاؤكم إن الجريح يسب كل سنــان
ذم الخفافيش الضيـــاء لأنه يعتــاق أقــواها عن الطيران
ومن العجائب أنها تقلى السنى وتظل حائمــة على النيران
خلق الورى ، ولكل نفس غايــة وخلقتم للهذر والهذيــان
أنى نجاتك ، يــا عصافير اللوى ولقد أتــاك كاسر العقبــان ؟

* * *

قُلْ للذى ملأ اليباب سفــائناً : يا نوحْ ، أين دلائل الطوفان ؟
من ذا يسير بها إلى غاياتها ؟ بل كيف تحميها من القرصان ؟
الآن أيقنت البريــــة أنهــا — وإن ارتقت — فرع من السعدان
لا تعذل الصبيان فى سخف، فقد تحوى الكهول سخافــة الصبيان
يضع المسلم كفــه فى كفــه وتظل عينــاه على الهميــان
والله ، لــولا أنه فى مثله ما كان إلا سائق الأظعــان
أو ما تــراه حامــلا كشكوله متنقلا من مــوضع لمــكــان ؟
خبلته شاردة القوافى فــانثنى للذعر يمشى مشية الســرطان
متخبط والشمس فى كبد السمــا فكأنـــه فى حالك الأدجـــان
أمسى يسمى الناثبات قصــائداً وفتى القصائد طــارق الحدثان
فإذا تطيف به اقشعر فؤاده خوف الصغير طوائف الغيــلان
ويظنها فى أكلــه وشرابه وتخالهــا الأجفان فى الأجفان
ياقوم ، أخشى أن يضيع رسولكم من « عنزة » قد ضاع قبل اثنان
إن كان فى أكبادكم من رحمة فتداركــوه بالرســول الثــانى

* * *

ما بــال مصفوع المفارق والقفا يهذى ، كمن قد بات فى سجران
لا تحسدا ، يا أخدعيه ، قذاله عندى لكل منكمــا نعــلان
بل ما لمقلوب اسمه يخفى اسمه والحسن لا يخشى من الإعلان

إن التحجب او يكون فضيلة ... لم يَبْدُ من خدريهما القمـــــران
وإذا هتكت الستر عن متكتم ... لم تلق إلا خــائفًا أو جـــاني
زعم المؤدب أن عيرًا ســـاءه ... ألا يســار بـــه إلى الميــدان
فمضى فقصرت القواطع ذيــله ... وسطت مواضيهـــا على الآذان
حتى إذا جــاء المروض واعتلى ... متنيه ، راب الفارس الكشحــان
لكنه مازال غير مصـــدق ... حتى عــلا صوت كصوت الجان
فاستل صـــارمه فطاح برأسه ... ورمى بجثته إلى الغـــربان
مادام يصحب كل حي صــوته ... فالعير لا يخفيـــه جلد حصــان
إن تستتر هيهـــات تستر مفــرقًا ... آثار شسعي فيـــه كالعنــوان
يا أيها الغــر الذى من أجلــه ... لعن القريض مؤنف الأوزان
ما أنت بالغ ما وطأت بأخمصي ... حتى تنــال الفــرقدين يــدان

١٤

توديع رستم بك

زلت عنا ، فلم نبل ، مثلما زا   ل مع الليل طارق الأحلام
ما كرهت المقام فينا ، ولكن   يأنف الذئب غير سكنى الموامى
كنت ضيفاً فلم يزل بك سوء الـ   ـطلع حتى خسرت عطف الكرام
خلق السوء فى الفتى ليس يخـ   ـفيه جمال الرداء والهندام
وإذا المرء كان غير كريم   فضحته مظاهر الإكرام
لقنتك « الإسلام » عصبة شر   ليتها لقنتك علم الكلام
جئت تنفى الإجرام عنهم ، فأجرمـ   ـت إلى الصدق أيما إجرام
كيف أنكرت ذبحهم أمة « الأر   من » ، ذبح الجزار بعض السوام
ودم الأبرياء ما جف ، ولا جفـ   ـت عليهم مدامع الأيتام ؟
سلبوا الطفل أمه وأباه   ورموه فى النار ذات الضرام
أحرقوا الدور ، روّعوا ساكنيها   وأتوا كل منكر وحرام
جرّعوهم كأس الحمام دهاقاً   واستساغوا دماءهم كالمدام
ما أثاروا حرباً ، ولا ارتكبوا إدّاً   ولم يبسطوا يداً لحسام
ولئن صح أنهم أحدثوا إثـ   ـماً أتنفى الآثام بالآثام ؟
زلة لو وقيتها ، لم تحقّر   من كبار النفوس والأحلام
فتحمّل ، لا شيّعتك الغوادى   لا ، ولا عدت نحونا بسلام
هكذا يقذف النواة فم الآ   كل ، والجيفة الخضم الطامى
وإذا ما بلغت أرض « فروق »   مرتع الظلم ، مربع الظلّام
حيث يقضى الحياة فيها «ضياء»   بين عود وقينة وغلام
حيث يشقى الحر الأبى ، ولا ينعم   إلا زعانف الأقوام

قُلْ لمن أرَّقوا العباد وناموا : إننا ساهرون غير نيام
نحن لا نمقت الحكومة ، لكن نمقت المستبد بالأحكام
إن دين « الإسلام » يبرأ منكم أيها العابثون بـ« الإسلام »
قد سلبتم مال الرعايا وكدتم تسلبون العيون طيف المنام
كشف الخبر عنكم ، فإذا أنـ ـتم لصوص فى صورة الحكام

١٥

إلى شاعر « السائح »

بالقد الأهيف ، بالنهد بالثغر الأشنب ، بالخد
بالمفرق ، بالشعر الجعد بعيون الحور السحّاره

ما شدو القينة فى السحر وهتاف الطير على الشجر
فى الفجر ، ورنات الوتر أحلى من صوت النقاره

ذو البلوى يعشق ذا البلوى فانشد فغناؤك لى سلوى
لو يعطى الشاعر ما يهوى لتمنى تنشد أشعاره

أفديك بروحى ، ياصاح ، وبكل هزار صـــداح
فلأنت حياة الأرواح فاشدد للمزهر أوتاره

ضع كفك ، يا ذا ، فى كفى فكلانا يبحث عن إلف
حلو الأخلاق ، أخى لطف ما بدّل شىء أطواره

كم تشكو همك للناس وبلاؤك منهم ، يا ناس
كن قاسى القلب على القاسى فالحازم يخفى أسراره

صن دمعك عنهم فى الطرف لا تُغْرِى القوة بالضعف
ما ترجو ، يارب الدف ، من شعب يكره أحراره ؟

قد شئت وشئت به اليسرا — وأراد الله به العسرا
فعليه أن يجنى الوزرا — وعلينا أن نجنى عــاره

يا ملكا بين شياطين — صرّح بالحق المكنون
لا ترهب لومة مأفون — ثرثارٍ يخدم ثرثاره

قد آن بأن يبدو النور — ويبين الحق المستور
فليخرس ذاك المأجــور — من قبل نمزق أستاره

ما شــاء الله فقد كانا — لا تبغى الملــة شيطانا
الملة تطلب مطرانا — لا يُؤْذى الجار ولا الجاره

مطرانـًا يعرفه الأمه — مطرانـًا يخلص فى الخدمه
مطرانـًا لم يحصر همه — فى جمع الدرهم والباره

مطرانـًا تغمض عيناه — إلا عن خدمــة مولاه
يعصى الضِّلِّيل ودنياه — ويحب العلم وأنصاره

يا شعبـًا بات بلا أمل — إن ضاق عليك الأمر سَلِ
كم ذئب فى ثوب الحمل — قد سَنّ لقتلك أظفاره

فارغب بالصبر عن الياس — واحذر نزعات الخنّاس
ووساوس أهل الوسواس — فوراء الطّعم الصناره

١٦

انقر يا دف على الطارة

بالحق ، بأحرار البلد ما دام يراعى طوع يدى
وفؤادى يخفق فى جسدى لا أنصر إلا أنصاره

يا قومى ، قد طفح الكيل وتعالى للقمم السيل
وتنكر للصبح الليل واستأسد جعلان الحاره

فدعوا « أيار » وأطياره والخمر ورب الخماره
ولينفخ كل مزماره لنشن على الجهل الغاره

ونقاتل بالصبح الغسقا ونسد على الشر الطرقا
ونضايقه كى يختنقا وتفك يـداه أزراره

ما أثقل ذيَّاك الضيفا أرأيتم «كانونا» صيفا ؟
لا حل على طرفى طيفا أخشى أن يسلب أشفاره

إن مَرَّ على حسن شانه أو طود زعزع أركانه
أو قصر روَّع سكانه أو روض أذبل أزهاره

لو تدرى الأرض به انقلبت أو تدرى الشمس به احتجبت
ومياه «الهدسن» لاضطربت والليل لساقط أقماره

تمساح يخطر فى حُلّةْ   شر القلب من العله
ظِلّ الطاعون ولا ظله   لا جاور إلا سمساره

يا هذا ، أولى بك السفر   فى ليل ليس به قمر
أو فاسكت يحمدك البشر   وتصالح جارتها الجاره

صمتًا ، أو ينطق من سكتا   فَوَحَقّ الشعر إذا رمتا
كفاه ومرقمه انصلتا   هيهات يفيدك ثرثاره

يا حامل مكروب الفتن   قد طال وقوفك فى الدمن
لا تُلْقِ الأمة فى المِحَن   يكفيك الشاعر إنذاره

١٧

وقائلة

أيا « عبد المسيح » عليك منى ... سلام كلما ذُكِرَ المسيح
حببتك لالأنك رَبٌّ وَفْرٍ ... تجود به ، ولا أنا مستميح
ولا أنا من يسير به هواه ... ويخفق كلما هزته ريح
ولكن شاقنى الأدب المصفّى ... وتيَمّنى بك الصدق الصريح
وإنك والوفاء على اتصال ... وبينك والرياء مدى فسيح
ومن عجب ، ولم أصحبك عمرى ... أحسُّ كأننا جسد وروح
لك القلم الذى ما اهتز إلا ... تهيب سطوه القصب الصفيح
لئن أمسيتَ من قوم بغيضاً ... فمكروه من الجربى الصحيح
وإن الشمس ، وهى أحب شىء ... يذم ضياءها الجفن القريح
وهذا الملح يدخل كل جوف ... ويخشى مسه العضو الجريح
وكم فى الناس من مثر كبير ... ولكن ليس كالسمح الشحيح
وقائلة : أعاد غراب نوح ؟ ... نعم ، عاد الغراب ، فأين نوح ؟
غراب ريشه سرق وخز ... وصوت الناعقات به فحيح
ينوح على الصروح وساكنيها ... وما ماتوا ، ولا خَلَتِ الصروح
ولكن فى الغراب النوح طبع ... وأى غراب سوء لا ينوح ؟
قبيح أن يذم الحسن فينا ... قبيح كل ما فيه قبيح
وأقبح أن يظل اليوم حيًّا ... ويَحْوِى البلبلَ الغردَ الضريح
دخيل لو حواه الخلد أمسى ... جحيماً ليس فيه مستريح
أتى ، لم يَدْعُهُ أحد إلينا ... أيا هذا الثقيل ، متى تروح ؟
قد اشتاق الذين نزحت عنهم ... ومَلَّ مقامك القوم النزوح

إيليا أبو ماضى

أهُمُّ بأن أحَدِّث عنه قومى ويمسكنى الإباء فلا أبوح
فأقنع بالأشائر ، وهى نزر لأن القوم أكثرهم فصيح
وإن وراءها ووراء صمتى سهامًا لا تُميت ولا تُريح
وصيحات تزعزع كل طود وتنكر بعدها الضيف المسوح

١٨

يا قومى !

إن المعتز بأموالـــه مثل المعتز بأخوالـــه
فخر الإنسان بأعمالـــه لا بالدينار ولا الباره

ما هذى القصة، يا عُـمَـد؟ أرِجال يرأسهم وَلَـد ؟
لم ينظر قبلكم أحد أسداً تتصيدها فاره

وجبالا تسحبها نمله وبحاراً تُـخزن فى سَلّه
مثلا أصبحتم فى الحِيلّه يتناقله أهل الحاره

أيهاجم كاهنكم نذل ؟ ويسب أديبكم فسل ؟
أجمود فيكم أم جهل ؟ أم تلك النفس الأماره ؟

يا قومى ، دعوة لا واهى يوم الهيجاء ولا لاه
بالخالق ، بل بابن الله لا تؤذوا الله وأنصاره

تب الشيطان وتُبّـاعه والشر ونفس تبتاعه
شجر ملعون زُرّاعه من منكم يعشق أثماره

بل غرس يأكل غارسه ولباس يجرح لابسه
ولهيب يحرق قابسه ومزار يهتك زواره

إن تغسل بالوحل الثوبا يزدد إثمًا ، تزدد عيبا
إن تخضب بالليل الشيبا لا تخفَ الليل أقماره

من يطلب من غر نصرا　　كالمطفئ بالزيت الجمرا
من يحضن ، يا قومى ، الهرا　　لا يجنى إلا أقذاره

يا قومى ، خلوا الأغراضا　　يا قومى ، صونوا الأعراضا
وتَـوَقّـوا ذاك العضاضا　　من قبل يحملكم عاره

أو ما فيكم ذو إحساس　　ينهيه عن شتّم الناس ؟
أنسيتم عام الإفلاس ؟　　فنقصّ عليكم أخباره

ونقيم الميت من لحده　　ونسلّ الصارم من غمده
إن عاد البحر إلى مده　　لا يمسك شيء تياره

ونسيِّرها صحفًا صحفا　　تحكى المدرار إذا وكفا
إن نَـرْمِ الطود بها رجفا　　أو حصنا دكت أسواره

فتزور المنزل والقصرا　　وتزور الأهل والقفرا
ويطالعها سطراً فأسطرا　　من ليس يطالع أسطاره

ويرددها أهل الأدب　　ويغنيها أهل الطرب
وتدار بها بنت العنب　　ويحيي الجار بها جاره

عندى أسرار لم تنشر　　لتمنّى صاحبكم يُقبر
كحديث الفسطان الأحمر ! !　　فليحذر ذاك الدوّاره

ما دامت دارك من خشب　　لا تقذف غيرك باللهب
إن هجت الليث بلا سبب　　لم يأمن جسمك أظفاره

١٩

يا هذا !

خذها أبياتًا مشهوره   كصراخ النفس المقهوره
ودموع البكر المذعوره   قد حَمَّلها الجانى عاره

يا هذا الضارب فى الأرض   فى غير مفيد أو فرض
كم يغضى الشعب ولا تغضى   إلا لتحارب أحراره

أيُفَرِّقُ مال الإحسان   ما بين فلان وفلان ؟
من فَدْم ميت الوجدان   أو غِرّ يجهل مقداره

أو أحمق من ذى الخُفَّين   شرير المِقْوَل والعين
لا يعرف إلا شخصين   دلاَّل الشر وسمساره

إن تُقْبِل هز شواربه   أو تُدْبر هز حواجبه
وأدار عليك عقاربه   وأهان الله ومختـــاره

أدماءُ قلوب العمال   ما بين نساء ورجال
تُعطى لِغَبِىٍّ بطال   ما فارق باب الخماره ؟

عجب ، بل أعجب من عجب   أن يحمل شيخ عقل صبى
وجهول يفخر بالذهب   فخر الأعمى بالنظاره

ما هذا شأن الزُّهَّاد ما هذا شأن العُبَّاد
أضْحَكْتَ الرائح والغادى والجار وأبناء الجاره

لله ، فؤادك ما أقسى ننساك وتأبى أن ننسى
أردد للأرملة الفلسا واترك للعامل ديناره

فالشعب أحق بأمواله من ذاك القفر ومن آلـه
ومن السلطان وعُمَّاله وذئاب « الترك » الغداره

أولى بالمال المجموع عندى من ذاك « المشروع »
شعب فى الشرق ، من الجوع قد أوشك يأكل أطماره

يا قومى ، أرواح البشر أولى بالعطف من الحجر
فسلوا الطواف ، أخا السفر أن يرفع عنكم أوزاره

يكفيكم بذل الآلاف يكفيكم حمل الأضياف
من كل بغيض أو جاف لا يعرف محتاج داره

ذاك المعدوم إذا وجدا لا يحيي الشعب إذا فقدا
أنبيع الوالد والولدا كى نحيي القفر وأشجاره ؟

٢٠

ماذا تقول ؟

«كأنما هو فى حَلٍّ ومُرتحَلٍ — مُوَكَّل بفضاء الله يَذْرَعُهُ»
تخاله فى فجاج الأرض مضطربا — فى قبضة الريح تلويه وتدفعه
كأنه الزئبق الرجراج منفلت — أو مَهْيَعُ الزئبق الرجراج مهيعه
فما يمــر بشخص لا يسائله — ولا يمر بباب ليس يقــرعه
ولا يحرك غيرُ المال مِقْوَلَه — ولا يحرك إلا الشرَّ إصبعُه
لا يسأل الناس عذرًا عن لحاجته — كأن أرْبُعَ هذا الخلق أربعه
ليس البلاء بما يخفى أضالعه — لكنه فى الذى تخفيه أضالعه
لو يقنص البدر أمسى فى حبالته — لكن حماه من العافى تَرَفُّعه
إنى لأغبط شخصًا ليس يعرفه — ولا أُهَنِّئُ إلا من يُوَدِّعُه

* * *

يا جامع المال آلافًا مُؤَلَّفَة — لمن ــ ولا وارث للمال ــ تجمعه ؟
هل أنت طابخه يومًا فآكله ؟ — أم أنت جاعله فى الماء تجرعه ؟
أردد على العامل المسكين فضته — فقد أقَضَّ على المسكين مضجعه
لا ينفع المرء ما جادت به يده — حتى يكون لمحتــاج تبرعه
أليس فى الأرض غير القفر تعشقه؟ — وغير صوت القطا فى القفر تسمعه ؟
أما ترى الشيخ كاد الحزن يقتله ؟ — أما ترى الطفل كاد الجوع يصرعه ؟
حتّام تمسك شيئًا لست صاحبه — وصاحب الشىء ما ينفك يتبعه ؟
أولى بما بذل الجالون أهلهم — فكم تضن بما جادوا وتمنعه
ما البر أن تبتنى دارًا بداحية — لا يبصر المرء فيها من يشيعه
وإنما هو إطعام لذى سغب — الماء حلو على العطشان موقعه

فَتَجِدُ عليه بما جدنا عليك به ... يجزيك خيراً ويرضى عنك مُبْدِعُه
لا تجعل المال فوق الدين مرتبة ... للمال موضعه والدين موضعه
أُودِعْتَ ما أودع المملوك في يده ... فَكُنْ أميناً على ما أنت مُودَعَه
دع التصنع فيما أنت قائله ... فربما فضح الجانى تصنعه
إن كان غرك ثوب أنت لابسه ... فانظر إليك ملياً حين تخلعه
لا تنصر البغى إن الله يكرهه ... جهنم مرتع الباغى ومضجعه
ماذا تقول إذا جئت الإله غداً ... وخَبَّرَ الناس عما كنت تصنعه ؟

٢١

إلى شكرى أبى صالح

وردت نميقتك الجميلة والصور ... فلك الثناء من البصيرة والبصر
وعليك منى ألف ألف تحيـــة ... وعـــلى الأحبة فى الإقامـــة والسفر
إن تحملوا من شوقكم وحنينكم ... نار«الخليل» ، فإن فى قلبى سقر
« ما لاح برق أو ترنم طـــائر » ... إلا ذكرتكم ، ومثلى من ذكر
فسلو الدجى عنى إذا رق الدجى ... عند الدجى عنى وعن وجدى خـــبر
وسلوا السماء وما بها من أنجم ... وسلوا الغمائم والنسائم والشجر
وسلوا الحمائم حين تشدو فى الضحى ... فأنا الذى علمتها تلك السور
أشتاقكم ، وأحب من يشتاقكم ... وأحب أربعكم ومن فيها استقر
تالله لم يشغل فؤادى شـــاغل ... عنكم ولكن عاقنى صرف القدر
لولا الحوادث ما قعدت عن اللقا ... ورضيت بعد العين منكم بالأثر
شكرى ! وقد عبثت بنا أيدى النوى ... صبراً فإن الله يجـــزى من صبر
يغنيك صوت العود عن جس الوتر ... فاعذر أخاك فإن مثلك من عذر

* * *

كم تستثير بى الصبابة والهـــوى ... عنى إليك فإن قلبى من حجـــر
مالى وللحسناء أغـــرى مهجتى ... بوصالها والشيب قـــد وخط الشعر
فى الشيب متعظ وفيه مزدجـــر ... وبما مضى عظة وفى الآتى عبر
كم بـ « الجزيرة » لو يتاح لى الهوى ... من غادة تحكى بطلعتها القمر
مثل الغزال إذا رنا مثـــل القضيـ ... ـب إذا انثنى مثـــل الصباح إذا سفر
وبـ« سنسناتى » من مسارح للمهى ... من صنعة الرحمن لا صنع البشر
ولكم بها من جدول وحديقـــة ... تنسيك هاتيك الخمائـــل والنهر

فيها اللواتى إن رمت ألحاظهـــا شَلَّتْ يَدَ الرامى ، وقَطَّعت الوتر
قد كان لى فى كل خـــود مطمع ولكل رائعة المحاسن بى وطـــر
أيام شَعْرى كالـــدجى محلولك أيـــام عيشى لا يخالطـــه كدر

* * *

ذرنى وأشجانى وجسمى والضنى ويدى وأقلامى وطرفى والسهر
أأبيت ألهو والهموم تحيط بى ؟ وأنام عن قومى وقومى فى خـــطر ؟
صوت المصفق موعـــد ما بيننـــا ماذا أقول لهم إذا الديك استحـــر ؟
أقسمت بالله العظيم ثـــلاثـــة لَتُمَزِّقَنَّ يدى كشاكيل النَوَر
من كل أحمـــق بيننـــا متجـــهول إن غاب غاب الهم أو يحـــضر حضر
لا أنثنى ، لا أنثنى ، لا أنثنى ، حتى يفوز العاملون عـــلى البقـــر

٢٢

و . . .

وزاهـــد همه فى المـــدح يسمعه — من كل من همه أن يخلق الكذبا
يُعَلِّمُ الناسَ ألا يعبدوا أحــداً — إلا الإله ويمسى يعبد الذهبــا
وأن يجودوا بما تحوى خزائنهم — ولا يجود بدينار لمــن نكبــا
ضيف يتيه على المُثْرِى وصاحبه — كما يتيه على المغلوب من غلبــا
ذنب المقل لديه غــير مغتفــر — ومكثر البذل يقضى بعض ما وجبا !
كأنه دائن طال المطال بــــه — كأنه يهب الإنسان ما وهبــا
يا ذا المزمل إن لدين والنشبــا — ضدّان ما اتفقا يومــا ولا اصطحبا
إن كنت من يبتغى الدنيا ويطلبها — فارغب عن الدين واطرح ذلك اللقبا
احفظ لنفسك بين الناس حرمتها — من يكسب الذم فى مال فما كسبا
لا تنفخ النار ، لا تدفع سواك لها — إنى لأشفق أن تغدو لهــا حطبا

* * *

ما إن رأيت كقومى فى سماحتهم — كالغيث يسقون حتى الموضع الخربا
لو كان للذئب أن يغشى منازلهم — ما عاد إن وفى فكيّنه ما طلبا
ضعف يسميه من يُمْنى به «كرماء» — كما يسمى الحُمارا المحتسى «طربا»
هذا الذى أوجد الكسلان بينهم — وأوجد اللهو للكسلان واللعبــا

* * *

وجاهل يدّعى علماً ومعرفــة — شر البليات غرّ يدّعى الأدبــــا
إذا يُساق إليه «العرْف» نكّرَهُ — وإن رأى «الخنْفَصَ» فى أحواله نصبا
من «الأعارب» إلا أن منطقــه — مما يُبغّض فيه «العجم» و «العرب»
أمسى يشبه من يحكى بسيرتـــه — «يهوذا» بالذى من أجلنــا صلبا

لو كان يعرف رأى العارفين بـــه   لراح ينكر ما أملى وما كتبـــا

* * *

وسافل فى حضيض الأرض ملتصق   يحوك من أعْظُم الموتى لــه نسبا
فى كل يوم له دين يُدِلُّ بــه   ساء المتاجر بالأديــان مُنْقَلَبَا

* * *

وأبله سائر مع كل ذى أرَب   سير الذلول ولا تدرى له أربا
لم يضحك الناس لو أمسى له ذنب   لذاك لم يخلق المولى له ذنبــا

* * *

قد أكثر الدهر فى عينى عجــائبه   حتى غدا عجبًا ألا أرى عجبا
من عاشر الناس لم يأمــن دسائسهم   فاختر لنفسك من غير الورى صحبا

٢٣

ما كان أحوجني

ما كان أحوجني يوماً إلى لقب يقاتل الشك عني في ذوى الحدس

وطيلسان به نقش وزركشة وصولجان كرمح الفارس الشكس

إذن لصدقني من لا يصدقني ولو جعلت الضحى جزءاً من الغلس

و وَدَّ من كنت قبل اليوم خادمه لو أنه خادمي ، أو أنه فرسي

فإن مشيت رأيت الغيد شاخصة ومن هنا وهناك الناس كالحرس

وإن تكلمت قالوا : ليس ذا بشراً وإنما هو وحي الروح ذى القدس

فهان عندهم بذل النفائس لي إن كان في بذلها إدراك ملتمسي

وأيدوا كل مشروع يؤيدني فيهم ، وإن كان مشروعاً بلا أسس

وبات لثم يدى في عرف بعضهم أشفى له من دواء العالم النطس

يحنو فيملؤها تمراً ، وظاهرها لثماً ، كتقبيل ذى وجد لذى لعس

وقد يكون كلامي بالياً خلقاً لا روح فيه ، وكَفّي كف مختلس

لو كان ذلك لي ، أو كنت صاحبه ما احتجت يوماً إلى سيف ولا ترس

٢٤

تنصير نور عبد المجيد حداد

« نيويورك » ، تيهى عـــزة وتهللى ... طربـًا ، فأنت اليوم أشرف موضع
إن الفضيلة والسماحــة والتقــى ... « هبطت إليك من المحـــل الأرفــع »
قمر منازلـــه شغاف قلوبنـــــا ... فإذا نأى عنها إليـــه تنـــزع
لم أدر أن الشمس تشرق فى الدجى ... حتى نظرت إليـــه غير مُقَنَّـع
عجبـًا من الشهب الثواقب إنهـــا ... عرفت مكانته ولم تتبرقـــع
يا سيدى والناس تعـــلم أنـــنى ... لولاك لم أكُ بالأديب المبـــدع
ما زال يحسد ناظرى سمعى إلى ... أن بات حظ الطـــرف حـــظ المسمع
ولكم شكوت من الفراق وجـــوره ... ونسيت أنك ساكن فى أضلعـــى
ولكم جلست إلى خيالك مـــــرة ... أشكو إليـــه الحـــب غير تصنع
فى مخدعى وحدى بغير مؤانـــس ... الله يعـــلم ما لقيت ومخدعى
هجعت عيون لم تذق طعم الهـــوى ... وأنا لمـــا بى ساهر لم أهجـــع
فاليوم أغفر للزمان ذنـــوبـــه ... عندى وأحبس فى جفونى أدمعى
ذى ليلـــةٌ لو تستطيع تكلمـــا ... قالت لأكباد العداة : تقطَّعى
فخراً بنى « الحدَّاد » ، إن صفاتكم ... تغنى الأنوف عن الشذى المتضوع
تالله لو سَمِعَتْ حمامات « اللِّوَى » ... شَدْوِى وتغريدى بكم سجعت معى
ما زلت أرجو الدهر يجمع بيننـــا ... حتى أجاب توسلى وتضرعـــى
فرأيت أقمـــار العلا فوق الثرى ... وشهدت آساد « الشَّرَى » فى مجمع
كم لَفَّقَ الحساد عندى عنـــكمُ ... فسمعتهم وكأننى لم أسمـــع
لا أدَّعِى كالغير أنى مخلص ... خـــير المحبين الذى لا يدَّعى

٢٥

النكبة فى سوريا

لله ما أحلى ، وما أجملا أن تنصر المسكين ذات الحلى
إن التى تقتـــل أجفانهـــا أبت على البائس أن يُقْتَلا
فأقبلت تبـــذل أموالهـــا وتسأل المثرى أن يبـــذلا
فى الله مسعاها وإحسانها فهـــكذا الغيد وإلا فـــلا

٢٦

انقر يادف على الطارة

قد عاد النقر على الطاره والشاعر حرك أوتـــاره
ليعـــين الحـــق وأنصاره ما أحلى الحق وأنصاره !

يا سيدنا رب التـــاج الآخـــذ مـــال المحتـــاج
لا تلعب بين الأمواج وتَـوَقّ البحـــر وتيـــاره

أو ليست نفس المسكين أولى بالمـــال من العين ؟
أو ليست قاعـــدة الـــدين أن يعطى ذو النعمى جاره ؟

إن كنت حقيقًا تُرُكيًّا فبربك صرح رســمیا
أذع المكتوم المخفيـــا وأزح عن وجهك أستاره

لو يلقى صخر ما تلقـــى من وخـــز يراع لانشقا
لا تغضب إن قلنا الحقـــا وذممنا الجهـــل وأضراره

إن كانت وخزات الداعى لم تُدْمِ جلـــدَ الطماع
فتنكّب ، يا هذا الراعى ، نـــار الحداد ومسماره

٢٧

توديع أمين الريحانى

كم ذا يلوم على الهـوى المتشدق … غير الغرام يجوز فيه المنطقُ
وإلى متى يُلْحَى المحب على الهوى … وأحق باللوم الذى لا يعشـق ؟
ياصاحبي ! هو ذا الغرام ، مريضه … لا يُرتَجى ، وأسيره لا يُعْتَق
لى مهجة تأبى الرضوخ لآمـر … رضخت له ، وهو المليك المطلق
ضحك الأُلى جهلوا الغرام وبطشه … لمـا رأونى فى دموعى أغـرق
ماذا على اللاحين ؟ لا أجفانهم … شَكْرَى ، ولا أحشاؤهم تتمزق
ما شارك العشاق فى آلامهم … إلا عليم بالهـوى أو شَـيِّق
يهوى أخو البلوى أخا البلوى ، كما … يهوى الوريقَ من الغصون المُورِق
إن عَنَّفَ الخالى الشَّجىَّ فربما … لام الذكىَّ على الذكاء الأحمق
فُطِرَ الأنام على الأذى ، فقويهم … متصلِّف ، وضعيفهم متملِّـق
أخذت نحائزهم عليهم مَوْثِقـًا … ألا يدوم لهم ليوم مَوْثِـق
ألِفوا الرياء ، فلا يسوء نفوسهم … مثل امرئ حُرٍّ يقول فيصدق
كم لفقوا أكذوبة ، واسترسلوا … فى الغى حتى صدقوا ما لفقـوا
لو أنهم نظروا لغير معاشهم … وجدوا أضر الخلْق من يتخلَّق
والدهر أهلوه ، لذلك دهـرنا … غير الأديب الحـر فيه مُوَفَّق
لكن على رغم الغَوِىِّ وخبطه … سيدوم فى هذى الحيـاة الأليق
والحـق منتصر على أعدائـه … ولو أنهم خَلَفَ الكواكب خندقوا

* * *

لا أرمق الدنيـا بمقلة نـاقد … إلا وَدَدتُ بأننى لا أرمـق
دنيا يحار المرء فى أطـوارها … ويضيـع فى أسرارهـا المتعمق

في الصدر همٌّ لا أحاول بثه ... هذا مجال مثل صدرى ضيـق
لا تحسبوا هذا المشعشع خمـرة ... هذى نفوس ذوى الهـوى تترقرق
لم تكتسب لَوْنَ العقيق كؤوسُها ... لو لم تكن من مهجتى تتـدفق
فإذا انصرفتُ عن الرحيق فإننى ... أخشى تذكرنى الحبيبَ فأشرق
وإذا بكيت من الفراق ووقعـه ... لا تعجبوا ، هذا عدوّى الأزرق

* * *

ما بال نفسى عندما أزِفَ النوى ... فَرِقَتْ وكنت أظنها لا تَفـْرَق
بل ما لقلبي خافقًا فى أضلعى ... أمن السرور أم الكآبة يخفق ؟
إنى أرى حول « الأمين » صحابـة ... كالنيرات وجـوههم تتـألق
فأكاد من فرحى بأنصار الحجى ... وذوى المروءة والوفاء أُصَفّـق
فإذا ذكَرْتُ غَداً وقرب مجيئه ... ضغط الأسى نفسى فكادت تزهق
فى ذمة الله الكريم وحفظـه ... رجـل يباهى الغرب فيه المشرق
هذا الذى إن قيل ذا رجل النهى ... لا يزدهى عجبًا ولا يتفيهق
دل العيونَ عليه صدقُ مقالـه ... ولـكم يدل على النفوس المنطق
مازال يَسْتَنْدِى الأكُفَّ لِذى الطوى ... حتى لكاد بنفسه يتصـدق
هو زهرة يحيى النفوسَ أريجُها ... هو كوكب أنواره لا تمحـق
شتم المقصر عنه كل مُبَـرِّز ... لمـا رآه غبـاره لا يُلْحَق
لم يَدْرِ أن البدر يعرف فى الدجى ... والعُودُ يظهر طيبه إذ يُحْرَق
يا صاحبى ، وأخو العلاء مُحَسَّد ... ولأنت أعرف بالأمـور وأصدق
ما من يكرس للبـلاد يراعـه ... مثل الذى بـيراعه يستـرزق
سامح عداتك واغتفر زلاتهم ... فالصفح أجـدر بالكريم وأخلق
ما أنت أول عبقرى نابـغ ... كاد الطغام لـه ففاز وأخفقـوا

* * *

يا قاصد البلد البعيد ، تَرَفُّقاً ... ما دام هـذا الدهر لا يترفـق
إن كان بعض الود يخلقه النوى ... ويبتُّه فودادنـا لا يخلـق
فإذا رأيت البحر يعلو موجه ... فاعلم بأن دموعنـا تتـدفـق

وإذا رأيت النجم ينظر ساهيًا فاعلم بأنـــا فى النجـــوم نحـــلق
وإذا سمعت الطير تهتف فى الضحى فاعلم بأن قلوبنا تتشـــوق
إنَّا سنحفظ لل «أمين» ولاءه مهما أثـــار المفسدون وأقلقـــوا
وإذا الجسوم عن الجسوم تفرقت فنفوس أهل الود لا تتفـــرق

٢٨

إكليل توفيق خورى

قد قال « ندرا » واصفـًا « ميماسكم » فأثار بى شوقـًا إلى « الميماس »
ما كنت حمـْصياً ، ولكنى فتى فى سر« حمـْص» الآن أشرب كاسى

٢٩

أيا ابن مدينة « العاصى » الجميلَه تهانئُ شاعر يهوى الفضيلَه
وألفاظ تنم على وفاء وإخلاص وإن كانت قليله
جعلت إلى محبتكم دليلى فؤادى والهوى الصافى دليله
ملكتم مهجتى لا بالعوالى ولكن بالسجيات النبيله
متى أروى من « العاصى » غليلى ؟ ويروى كل حمصى غليله ؟
فإنى مثلكم أهوى رُباها كما أهوى نسائمها العليله
فلا يفخر على « حمص » قبيل بمحتده ، فواحدكم قبيله
نفوس رجالكم فيها شباب وفى شبانكم حزم الكهوله
لنا ولك المسرة والتهانى فقد عاشت أمانينا القتيله
« وأعطِ القوس باريها » بيوم قطفت أحب أزهار الخميله
بقيت مع « النبيهة » فى صفاء ترف عليكما النعم الجزيله

٣٠

حاملات الطيب

«حاملات الطيب» تشدو طربًا بلقاكم ، يا كرام
وتُحَيِّي حبرنا المنتخبا من له أسمى مقام
فانشري عطرك ، يا ريح الصبا وتغنى ، يا حَمام
فلقد نلنا المنى والأربا وظفرنا بالمرام

* * *

نحمد الله الجزيل المنن من نفى عنا الكرب
وحبانا بعد طول الزمن بالرئيس المنتخب
ذى المعالى ، صاحب القدر السنى خير راعٍ ، خير أب
عز فيه الدين بعد الوهن وعلا صرح الأدب

* * *

ولنحيِّ بعد ذاك العلما علم العدل الجميل
علمًا فى ظله الحق سما فهو للحق كفيل
رافقت فيه الحظوظ الأنجما وله ظل ظليل
فلتعش «أميركا» خير حمى ألف جيل بعد جيل

٣١

ولقد ذكرتك

ولقد ذكرتك ، يا بلادى ، بعدما ذهب الشباب ، ومرت الأعوام
فتمثَّلَتْ تلك الربوع لناظرى خربـًا ، عليها وحشة وظلام
ورأيت قومى ساقطين على الثرى جثثا تلوح كأنها أصنام
يمشى عليها الظالمون بخيلهم وينال منها الذئب والضرغام
بالأمس كانوا والطيور طعامهم واليوم هم للكاسرات طعام
وهنا ، نرى إخوانهم أجفانهم مفتوحة ، لكنهم نوام
لاهين عنهم بالجدال كما لها باباوات « رومة » قبل ، والأروام
فبكيت ، ثم بكيت ، من فرط الأسى يا ليت شعرى ، هل بكى « اللمام» ؟
لم يبكِ ، بل أرخى العنان لصوته يشدو ويرقص حوله الأقزام
غَنَّى ، وفى تلك البلاد مناحة فعلى الجماد تحية وسلام

٣٢

تنصير ابن حنا نحاس

تكاثرت الكواكب والأهله ... لذلك غابت الشمس المطله
كواكب لا يلم بها خسوف ... ولا تخفى أشعتها الأكله
أرانى بين إخوان وصحب ... بهم ينسى غريب الأهل أهله
أتينا اليوم نفرح من صديق ... جعلنا فى جوانحنا محله
يُرَجَّى فى الحياة ككل حر ... لنصر فضيلة ولدفع علّه
وحَبْر هامَ فيه عارفوه ... ولم ينكر عليه الضد فضله
به وبمثله فى كل نادٍ ... نفاخر كل طائفة وملّه
فما ضر الذى عملت يداه ... على تفريقنا لو كان مثله
أيا مولى القلوب ، بلا منازع ... وأكرم نازل فى ذى المحله
لقد خافت عليك سماء « أزلن » ... فحاكت من غمائمها مظله
و « حنا » عمَّدَ « الفادى » قديمًا ... وأنت اليوم قد عمدت نجله

٣٣

جمعية الصليب الأحمر السورية

إنّ الصليب وكان آلة نقمة ... أمسى شعار الخير والتهذيب
لا تعجبوا مما به من حمرة ... هذا — وحقكم — دم المصلوب
لا بدع أن ظهرت عجائبه لنا ... فلكم أتى بعجيبة وعجيب
هذا لواء ضامن كشف الأذى ... عن قلب كل معذب منكوب
لما شهدت كما شهدتم صنعه ... طرب الفؤاد وكان غير طروب
إنى أحيي الناهضات إلى العلا ... باسْم الجنود ، وباسْم كل أديب
هن الكواكب فى الشروق ، وإنما ... هيهات يؤذن نورها بمغيب
لو كان فاضلة تخاطب قومها ... قالت لكل لبيبة ولبيب :
« أبناء « سوريا » ، احملوا صلبانكم ... للخير ، إنى قد حملت صليبي »

٣٤

توديع نعمة تادرس

زمن الربيع مضى وكنت أحبه   فجلست بعد ذهابه أبكيه

واليوم يهجرنى حبيب آخر   فكأن ما فى القلب لا يكفيه

اثنان ما للشعر بعد نواهما   معنى يلوح له فيستهويه

فصل الربيع لأنه الفصل الذى   يجد الفتى كل اللذاذة فيه

وأخ يسوق العرف نحو صديقه   عفواً ، ولا يؤذى الذى يؤذيه

وإذا يلوذ به امرؤ فى نكبة   فكأنما هو لائذ بأخيه

هذا الذى تأسى القلوب لبعده   عنها ، وتصحبه لكى تحميه

ما للكناية والإشارة موضع   يا صاحبى أنت الذى أعنيه

شاء الذى خلق السماح وأهله   فبراك كى تعلو وكى تعليه

فإذا يجود ذوو النضار ببعضه   جادت يداك بكل ما تحويه

لك فى القلوب مكانة لو أنها   كانت لغيرك هز عطف التيه

كل يودع فيك صاحبه الذى   بنفيسه وبنفسه يفديه

سيحبك البحر الذى تجتازه   ويحبك البر الذى تطويه

ويحبك البلد الذى تختاره   إن كنت أو ما كنت من أهليه

كل المـوَاطن للكريم بلاده   والناس منه كلهم كذويه

سافر ترافقك السلامة ولتعد   باليُمْن والإقبال والتنويه

لكن بربك لى إليك وصية   ليست بأمر ، لا ، ولا تنبيه

هى إن تزر وطناً نقدس ذكره   ونُجِلُّه ونصونه ونقيه

فانظر بأعيننا البلاد وأهلها   ليرى بك الوطن القديم بنيه

٣٥

دار رشيد أيوب

كيف تركت الدار ، يا صاحبى مفتوحة الباب لمن يطرق ؟
أليس فى هذا الحمى سارق ؟ أليس فى بيتك ما يسرق ؟
أم علم القوم على جهلهم أنك ذاك الشاعر المفلق ؟
جميلة دارك ، يا سيدى ودربها والشجر المورق
لكنها عمياء صماء لا عين ولا سمع ولا منطق
جئت إليها آملا شيقاً وعدت منها وأنا أشوق

٣٦

رثاء المطران أثناسيوس عطاالله

زُرْتُ الحديقة فى الضحى لأرى الغصونَ المُورِقَهْ
فإذا الطيور صوامت ، وإذا الأزاهر مطرقـــــه

وإذا النسيم له أنين كالجـــريح أو الطعـــــين
ويلاه من ذاك الســكوت ، وآه من هذا الأنين

ماذا أصاب الأقحـــوان ؟ فـــإنـــه لا يبـــسم !
ماذا دهـــا طـــير الأراكـــة ؟ فهـــو لا يـــترنم !

أى المصائب بالرياض ؟ فقيل لى : نضب الغـــدير !
فالطـــير والأزهـــار حائـــرة تفـــكر فى المصير

فعـــرفت أنى فى الحـــديقة حـــاضر فى مـــأتم
وشعـــرت أن الحـــزن يسرب فى عـــروقى مع دمى

الجنـــة الغناء ، يـــا أبنـــاء « حمص » ، أنـــتم
أمـــا الغـــدير فـــإنـــه هـــذا الفقيـــد الأعظم

« أثناسيـــوس » ، علمتنا ووعظتنا حيًّا وميتـــا
أشرقت إشراق الصباح ، ومثلما يمضى مضيتـــا

الله بارك « حمص » حين سكنت في أرجائها
وديانة قد كنت فى دنياك من رؤسائها

كم مَهْمَهٍ لليأس كنت به دليل التائهينا
كم حومة للبؤس كنت بها مُقيل العاثرينا

قد كنت مصباحاً إلهيًّا يضىء لكل سار
وقد انطفأت فكلنا للحزن يعثر فى النهار

علمتنا أن التنسك ليس فى سكنى السباسب
بل فى مقارعة الخطوب وفى مصارعة التجارب

ليس الفضيلة والتقى ألا يضر المرء غيره
ويصون منه نفسه ، بل أن يسوق إليه خيره

خالفت كل الناسكين من الأوائل والأواخر
خضت المعاثر عندما خافوا التعرض للمعاثر

قد كان نسكك جرأة عظمى ونسكهم فرارا
يا ويحهم لم ينفعوا فى نسكهم حتى القفارا

قد كنت تزهد بالجواهر وهى أكوام لديكا
وتسر إذ تسعى إلى المسكين أو يسعى إليكا

ما أحقر التيجان عندى إن ذكرتك والأرائك
إن الملوك من الأنام ، وأنت من جنس الملائك

شادوا على الجثث العروش وشدت عرشك فى النفوس
فمضت عروشهم ، وعرشك خالـــد مثـــل الشموس

لله كيف حواك لحد ، أيهـــا البحر الـــكبير
لله كيف خبـــا سناؤك ، أيهـــا القبس المنـــير

قد كنت كلك أيهـــا الـــراعى الأمـــين لكلنـــــا
« أثناسيوس » ، نم هانئا فلـــكم سهرت لأجلنا

٣٧

جمعية الاتحاد السورى

ما طـائر كان فى قفر على ظمإ فسـاقه قدر نحـو البسـاتين
فاعتاض من لفحات القيظ وارفة ممدودة الظل خضراء الأفـانين
وبات تنشـده فيها بلابلها حينًا وينشدها بعض الأحايين
منى بأسعد نفسًا مذ نزلت بكم يا معشر السـادة الغر الميامين
فإن روحى لتمشى من عواطفكم مغمورة بالأقاحى والريـاحين
ومقلتى تتمشى ، من وجوهكم ، فى أنجم تتجلى لى فتهـدينى
أرنو فيشرق فى نفسى جمالـكم كالوحى فى خاطر بالوحى مفتون
إن المروءة لو شـادت أريكتها كانت قوائمها شم العـرانين
ترِقُّ أخلاقكم كالخمر آونة وتارة تمزجون البأس باللـين
ومن يجربكم فى الحالتين يجد لطف الملائك أو حزم الأساطين
بكم أصول على الأيـام ثائرة خطوبها وأباهى من يبـاهينى
لأنتم المـاء لى والنفس ظامئة وحبكم قمرى فى ليل « كانون »
أحببتكم حب إنسـان لإخوته إذ ليس بينكم فوقى ولا دونى
إن كان فيكم ضعيف لا يحاذرنى أو كان فيكم قوى لا يقاوينى
ولا أداجى لأمر منكم أحـداً ولا أرى أحداً منكم يداجينى
نحلتمونى فضلا لست صاحبه ولم يكن قط فى ظنى وتخمينى
لكن رأيتم خيالا من فضائلكم فخلتم أنه خلقى وتـكوينى
والشمس إن نظرت فى الماء صورتها رأت هنالك شمسًا ذات تلوين

* * *

قل لامرئ مثل « قارون » بثروته : إنى امرؤ بصحابى فوق « قارون »
من يصطنع صاحباً تبقى مودتـه فهو الغنى به لا ذو المـلايين

فاخترْ صحابك وانظر فى اختيارهم إلى الغرائز قبل اللون والدين

* * *

المرء فى هذه الدنيـا عواطفه إن تندرس فهو بيت غير مسكون
وإن عاطفة هذى مظـاهرها من عالم الروح لا من عالم الطين
لو فاتنى كل مافى الأرض من ذهب ولم تفتنى فإنى غير مغبـون

* * *

لو القوافى تؤاتينى شـكرتكم كما أريد ولكن لا تـؤاتينى
فاستنطقوا القلب أو جسوه يخبركم فالحب والقلب مكنون بمكنون
وفى زواياه شـعر لا أوزان له ورب شعر جميل غـير موزون
إنى سأحمد يا صحبى صنيعكم حمداً إلى الدهر لا حمداً إلى حين

٣٨

نشيد يوسف بك كرم

يا من هزمت العدى في كل معترك ... في مهجتي جيش حزن غير منهزم
لفّوك بالعلم القانى ، وما علموا ... أن التقى والنهى والمجد في العلم
وغيبوا البطل الصنديد في جدث ... وأودعوا في الثرى طوداً من الشمم
لا « يوسف » آخر يحمى مرابعنا ... مضى الردى بالشجاع الطاهر الشيم
ولا فوارس حول الأرز رابضة ... كالأسد في الغاب كالعقبان في القمم
« لبنان » بعدك في ليل بلا قمر ... وأرز « لبنان » في جو من الألم
لله عهدك من عهد نقدسه ... وتستلذ به الأرواح في الحلم
لم يبق غير خيالات تطوف بنا ... فيا نفوس إذا مرت بك ابتسمى
يا راقداً في ضريح كله شرف ... قام الأسود إلى أسيافهم ، فقم
ياصاحب السيف ، كاد السيف يهلكنا ... يا ليث «لبنان» ، عاث الذئب بالغنم
أشرف بروحك من أوج السناء على ... سهول « لبنان » والغابات والأكم
يدعوك للجود « لبنان » وأرزته ... يا ابن الأكارم ، هذى ساعة الكرم

٣٩

إلى ندره حداد

إن العـــيون وطالما أودعت شـــعرك سحرها
حملت عليك فأدركتك وأدركت بهـــا ثأرها
قد كنت تخشى أسرها ، فغدوت تحمد أسرها
وإذا الفتى عرف الهوى ، عرف الحياة وسرها
فأحبها تســقيه حازر خلها أو خمـــرها
وإذا رأى أشـــواكها أغضى ليلمح زهرها
ويظل يرجو فجرها ، والليـــل يطمس فجرها

* * *

قدر الفتى فى حبه ، فارفع لنفســـك قدرها
« ندره » ، صبرت على زمانك طائعا لا مكرها
الغيد حولك كالنجـــوم ، وأنت تؤثر هجرها
ولك الشـــباب وكل ما خـــدع النفوس وغرها
لا النفس زاهدة ، ولست كمن تكلف قهرها
لكن شُغِلْتَ بغادة تَخِذَتْ قريضك خدرها
ما زلت تنعتها وتجهل مثـــل غيرك أمرها
حتى جفت قصر الخيال ، وصار قلبك قصرها
فاشكر لدهرك جوده واحمد لنفسك صبرهـــا
ونعمتما وأمنتما مـــد الحيـــاة وجزرهـــا

إيليا أبو ماضي

٤٠

فى عرس ندره حداد

شاعر كان حـــائراً أَذْهَبَ الحبُّ حيرتَـــهْ
طائر كان تائهـــاً وجد الآن جنتـــه
صولة الحســن والهـوى تسلب المرء صولتـــه
إن « ندره » الـذى بغـى أن يعاصى مشيئتـــه
أسلم اليوم قلبـــه بيديه ومهجتـــه
لم يكن زاهـــداً ولا جاهلا قط قوتـــه
فلكم هد قلعـــة قبلما هد قلعتـــه
بل لأمر مقـــدر أخَّر الدهر قرعتـــه
يا أســيراً كأنـــه آسِرٌ نال بغيتـــه
ليس بالعاشق امـــرؤ خاف فى الحب محنتـــه
إنما الحب ضلـــة لو عرفنا حقيقتـــه
أنت يا صاح بلبـــل يعشق الكل نفحتـــه
جددت دولة الهـــوى بك للشعر دولتـــه
دمت فى العيش صاحِ لا يخلق الدهر جدتـــه

* * *

نصب الحب فخـــه وهو يدرى قنيصتـــه
وكما صاد « نـــدره » سوف يصطاد إخوتـــه
ف « جوادا » و « ثريـــه » و « خليـــلا » وزمرتـــه
وغدا ، وهو مقبـــل ، يعلق الكل علقتـــه

٤١

كذا الإله خلقه

إلى متى تضلكم يا قوم تلك الورقه ؟
إلام يستجهلكم أجهل من « هبنقه » ؟
أراقكم منطقه ؟ وقد عرفتم منطقه
أم صوته ؟ وصوته أحسن منه النقنقه
أم وجهه ؟ ولو رآ ه القرد « طاح الحلقه »
هو الذى طاف عليـ كم يستدر الصدقه
فما تراءى شبح منكم إلا لحقه
وما أصاب موصدا فى الحى إلا طرقه
وما رأى مائدة إلا أمال عنقه
أعجبه سمنكم فصار مثل العلقه
يمتص أموالكم مص الهجير الزنبقه
يملأ من جيوبكم جيوبه المخرقه
فى كل يوم يبتغى ضريبة أو نفقه
كأنكم بعولة كأنه مطلقه
بل كلما أحس بالـ إملاق أبدى ملقه
فصور البحر لكم وهو أجاج « مرقه »
وصور الأرض على اتساعها كالبندقه
إن تستحوا لا يستحى كذا الإله خلقه !

٤٢
النار أشره آكل

ويارُبَّ عاوٍ ظن أن عــواءه يقيه — ولكن ما وقاه — غوائلى
يصيح وفرط الخوف يرجف روحه صياح صغار الطير خوف الأجادل
ويبكى ولم تضغط على عنقه بيدى فكيف إذا فارت عليه مراجلى ؟
جهول ، وبعض الجهل يهلك أهله غبى رأينا فيه صورة « باقل »
نصحتك ألا تجعل النصل مركباً فإن المنــايا فى ركوب المنــاصل
وإنى نار ليس يخبو ســعيرها فلا تصطلى فالنار أشــره آكل

٤٣

إلى النابح العاوى

يأيها النابح العاوى بلا سبب ... أما لنفسك ذو ود فينهـــاها ؟

إن كان غرك أن الحلم شيمتنا ... فربما خالفت نفس سجاياها

نحن النجوم التى تهدى أشعتها ... من ضل بل نحن أسماها وأسناها

لكننا نغتدى إن ثار ثائرنـــا ... نيازكا تتقى الدنيا شظاياهـــا

ما حدَّثتنا بغير المجد أنفســنا ... ولم نشأ غاية إلا بلغنـــــاها

هل يزعج الشهب نَبَّاح بلا ذنب ؟ ... وهل يعوق فى الأفلاك مسراها ؟

إذا سكتنا فإن الليث يأنف من ... قتل البعوضة مهما طـــال قرناها

إذا نظرنا إلى الجِعْلان سارحة ... ولم نطأها فإنا قد حقرناهـــــا

وفى الحدائق ذات الزهر مشغلة ... عن رؤية الجُعْل يمشى فى زواياها

فيا غبيًّا على جهل يطاولنـــا ... وَرَّطْتَ نفسك فانظر كيف عقباها

من أنت ؟ هل أنت ذو قدر فنخفضه ... أو حرمة تتأذى إن هتكناهـــا ؟

ما أنت إلا الهباء المستطار ، فهل ... نفرى الهباء بأسياف حملناها ؟

* * *

يا كلب سوق ويا خنزير مزبلة ... يا جيفة ما تحامى الناس إلا هـــا

على الدروب كلاب ما لها عدد ... لا شك أنك أعداها وأعـــواها

وإنما الناس فى أمر قد اختلفـــوا ... هل أنت «أسعدها» أم أنت أشقاها ؟

إن السفالة لو تأوى إلى ســـكن ... كالخَلْق ، لم يك إلا أنت مأواها

أعياك أن ترتقى حتى تُرى بشراً ... فصرت كالتيس نطاحًا وتَيَّاها

خَبِّئْ قرونك ، واحذر أن تتيه بها ... فكم قرون كهذى قد حطمناها

فى «الأخطبوط» الذى صاحبته عظة ... لو كنت تفهم معناها ومغزاها

كم مرة قربت منـــا كتائبه فلم تكن لحظة حتى هزمنـــاها
فارتَدَّ يعول من يأس ومن ألـــم عويل جارية قد مات مـــولاها
ألم تكن كقرون الوعل شـــائكة قرونه السود كبراها وصغراهـــا ؟
اليوم ليس لها عين ولا أثر نحن الذين بأيدينا كســـرناها
إن يستعن بك فالغرقان لو نظرت عيناه فى البر سِعْلاة لناداهـــا
وإن تكن نفسه فى الجسم باقية فإنما خبثها فى الجسم أبقـــاها
فما نجت بومة يومًا بِقُبُـــوَّتِها وإنما قبحها المشهور نَجَّـــاها
نفس لو انتشرت يومًا نقائصها لَعَمَّت الأرض أدناها وأقصاها
نفس يشك الورى فى الله إن زعموا أن الذى خلق الأرواح سَوَّاهـــا
فإن « عزريل » يخشى أن تدنسه والأرض إن أصبحت فى الأرض مثواها
ما ضر مَن وَصَمْتَ بالعار جبهته لو أنه بسوى الأوحال غطـــاها
أتيته بعدما شالت نعامتـــــه وغَيَّبَ البر يُمْناها ويُسْـــراها
فكان مثل الذى ماتت كرامته وكنت مثل الذى قد جاء ينعاها

* * *

يا نذل ! والنذل إنسان بلا شمم ما سِيمَ من حِطَّة إلا ويرضاها
زعمت خطف الظباء الغيد عادتنا هل أخبرتك بأنا قد خطفناها ؟
بالله يا نجل « . . . » معذرة إذا ذكرنا لبانات قضينـــاهـــا
كنا نسينا ، ولكن ما برحت بنا حتى ذكرنا التى كنا نســـيناها
فاغفر خطيئتنا ، نغفر خطيئتها واستغفر الله كى نستغفر الله

* * *

ورب طاهرة فى البيت آمنـــة جَشَّمْتَهَا خُطَّة شنعاء تأباها
حسبتها كالتى ساءت خلائقها بل كدت تحسبها يا وغد إياها
دنوت للورد فى الخدين تقطفه فراح يرتع فى خديك نعلاها !

* * *

سَلِ السجون التى جاورتها زمنًا كم ليلة بِتَّ مُلْقًى فى زواياها
وفى قفاك نعال الجند راقصـــة كأنما هو ناديها وملهـــــاها

شدُّوا عليك ، وقد خالوا نعالهم   تدمى قفاك فآذاها وأدماها !
فانظر قَذَالَكَ فى « المرآة » إن به   آثارها وكثيراً من بقاياها !
إن كان هاج بك الشوق القديم لها   فعندنا ألف نعل قد حفظناها

* * *

ما ثم فى الأرض من عيب نزيدكه   أنت المعائب أولاوها وأخْراها
وما هجوناك يا « لا شىء » نعرفه   بذى القوافى ولكنا هجوناهـــا

٤٤

دعه ينبح

قد سكتنا عن اللئيم طويـــلا حين كان السكوت أولى وأَصْلَحْ
وصفحنا عن ذنبه وعفونـــا عفو حُرٍّ والحُرُّ يعفو ويصفح
وحسبناه يرعوى فتمـــادى وظنَنَّـــاهُ ينتهى فتنـــطح
فصفعناه صفعة بات منهـــا يتلوَّى ، وتارة يتَـــرَجَّح
قُلْ لمن سَبَّه لئيم كهـــذا : شبَّ بل شابَ وهو فى اللؤم يسبح
عَرِّف الكلب أنه الكلب للناس ودَعْهُ من بعد ذلك ينبح !

٤٥

خطبة ميشيل حداد

إن الحياة خميلة والعاشقين زهورهـــــــا
الحب فى أكبادنا خفقانها وشعورهـــــــا
والحب فى زهر الربى ألوانها وعبيرهـــــــا
هو فى الجداول شدوها ، هو فى الكواكب نورها
من حب كان له الحياة سرها وسرورهـــــــا
ونفوس أبناء الغرام إلى الخلود مصيرهـــــــا
فاشرب على ذكرى الهوى كاساً هواك مديرها
« ميشال » ، مملكة الشباب اليوم أنت أميرها
زارتك مثل الشمس فى زمن الربيع سفورهـــا
حسناء كالظبى الغرير دلالها ونفورهـــــــا
قد طاب خلقك واستوى وصفا ، ورَقّ ضميرها
ولها الجمال وعرشه ، ولك المنى وقصورهـــا
فرحت لحبكما السما ونجومها وبدورهـــــــا

٤٦

الجدول الطروب

مَنْ عَلَّمَ الإنشاد هذا الراقص المتبخترا ؟
إنى اهتديت به إليه وكان سرًّا مضمرا
يجرى طروبًا وهو لا يدرى لماذا قد جرى
الدوح حانية عليه تخاف أن يتكدرا
ويلذ للأزهار أن ترنو إليه وتنظرا
ولقد سمعت الطير تدعوه الحبيب الأكبرا
فوقفت أرمقه وأسأل حائراً مستفسرا
ما حبب الأطيار والأشجار فيه يا ترى ؟
أحصاه ؟ إن البحر يحوى فى حشاه جوهرا
أم ماؤه ؟ إنى رأيت السيل منه أغزرا
أو طهره ؟ إنى وجدت الطل منه أطهرا
ما السر فى هذى ولا فى كونه يسقى الثرا
بل كونه يسدى الجميل ويستحى أن يظهرا

٤٧

صوت بلادى

ما الروض وشاه الربيع بزهره وكسا ثراه مفوف الأبــــراد
عندى بأجمل منكم فى ناظرى وأحب من أرواحــكم لفؤادى
أبصرتكم فرأيت صورة أمتى وسمعتكم فسمعت صوت بلادى
« لبنان » زوّد بالطموح نفوســكم لما رحلتم فى طلاب الزاد
وحَبَتْكُم « سورية » بجمــالها وجمالها فوق الجمـــال العادى
فأنا أحيي فى كهولكم النهى والطهر والأحلام فى الأولاد
والحسن فى فتياتكم ، والعزم فى فتيانكم ، ومروءة الأجـــداد
الناس عندى كالشهـــور وإنكم فى الناس كالآحـــاد والأعيـــاد
فإذا سكت فكى أناجيــكم وإن أنشد فليس لغيركم إنشــادى

٤٨

يا ليتني ...

إذا أطل البدر من خــــــدره فإنما يطلع كي تنظريـــــــه
وإن شدا البلبل في وكــــره فإنما يشدو كي تسمعيــــه
وإن يفح عطر زهــــور الربى فإنما يعبق كي تنشقيـــــه

يا ليتني البدر الذي تنظريـــن !
يا ليتني الطير الذي تسمعيـــن !
يا ليتني العطر الذي تنشقيـــن !
أواه لو تصدق « يا ليتنـــي » !

٤٩

الزمهرير فى نيسان

رجع الزمهرير أمس إلينـــــا ورجعنا نشكو من الزمهريـــر
جاء «نيسان» كالح الأفق ، عارى الأرض ، حيران كاليتيم الفقيـــر
أو كملك داس الغزاة حمـــاه فهو فى حيرة وفى تفكيـــر
أو فتاة مفجوعـــــة بحبيب مات فى وجهها ضياء السرور
إيه « نيسان » قد أتيت ، ولكن بـمُحيًّا إفلك وحالـــة زور
لا دليل على وجودك يا شهر الأقاحى سوى غنـــاء الطيور
ليت شـــعرى ماذا دهاك فلم تُخرج لنا الزهر من وراء الستور؟
نحن لولا الحساب خلناك لم تو لد وأن الشهور غير الشهور

٥٠

النجمة الهاوية

هذا هو المنزل الأخيـــر — إلى هنا ينتهى المســـيرُ
وينطوى الخوف والترجـــى — وينقضى الحزن والسرور
ما كان أحلى الحياة لو لم — يكن إلى الحفرة المصـــير
كم من عصور مضت وغابت — فيها ولم تشبع القبـــور

* * *

مررت بالزهر قابــــلات — كأنما مسها الســــــعير
فقلت : ماذا عراك حتّي — فارقك الزهو ، يا زهور ؟
فلم تجاوبنى الأقاحـــــى — وإنما جاوب الغـــــدير
فقال : «سلمى» مضت ، وكانت — زنبقة ما لها نظـــــــير
فغاض نهر وجف روض — وغاب نجم واندك ســـــور
يا وحشة الدار بعد « سلمى » — فقد خبا بدرها المنـــير
«سلمى» التى صمتها وقـــار — وفى أحاديثها عبــــير
فليس فى مشـــيها اختيال — وليس فى نطقهـــا غرور
كم بائس لاذ فى حماها — وكم رجا رفـــدها فقـــير
أليس جوراً من الليالـــى — أن تحتوى اللؤلؤَ القبورُ ؟

* * *

يا قبر « سلمى» ، ما أنت قبر — بل عالَم نَيِّرٌ طهـــــور
ففيك مثل الرياض عطـــر — وفيك مثل السماء نـــور
حويت دنيا نبل وفضل — يأيهـــا الحيز الصغـــير
لم أر من قبلها ثريــــا — شَعَّاعة فى الثرى تخـــور

وقبل إخوانها نســـــوراً تبكى ، أجَلْ قد بكى النسور

* * *

« عزيز » ، يا ضيغماً جريحًا وطائراً جنحه كســـــير

الدمع فى مقلتيه يطغـــى والحـــزن فى صـــدره يغور

الخطب يا صاحبى كبير وأنت يا صاحِ كبير

فكن صبوراً على الرزايـــا فإنما يؤجر الصبـــور

٥١

رثاء رشيد أيوب

نام لما تعبت أجفانــــه وإذا ما تعب الإنسان نـــامْ
خرج الشاعر من دنيا الأســى مثلما ينسلُّ نور من قتــام
ومضى عنا إلى موطنـــــه وطن الشاعر أمن وســلام
لا تقل : هذا الذى كان انطوى ما انطوى ، يا صاحبى ، إلا الرغام
سائلو الجدول عن ألحانـــه فهى فى الجدول وجد وهيام
وسلوا الأزهار عن أحلامـــه فهى فى الزهر أريج وابتسام
وسلوا «صنين» عن شاعـــــره إنه فيه جلال واحتـــــرام
هو فى قمته عزتهـــــــا وهو فى الوادى اتضاع واحتشام
لم يزل ما بيننا أسطـــورة يتلقاها كـــرام عن كـــرام

* * *

أيها الشاعر لا تخش الأذى لست بعد اليوم جاراً لأنـــام
جهلوا قيمة أرواحهـــــم فَغَدَا الجوهر عبداً للحطــام
لا هناء لنفوس صُـــوِّرت من سناء معْ نفوس من ظلام
أعتقت روحك من أغلالهـــا وأناشيدك من أسر الكـــلام
أنت بعد اليوم لا يشكو الطوى جسمك العانى ولا تخش السقام
أنت فى الدنيا التى أحببتهـــا وهى دنيا الحُر فيها لا يضـــام
ليس فيها قيم زائفـــــة تخدع العقل وآمال جهـــام
ليس فيها كالتى فارقتها ، أعين يقظى وأرواح نيـــام
رَوِيَتْ نفسك من كوثرهـــا وبقينا لِعَنَـــــاء وأوام
نم هنيئًا . إن أحلى غبطة — مثلما تعرف — رؤيا فى منام

٥٢

إنه الشاعر

عندما أنشأ الوجود اللـــــه   فى زمان فى الدهر ما أقصاهُ
وبدت فى النبات والماء والأحياء   والصخر يقظة وانتبــــــاه
فاطلَّتْ من السماء الدرارى   وتجارت على الصعيد الميـــــاه
وترامى النسيم فى صفحة النهر   بأسرار وجده وهـــــــواه
وسرى الفجر يوقظ الروضة الوسنى   ويذرى على المروج نــــداه
ومشى الليل بعده يطمس الأشياء   إلا أحـــــــــلامه ورؤاه
والورود الحسناء إلا شذاهـــا   والغدير الطروب إلا صــــداه
نظر الله فى السماء وفى الأر   ض طويلا فتمتمت شفتاه :
« إننى قد خلقت كونًا بديعـــًا   كل شيء فيه كما أهـــــواه
غير أنى نسيت أخلق شيئًا   لازمًا لا يتمــــــه إلاه
وهو « عين » ترى الوجود كعينى   ولسان يقول : ما أحلاه »
وإذا الله شاء أمراً قضـــاه   أو تمنى وجود شيء بــــــراه
فإذا كائن له هيكل الطين   وفى هيكل التراب إلــــــه
ذو فؤاد تظل فيه الأمـــانى   فى صباها ، وإن تقضى صباه
كل من يعشق الجمال أخوه   كل أرض فيها الهوى مغنـــاه
هو للحق غيظه ورضــــــاه   وهو للحب ضحكه وبـــكاه
مَنْ تُرَاهُ هذا الذى صاغه الله   كما يشتهيه لما اشتهـــاه ؟
إنه الشاعر الذى كل دنيـــا   تنطوى قبل تنطوى دنيــــاه
كم سقانا خمراً بغير كؤوس   فسكرنا ولم تذقها الشفـــــاه
وأرانا الصباح والليل يغشانا   بأكفانه كما يغشـــــــــاه

يعشق الروض فى حلاه ، ويهواه مُعَرًّى مُجرَّداً من حــــلاه
يرتوى الناس بالمياه ويرويـــه خرير تصغى له أذنــــاه
أيها ، السائلون عنه : لمـــاذا ليس يسعى للغنى كســـواه ؟
ما الغنى عندكم ؟ فإنىَ أخشى أن تكونوا جهلتم معنــــاه
أهو المال ؟ ما وجدت غنيـًّا قط إلا ومـــاله مــــولاه
أفمن كان كوكبًا يهجر الأفق لتمسى زجــــاجة مثواه ؟
والذى الكون داره ، كيف يرضيه انزواء فى حفنــة من ثراه ؟
وجد المال عاتيًا مســـتبدًّا فأبى أن يكون من أســـراه
لا تقولوا : ماذا اقتنى وحـــواه ؟ أى شيء خياله ما حـــواه ؟
إنه الشاعر الذى ازدادت الدنيا بهــــاء لما غدت مــــأواه
فاشربوا ، يا رفاق ، سر فتى « العاصى »، وحيوه ، إنه إياه !

٥٣

تكريم الأب منصور إسطفان

لم أنس حين مشت إلىّ تلومنى ... لـمـا رأتنى باسمًا مُتهـلـلًا

قالت : أتطرب ، والمنايا حُوَّم ... فى الأرض كيف رمت أصابت مقتلا ؟

انظر ، فقد خلت البيوت من الشبا ... ب ولا جمال لمنزل منهم خـلا

فسألتها : أو ليس من أجل العلا ... وهنائنا خاضوا الوغى ؟ قالت : بلى

يا هذه ، أإذا بكيت لبعدهم ... يتبسمون ؟ أجابت الحسناء : لا

كفى الملام إذن ، فما أنا جاهل ... ما تعلمين ، وكيف لى أن أجهلا ؟

لكن بعثت الفكر فى آثارهـم ، ... فى البحر فى الأجواء فى عرض الفلا

فرأيت نور المجد فوق بنودهـم ... ورأيتهم يمشون من نصر إلى . .

سدوا على الباغى المسالك كلها ... فالموت إن ولّى وإن هو أقبلا

فإذا شممت اليوم رائحة الدمـاء ... وطالعت عيناك آثار البلـى

فاستبشرى ، فغداً إذا النقع انجلى ... ستعود دنيانا أحب وأجمـلا

بالطامحين إلى الكمال ، العاملين ... على الإخاء ، الناهضين إلى العلا

كـ « الإسطفـانى » الذى لا يأتلى ... حربًا على الباغى وعون المبتلى

مستهديًا بـ « الناصرى » ، مُبَشِّرًا ... بالحب والغفران ما بين المـلا

حلو المودة ، لا يشـوب ولاءه ... كلف ، ولا يسلو الصديق وإن سلا

ما إن دعا داع لنصرة بائـس ... إلا وكان هو المغيث الأولا

إن لم يُشيِّدْ هيكلا من مرمر ... فلقد بنى فى كل قلب هيـكلا

خُلُقٌ كماء المزن عذب طاهر ... وسجية تحكى الرحيق السلسـلا

يا ابن الألى ما دارَ يومًا ذكرهم ... فى محفل إلا أضاء المحفـلا

كانوا ربيعًا زاهراً فى جيلهـم ... ومضوا ، وما زالوا ربيعًا مقبلا

لبس الحلى قوم فما شرفوا بهـــا وغنيت بالخلق الرفيع عن الحلى
عبثًا يحاول طمس فضلك مرجف لا يبلغ النجم الغبار وإن عــلا
كم هاجمت « لبنان » ريح صرصر لتدكه ، أرأيتموه تزلــزلا ؟
زعم القصائد ليس تشبع جائعًا لم يخلق الله الورود لتؤكــلا !
الأنبياء — والوحى شعر رائع — شبعوا ، وما أكلوا الكتاب المنزلا !
الشعر ريحان النفوس إذا صفت أما إذا كشفت طبيعتها فلا . . .
فاغفر مساءته ، فإن الحر من يعفو عن الجانى الأثيم تفضــلا

* * *

سُقْتُ الثناء إليك حلوا سائغًا لولم يكن فى مدح شخصك ما حلا
هؤلاء قومك ، يا حبيب قلوبهم ، وافوا كما ترد الطيور المنهــلا
لم يكرموا العشرين والخمس التى مرت ، بل الأدب الصحيح الأنبلا
عش ، يا صديق ، مثلها فى مثلها للعلم ركنًا ، للفضيلة موئــــلا

٥٤

رثاء إلياس عطا الله

دنيا من الآمال والأحـــــلام زالت وغابت مثل طيف منـــام

عصف الردى بورودها فتناثرت ومضى بشاديها وبالأنغـــام

لم يبق فيها دوحة تحنـــو على تَعِب ، ولا ماء يفيض لظــامى

أرسلت صوتى فى جوانبها فلم يرجع إلى أذنىّ غير كــلامى

« إلياس » إنك أنت دنياى التى ضيعتها ، ورجعـــت بالآلام

* * *

يا صاحبًا قد كنت أستهدى به إن ضاع مصباحى ، وجن ظلامى

لا تسألنى عن فؤادى إننـــى سلّمت للأحزان قلبى الـدامى

أرفيق روحى ، قد أتيت مسلمًا « إلياس » ما لك لا ترد سلامى ؟

عجبًا ، كأنك فى زمان غابـــر أو موضع قاص وأنت أمـــامى

أنا مع رفاقك تائقون لقولـــة أو لفظة ، فانطق ولو بســلام

يا عظم خيبتنا ، فإنا نبتغى خمراً ، ولا من خمرة فى الجـــام

إن الذى قد كان معنا قد سمـــا عنا ، وصار مع الإله الســـامى

ومن استوى فى عالم الأرواح لا يدنو إليه عالم الأجســـام

٥٥

دار « السمير » الجديدة

يا مرحبًا بالأصدقاء ، مرحبًا ملأتم الدار وروحى طربـــا
ضحكت لما قيل لى الصيف انقضى وأنتم حولى كأزهار الربـــى
صيرتموها فلكًا مؤلَّقـــا لما طلعتم فى ذراها شهبـــا
وصارت الدنيا بعينى جنــة وصار مائى كوثراً ، بل أعذبا
لو جئتكم من « عبقر » بسحرها وسُقْتُ فى شعرى الدرارى موكبا
لما وفيت بعضَ بعضِ دَيْنــكم ولا قضيت اليوم شكراً وجبـا
من يستفد مثلى صحابًا مثلكم قد استفاد أدبـًا ونســبا
ما كانت « السمير » إلا ورقـًا لولاكم ، والدار إلا خشبــا
إن كان من حسن فمنكم قد أتى ما قيمة المصباح لولا الكهربا
لو كانت « السمير » من أهل الغنى ساقت تحاياها إليكم ذهبــا
أو روضة — أهدت إليكم زهرها أو عطرها مع القَبول والصَّبــا
أو فلكا — رَفَّتْ عليكم وحنت وعلَّقت فى كل بيت كوكبـا
أو جدولا — غَنَّت لكم ميـاهه ما دمتم تصغون حتى تنضبا
لكنها جريدة قد أنشـــئت لتخدم العلم وتعلى الأدبــا
تريد للناس الحياة حـــرة للناس طرًّا — «عجماً» و« عربا »
تنفق مما عندها وإنهـــا لتنفق العمر اللذيذ الطيبــا
لا تطلبوا منها سوى ما ملكت لا تملك الصهباء إلا الطربـا

٥٦

إلى عازر داود

أيها الجالس بين النجمتين ... غنِّنا ، يا صاحبى ، أنشودتين
قد شربنا خمرة الكرم ، ... وإنأنت أنشدت شربنا خمرتين

٥٧

إلى المونسينيور منصور إسطفان

هذى تحيتنا إلى « المنصور» ... مشفوعة بتحية الجمهــــــور
مع أنفس الشعراء نرسل شوقنا ... فاسمع بأذن الروح لحن شعور
وانشق أريج قلوبنا ، فقلوبنــا ... من وجدها كمجامر البخـــــور
يا نسر « لبنان » المحلق فى الفضا ... المجد تحت جناحك المنشـــور
فاسلم لأمتك التى تبنى لهـــا ... لتزيدها من سعيك المبرور

٥٨

رثاء نجلاء صباغ

رجع الربيع إلى المدائن والقرى ... نوراً وعطراً فى السفوح وفى الذرى

لمست يداه العود أجرد يابسًا ... فإذا به قد صار رطبًا أخضرا

لله منه ساحــراً ومصــوراً ... بهرت عجائبه القول وحيــرا

عرض الجمال وقال للناس : انظروا ... فالله قد خلق العيون لتنظــــرا

لكنما العين التى كانت ترى ... ألَقَ الربيع وحسنه ليست ترى

الموت أغمضها على غير الرؤى ... ما فى الردى شىء كأحلام الكرى

لكنما القلب الذى يهوى الشذى ... والنور ، قد أمسى دفينًا فى الثرى

إن لم نرحب بالربيع ولم نَهِمْ ... بالحسن فيه ، فحقنا أن نُعذَرا

فلقد أضعنا حين جاء إلى الحمى ... فى بنت « مطران » ربيعًا أنــورا

سكتت لكى تتحدث الدنيا بها ... وغفت لكى تبكى العيون وتسهرا

« نجلاء » إنك روضة معطــارة ... عصف الحمام بها ، فعاث وبعثرا

رَحَلَتْ عن القصر البشاشة وانطوى ... عهد الصفا والأنس فى « أم القرى »

فاليـــوم لا الأرواح تبسم للمنى ... فيه ، ولا اللذات تجرى كوثرا

أفنيتِ نفسك كالشموع توقداً ... وقطعت عمرك كالكواكب فى السرى

فازددت مجداً فى الزمان وشهرة ... وازداد قومك رفعة بين الورى

زانتك فى الدنيا شمائل حـــــرة ... هى كالجواهر إنما لا تُشْتَرَى

فعليك ، يا فخر النساء وفخرنا ، ... منا السلام مُمَسَّكا ومعطَّــرا

ول « قيصر » منا العزاء ، ف « قيصر » ... كالنسر هيض جناحه وتكسرا

بل صار بعدك ، يا رفيقة عمره ، ... وتراً ، يغص بلحنه متعـــثرا

إنا نودع نجمـــــة وضـــاءة ... زالت ، وندفن كنز فضل فى الثرى

٥٩

فى حفلة تكريمه ببيروت

المرء ليس يقـــــاس فى الدنيـــــا بعلم أو بجهـــل
بل بالذى فى طبعـــــه الفطرى من كرم ونبــــل
فلرُبَّ ذى علم أســـــاء لأهلـــــه ولغير أهـــل
ولرب ذى جهل أفـــــاد النـــــاس فى خصب ومحل
لولا ارتفـــاع نفوســـــكم لم يرتفع أبـــــدا محلى
لولا عيونكم المحبـــــة مـــــا ترآى قط فضلى
دامت مكارمكـــــم لكى يشدو بها الشـــــعراء مثلى

٦٠

فى حفلة تكريمه بدمشق

أنا إن شكرتك يا «أبا حسَّانِ» أعليت من قــدرى وقدر بيانى
أشرقت فى نفسى سنًا فأريتنى وجه الربيــع ولست فى «نيسانْ»
سأتيــهُ أنى فى زمانك عائش ومعى يتيهُ – كما أتيــه – زمانى

٦١

فى صالة منصور

شَرِبَتْ عينــاكِ روحى فهى فى عينيــكِ سحر
وأذاب الحب قلــبى فهــو فى كأسى خمــر
هذه الليلــة دنيــا كل ما فيهــا يُسِرّ
لا تقل ليــل ويمضى ليس للــذة عمــر

٦٢

فى بيت فخرى البارودى

يا صحبى ! قد كمل المجلس ونحن نحـــن المـــلأ الأقدس
لتنعس الأنجم فى فلـــكها سنسهر الليل ولا ننعس !!

٦٣

إلى توفيق فخر

رافقك الهنـــاء ، يا رفيـــق وعدت بالتوفيق ، يا « توفيق »
يا شاعراً أخلاقـــه كشعره متانة ، كقلبـــه رقيـــق
أنت صديق لا يحول وده فى زمن قَلَّ به الصديق

٦٤

إلى رشيد أيوب

رأيتك تحت الليل كالليل ساكتًا ... وعند ضفاف البحر تهدر كالبحر
تئن من الدنيا التي طال جورها ... وتشكو من الدهر الخؤون إلى الدهر
بكيتَ فأبكيتَ الجلامد في الثرى ... ونُحْتَ فحرَّمْتَ الرقاد على البدر
فأصبح هذي السموات حائراً ... كصاحب إيمان يميل إلى الكفر
أراه بعيني مصغيًا كل ليلة ... لأنك قد عوَّدْتَه رنة الشعر
أرى فيك من « شيخ المعرة » نفحة ... وفي نفحات « الشيخ » شيء من السحر
وهبتك من شعري وعندك مثله ... ولو كنت ذا تبر وهبتك من تبري
وإن لم يكن هذا ولا ذاك شافعًا ... فإني قد ألقيت حملي على « شكري »

٦٥

« زحلة الفتاة »

لى فتاة ملأت صدرى جـــوًى ذاب فيها القلب شوقًا واحترق
كل يـــوم لى منهـــا موعد فى صباح ، فى مساء ، فى غسق
لا تظنـــونى أثيمًا فى الهـــوى فـ « فتاتى » من مـــداد وورق

٦٦

شعار « السمير »

أنا لا أهدى إليكم ورقـــًا غيركم يرضى بحـــبر وورق
إنمـــا أهدى إلى أرواحـــكم فِكَراً تبقى متى الطرس احترق

فهرس القوافى

رتبت القوافى ترتيبًا ألفبائيًا ، وضمن كل حــرف جاءت القافية المقيدة الساكنــة أولا ، ثم المطلقة المفتوحة ، فالمضمومة ، فالمكسورة ، يتبع كل منها ما ختم بالهاء التى تعد وصلا : الساكنة ، فالمفتوحة ، فالمضمومة ، فالمكسورة . أما الرقمان المتقدمان على المطلع ، فالأول هو رقم القصيدة أو القطعة فى الكتاب ، والثانى هو عدد أبياتها .

ء

٤٢/٤٢ ماتت « فـنى » أم البنــين — فلا « ولِيْـتَم » طــول البقاء

بَ

٢٥/٢٣ وزاهد همه فى المــدح يسمعه — من كل من همه أن يخلق الكذبا

١٧/٦٤ يا مرحبًا بالأصدقاء ، مرحباً — مــلأتم الدار وروحى طربا

١٠/٣ خطيب الأمس ، ما أنصفت «مصرا» — ولا أنصفت ماضيك القريبــا

بِ

٤٩/١٠ ماالطير ضاقت بها الأوكار فاضطربت — فى الأرض باحثة عن مرتع خِصب

٩/٣٥ إن الصليب وكان آلة نقمة — أمسى شعار الخير والتهذيب

٥٧/٣٢ يا سيداتى « حاملات الطيب » — ويا رجال الفضــل والتهذيب

تَ

١٨/٤٦ شاعر كان حــائراً — أذهــب الحب حيرتَه

تِ

٣١/٣٦ رأيتــه مرتبــكًا — كغارق فى لجــة

٧/٤٠ مضت التى كانت كزنبقة الربى — فى طهرهــا وأريجهــا وصفاتها

حْ

حُ

دِ

رْ

رَ

رُ

قُ

قِ

كِ

لَ

لُ

لِ

مْ

مَ

مُ

مِ

نِ

هْ

هَ

هُ

هِ

مصادر الأشعار

فيما يلى بيانان :

(ا) بيان بالمصادر التى استخرجت منها الأشعار .

(ب) بيان بأمكنة الأشعار فى هذه المصادر ، مع بعض الإيضاحات .

(ا)

« الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية فى الأدب العربى المعاصر : عبد العزيز جاويش ، ١٨٧٢ — ١٩٢٩ » تأليف سالم عبد النبى قنيبر . بنغازى ، دار مكتبة الأندلس ، ١٩٦٨.

« أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية » تأليف جورج صيدح . ط ٣ منقحة ومزيدة . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٤ .

« الأديب » (بيروت ، ألبير أديب) .

« ألف باء » (دمشق ، يوسف العيسى) .

« الجمهور » (بيروت ، ميشال أبو شهلا) .

« الرسالة » (القاهرة ، أحمد حسن الزيات) .

« السائح » (نيويورك ، عبد المسيح حداد) .

« الشعب » (القاهرة ، محمود أبو عثمان) .

« الصحافة فى لبنان » تأليف جورج عارج سعادة . ط ١ . بيروت ، دار وكالة النشر العربية ، ١٩٦٥ .

« العلم » (القاهرة ، إسماعيل حافظ) .

« الفنون » (نيويورك ، نسيب عريضة) .

« مرآة الغرب » (نيويورك ، نجيب موسى دياب) .

« النسر » (نيويورك ، نجيب جرجى بدران) .

« الهدى » (نيويورك ، نعوم مكرزل) .

(ب)

ملحوظة : الرقم المسلسل هو رقم القصيدة أو القطعة فى الكتاب .

ص = صفحة ، ب = بيت

١ — « الاتجاهات » ، ص ٢٠٥ ، ١٠ ب ، نقلا عن « اللواء » القاهرية ١٩٠٩/٩/٤ . خاطب بها الشيخ عبد العزيز جاويش ، رئيس تحرير « اللواء » ، بعدما سجن لتقريظه ديوان « وطنيتى » نظم الشيخ على الغاياتى .

٢ — « الشعب » ١٩١٠/٣/٢٧ ، ص ٤ ، ٣٣ ب .

٣ — « الشعب » ١٩١٠/٤/٤ ، ص ٦ ، ١٠ ب .

نظمها بعدما زار الرئيس الأمريكى ثيودور روزفلت مصر ، وألقى خطبة فى الجامعة المصرية فى القاهرة ، يوم ١٩١٠/٣/٢٨ ، استاء منها المصريون .

٤ — « العلم » ١٩١٠/٧/٢٤ ، ص ٥ ، ٣٦ ب .

نظمها بمناسبة مرور عام على إعلان الدستور العثمانى .

٥ — « مرآة » ١٩١١/١/٣٠ ، ص ٥ ، ٤١ ب .

نظمها ونشرتها له الجريدة وكان لا يزال فى الإسكندرية .

٦ — « مرآة » ١٩١٢/١/٣١ ، ص ٥ ، ٣١ ب .

أول قصيدة له فى هذه الجريدة بعد نزوله سنسناتى أوهايو .

٧ — « مرآة » ١٩١٣/١١/١١ ، ص ٥ ، ٢٠ ب .

نظمها حينما قَصَّر صديقه إلياس عطا الله فى الرد على رسالة بعثها له .

٨ — « مرآة » ١٩١٤/٦/١٧ ، ص ٤ ، ٤٦ ب .

٩ — « مرآة » ١٩١٤/٦/٢٣ ، ص ٤ ، ٣٥ ب .

١٠ — « مرآة » ١٩١٤/٧/٦ ، ص ٤ ، ٤٩ ب .

اقتطف منها أربعة أبيات ونشرها فى « مرآة » ١٩٢٦/١/١١ ، ص ٤ ، بعنوان « الغريق والبحر » ، فعارضها أسعد رستم بقصيدة نشرتها « الهدى » ١٩٢٦/١/١٩ ، ص ٦ ، ١٩ ب ، بعنوان « فإنه مثله فى الذَّنْب والذَّنَب » .

١١ — « مرآة » ١٩١٤/٧/١٥ ، ص ٤ ، ٤٠ ب .
١٢ — « مرآة » ١٩١٤/٧/٢٠ ، ص ٤ ، ٣٨ ب .
١٣ — « مرآة » ١٩١٤/٧/٢٧ ، ص ٤ ، ٥٢ ب .
١٤ — « مرآة » ١٩١٤/١٠/٦ ، ص ٤ ، ٢٥ ب .
ودّع بها السفير العثمانى فى واشنطن .
١٥ — « السائح » ١٩١٥/٤/١ ، ص ٤ — ٥ ، ٣٠ ب .
أول قصيدة له فى هذه الجريدة .
١٦ — « السائح » ١٩١٥/٥/٣ ، ص ٤ ، ٢٢ ب .
١٧ — « السائح » ١٩١٥/٥/٢٧ ، ص ٤ ، ٢٤ ب .
١٨ — « السائح » ١٩١٥/٦/٢٤ ، ص ٤ ، ٣٤ ب .
١٩ — « السائح » ١٩١٥/٦/٢٨ ، ص ٤ ، ٢٨ ب .
٢٠ — « السائح » ١٩١٥/٨/٩ ، ص ٤ ، ٤٢ ب .
٢١ — « السائح » ١٩١٥/٧/٢٢ ، ص ٤ ، ٢٦ ب .
٢٢ — « مرآة » ١٩١٥/٨/٣ ، ص ٤ ، ٢٨ ب .

منها ١٠ ب بعنوان « إليك عنى » : فى « تبر وتراب » ، ص ١١٠ :
نظمها ردًّا على الأبيات الآتية التى أرسلها شكرى أبى صالح إليه ، من أولد أورتشارد بولاية ماين ، فى ١٩١٥/٧/١٨ ، كل بيت فى بطاقة بريد مصورة .

فى « أولد أرتشرد » لو علمت أحبة ... تشتاق رؤيتك التى تجلو الكدر
زرنا فقد كدنا نذوب صبابة ... وأسرع ولا تحفل بـ «زيد» أو «عمر»
فرياضنا بعبيرها ، ومياهنا ... بخريرها ، تشفى القلوب من الضجر
فيها الأزاهر والمزاهر والطلا ... فيها ذوات الغنج ربات الخفر
فيها الهوى ، فيها اللواعب بالنهى ... وذوى النهى لعب الصوالج بالأكر
يخطرن كالأغصان فى رأد الضحى ... ويثبن كالغزلان فى ضوء القمر
نقضى ويقضين الأصائل والبكر ... فى الرمل آونة ، وطوراً فى النهر
شهب ، عليها يحسد الأفق الثرى ... درر بلا صدف تغوص على الدرر

ما أبصرت عينى ، ولا غيرى رأى　　من قبلهن المـــاء بالمـــاء استتر
إن كنت فى شك ولست مصدقًا　　فانظر وحدق حين تنظر فى الصور
خل اليراع ، عساك تكسب أجرة　　واغنم أويقات المسرة والسـمـر
واحضر إلينا إن أردت صبابــة　　واكتب إلينا إن عزمت على السفر

٢٣ — « السائح » ١٩١٥/١٠/١١ ، ص ٤ ، ٢٥ ب .

٢٤ — « السائح » ١٩١٥/١١/١ ، ص ٤ ، ١٢ ب .

٢٥ — « السائح » ١٩١٦/٩/٧ ، ص ٢ ، ١٩ ب .
أنشدها مساء الخميس ١٩١٦/٨/٣١ ، فى حفلة تنصير « نور » ابنة عبد المجيد حداد ، نزيل تاكوما واشنطن ، يتأهل بها بضيف نيويورك الأرشمندريت أفثيميوس عفيش ، راعى الطائفة الأرثوذكسية فى كندا .

٢٦ — « الفنون » ، تشرين أول (أكتوبر) ١٩١٦ ، ص ٤٦٨ ، ٤ ب .
قالها مثنياً على السيدات السوريات اللاتى خرجن إلى شوارع نيويورك ، فى ٢١ و ١٩١٦/١٠/٢٢ ، لجمع الإعانات لإغاثة المنكوبين الذين اجتاحهم الجوع والوباء فى سوريا .

٢٧ — « السائح » ١٩١٦/١١/١٣ ، ص ٤ ، ١٢ ب .

٢٨ — « السائح » ١٩١٦/١١/٣٠ ، ص ٤ ، ٤٧ ب .
أنشدها الجمعة ١٩١٦/١١/٢٤ ، فى حفلة وداع أمين الريحانى الإكرامية التى عقدت بمناسبة سفره إلى فرنسا ، فى هوتيل بوسرت ، فى بروكلن نيويورك .

٢٩ — « السائح » ١٩١٧/٥/١٠ ، ص ٥ ، ٢ ب .
ارتجل البيتين مساء الأحد ١٩١٧/٥/٦ ، فى منزل آل خورى ، جنوبى بروكلن نيويورك ، فى حفلة زواج توفيق خورى بالآنسة نبيهة داود مهانى ، معقباً على قصيدة ندرة حداد .

٣٠ — « السائح » ١٩١٧/٥/١٠ ، ص ٥ ، ١١ ب .
تلاها فى الحفلة المذكورة أعلاه .

٣١ — « مرآة » ١٩١٧/٦/١٥ ، ص ٣ ، ١٢ ب .

نشيد أنشدته أعضاء « جمعية حاملات الطيب » فى الحفلة التى أقامتها الجمعية ، ١٩١٧/٦/١٤ ، فى نادى القديس نيقولاوس ، تكريماً للأسقف عفيش ، أسقف بروكلن .

٣٣ — « السائح » ١٩١٧/٧/٢ ، ص ٤ ، ١١ ب .

٣٤ — « السائح » ١٩١٧/٩/٦ ، ص ٢ ، ١١ ب .

أنشدها الأحد ١٩١٧/٩/٥ ، فى أزلن نيو جيرزى . فى حفلة دُعى إليها المطران عفيش لتنصير الطفل الأصغر لحنا نحاس .

٣٥ — « مرآة » ١٩١٧/١٢/٨ ، ص ٣ ، ٩ ب .

أقامت « جمعية الصليب الأحمر السورية » ، فى ١٩١٧/١٢/٧ ، حفلة فى مسرح بروسبيكت فى نيويورك ، حبست ريعها على إعانة الجنود الأمريكية والسورية . واقترح بعضهم على الشاعر — وكان حاضراً — أن يقول شيئاً فى الجمعية ، فكتب على الفور هذه الأبيات وألقاها .

٣٦ — « مرآة » ١٩١٨/٢/٢ ، ص ٥ ، ٣١ ب .

٣٧ — « السائح » ١٩١٨/٤/٢٢ ، ص ٥ ، ١٦ ب .

نظمها ردًّا على قصيدة ندرة حداد التالية التى تلاها وديع باحوط فى حفلة أقامها نجيب موسى دياب . الأحد ١٩١٨/٤/١٤ ، بمناسبة تنصير نجله جورج وخطبة كريمته دوروثى إلى إيليا .

قالـــوا علقت ، فقلت : وا لهفى عـــلى ذاك الصـــديـــقِ
من كان يؤنس وحشـــتى فى وده الصافى الحقيـــقِ
ولّى وخلّفَ مهجـــتى بين التمزق والحـــــريـــق
من لى بمُرْجِعِه إلـــىّ ولـــو برمى المنجنيـــق
أنسيت ، « إيليا » ، ليـــا لينا وأوقـــات الرحيـــق ؟
ومجالســـا كانـــت تـــضىء بشعرك الزاهى الرقيـــق ؟

نسلو بهـا ألـم الحيـا ة ، وما بهـا من شر ضيق
نشكو العزوبة إنمـا شكوى الغريق إلى الغـريق
أسفى عليهـا إنهـا لمعت ومـرت كالبروق
ماذا دعـاك إلى النـوى وإلى مغـادرة الـرفيـق ؟
إنى عهـدتك خاليـا والقلب ليس بمستفيـق
لا يعرف الحب المـذيـب ولا ممـارسـة الخفـوق
عُدْ ، يا صديقى ، عن الجفا ء بحرمة الـود العتيـق
وارجـع ولا تطـع الهـوى ما زلت فى نصف الطـريق
ليس الهـزار وإن شـدا فى سجنـه مثـل الطليـق

٣٨ — « السائح » ١٩٢٠/٩/٢٠ ، ص ٤ ، ١٩ ب .

قالها مساء السبت ١٩٢٠/٩/١٨ ، فى نزل بوسرت ، فى بروكلن نيويورك ، فى حفلة توديع نعمة تادرس بمناسبة سفره إلى الوطن .

٣٩ — « السائح » ١٩٢١/٨/٤ ، ص ٤ ، ٦ ب . و « أدبنا » ، ص ١٦٢ .

زار مرة أبو ماضى صديقه رشيد أيوب فى ميلفورد بنسلفانيا ، حيث عائلتا الاثنين مُصَيِّفتان ، فلم يجد أحداً هناك ، ولكنه وجد الأبواب مفتوحة ، فطاف بالدار وبالحديقة ، وانفتحت قريحته فترك لرشيد هذه الأبيات .

٤٠ — « مرآة » ١٩٢١/٨/١١ ، ص ١ ، ٧ ب .

رثى بها حماته التى توفيت بمرض السرطان ، ولها من العمر ٤٣ سنة .

٤١ — « السائح » ١٩٢٤/١/١٠ ، ص ٢ ، ٣٨ ب .

ألقاها الأحد ١٩٢٤/١/٦ فى قاعة كاتدرائية القديس نيقولاوس الأرثوذكسية فى نيويورك ، بمناسبة الاحتفال بمرور أربعين يوماً على وفاة أثناسيوس إلياس عطا الله اللبنانى ، مطران حمص .

٤٢ — « الهدى » ١٩٣٣/٤/٢٢ ، ص ٥ ، ٤٢ ب .

موشح رثا به كلبة صديقه وليم كاتسفليس . راجع «السائح» ١٩٢٤/٧/٢٧ ، ص ٤ .

٤٣ — « مرآة » ١٩٢٥/١/٢٦ ، ص ٤ ، ٢٨ ب .
منها ١٣ ب فى قصيدة « ميامى فلوريدا »، فى « تبر وتراب » ، ص ٢١٧.
ألقاها مساء الخميس ١٩٢٥/١/٢٢ فى قاعة « جمعية الاتحاد السورى » ، فى حفلة أقامتها الجمعية لإكرامه كرئيسها السابق ، وأهدته فيها ساعة ذهبية .

٤٤ — « مرآة » ١٩٢٥/٢/٢٨ ، ص ٤ ، ٨ ب ، و ١٩٢٣/٢/٢٧ ، ص ٤ ، ٤ ب .
وقد ابتاع الموسيقى اسكندر المعلوف القصيدة من أبى ماضى ، ودفعها إلى المنشد مدحت سربجى الذى لحنها وسجلها على أسطوانة ظهرت فى السوق .

٤٥ — « السائح » ١٩٢٥/٨/٢٠ ، ص ٥ ، ١٧ ب .
كان أبو ماضى فى أحد المصايف لما احتفل ندرة حداد بخطبته . فلما عاد و بلغه الخبر سر لصديقه ، ودفع إليه بهذه القصيدة .

٤٦ — « السائح » ١٩٢٥/١١/٣٠ ، ص ٧ ، ١٨ ب .
تلاها مساء الأربعاء ١٩٢٥/١١/٢٥ ، فى منزل آل حداد ، فى بروكلن نيويورك ، فى حفلة زواج ندرة حداد بالآنسة هدبا طرابلسى .

٤٧ — « مرآة » ١٩٢٦/١/٩ ، ص ٢ ، ١٨ ب .
نظمها رداً على مقالات ظهرت فى « الهدى »: (ا) ١٩٢٥/١٢/٣١، ص ٤ (ب) ١٩٢٦/١/٥ ، ص ٥ (ﺣ) ١/٧ ، ص ٤ (د) ١/٨ ، ص ٤.
وقد عارضها أسعد رستم بقصيدة نشرتها « الهدى » ١٩٢٦/١/١٥ ، ص ٤ ، ٤٠ ب ، بعنوان « هل يستحق المشنقة ؟ ».

٤٨ — « مرآة » ١٩٢٦/١/١٢ ، ص ٤ ، ٦ ب .
نظمها رداً على مقالة ظهرت فى « الهدى » ١٩٢٦/١/١١ ، ص ٤ ، بعنوان « النسناس القوال » .

٤٩ — « مرآة » ١٩٢٦/٢/١٣ ، ص ٤ ، ٤٧ ب .
نظمها رداً على قصائد نظمها أسعد رستم ونشرتها «الهدى » : (ا) ١/٢٠ ،

ص ٦ ، ١٥ ب (ب) ١/٣٠ ، ص ٣ ، ١٨ ب (حـ) ٢/٢ ، ص ٨ ، ٢٦ ب (د) ٢/٤ ، ص ٤ ، ٢٦ ب (هـ) ٢/٨ ، ص ٣ ، ٢٣ ب (و) ٢/١١ ، ص ٣ ، ٣٢ ب . وقد عارضها أسعد رستم بقصيدة نشرتها « الهدى » ١٩٢٦/٢/١٥ ، ص ٢ ، ٢٨ ب ، عنوانها « هاها ، الدور لى » .

٥٠ — « مرآة » ١٩٢٦/٢/١٦ ، ص ٢ ، ٦ ب .

نظمها رداً على قصيدة رستم السابقة .

٥١ — « السائح » ١٩٢٦/١١/١٥ ، ص ٧ ، ١٩ ب .

بمناسبة حفلة تكريم الشيخ إبراهيم المنذر ، النائب فى مجلس لبنان ، أرسلت شبيبة المحيدثة فى الولايات المتحدة إلى الشيخ ساعة ذهبية هدية اعترافاً بفضله ، تصحبها هذه القصيدة لتتلى فى الحفلة .

٥٢ — « السائح » ١٩٢٧/١/١٠ ، ص ٢ ، ١٣ ب .

ألقاها مساء الجمعة ١٩٢٧/١/٧ فى خطبة ميشيل حداد على الآنسة هيلانة قيصر عبد النور ، وقد عُقدت فى بروكلن نيويورك ، فى منزل آل عبد النور .

٥٣ — « النسر » ١٩٢٧/٦/٢٩ ، ص ٤ ، ١٣ ب .

٥٤ — « مرآة » ١٩٢٧/١٢/٣٠ ، ص ٤ ، ٩ ب .

استهل بها خطبته التى ألقاها فى الحفلة الإكرامية التى أقامتها له الجالية فى توليدو أوهايو ، الأحد ١٩٢٧/١٢/٢٥ .

٥٥ — « مرآة » ١٩٣٢/٣/٣١ ، ص ١ ، ١٤ ب .

ألقاها ١٩٣٢/٣/٣٠ ، فى مقبرة جرينوود ، مودعاً بها أولجا ، شقيقة زوجته ، التى توفيت إثر عملية الزائدة المعوية ، وهى فى عقدها الثالث .

٥٦ — « الرسالة » ١٩٣٣/٨/١٥ ، ص ٢١ ، ٧ ب .

٥٧ — « الجمهور » ١٩٤٠/٦/٧ ، ص ٧ ، ٨ ب .

٥٨ — « السائح » ١٩٤٠/٧/٨ ، ص ٨ — ٩ ، ٢٣ ب .
تلاها الأربعاء ١٩٤٠/٧/٣ ، في المدفن في نيويورك ، راثياً بها سلمى مَلّوك ، قرينة عزيز عطية .

٥٩ — « الجمهور » ١٩٤٠/٨/٣١ ، ص ٥ ، ٧٥ ب .
ترجمة بتصرف لقصيدة بالإنجليزية نظمها الطبيب النيويوركي فؤاد ميخائيل العقل ، عند عبور الطيار الأمريكي لندبرج المحيط الأطلسي ، عام ١٩٢٧ .

٦٠ — « السائح » ١٩٤٢/١/٥ ، ص ٩ ، ١٩ ب .
رثا بها رشيد أيوب في الحفلة التأبينية التي أقيمت الثلاثاء ١٩٤١/١٢/٣٠ ، في قاعة الكاتدرائية الأرثوذكسية ، في بروكلن نيويورك .

٦١ — « السائح » ١٩٤٢/٦/٨ ، ص ٧ — ٨ ، ٣١ ب .
قالها في حفلة تكريم ندرة حداد التي أقيمت مساء الأربعاء ١٩٤٢/٦/٣ ، في نزل فاندربلت في نيويورك ، بمناسبة نشر ديوانه « أوراق الخريف » .

٦٢ — « السائح » ١٩٤٣/٦/١٠ ، ص ٤ ، ٣١ ب .
نشرت أبياتها الأحد عشر الأولى في ديوانه « تبر وتراب » ، ص ٦٣—٦٥ ، بعنوان « ستعود دنيانا أحب وأجملا » . ألقاها الأحد ١٩٤٣/٥/٣٠ ، في نزل سانت جورج في نيويورك ، في حفلة اليوبيل الفضي التي أقيمت لتكريم الأب منصور إسطفان ، راعي الطائفة المارونية في بروكلن .

٦٣ — « السائح » ١٩٤٣/٩/٣٠ ، ص ٩ ، ١٣ ب .
تلاها الأربعاء ١٩٤٣/٩/٢٢ ، في حفلة تأبين إلياس عطا الله التي أقيمت في حي باي ريدج ، في بروكلن نيويورك .

٦٤ — « السائح » ١٩٤٣/١١/١٥ ، ص ٨ ، ١٧ ب .
ألقاها الأحد ١٩٤٣/١٠/٣١ في حفلة تدشين دار « السمير » الجديدة .

٦٥ — « مرآة » ١٩٤٤/٨/٧ ، ص ٤ ، ٢ ب .
داعب أبو ماضي بهذين البيتين عازر داود ، في حفلة أقامتها السيدة نايفة توفيق عنبر ، في بلدة سانت تيريز بمونتريال كندا .

٦٦ — « السائح » ١٩٤٤/١٢/٤ ، ص ٣ ، ٥ ب .
في المأدبة التي أقيمت احتفالا بتدشين كنيسة لبنان ، ناب أبو ماضي عن إخوانه الجالسين معه (نسيب عريضة ، عبد المسيح حداد ، وأخوه ندرة) بإظهار شعورهم نحو المونسينيور منصور إسطفان ، فكتب هذه الأبيات التي ألقاها سعيد عقل ، عريف الحفلة .

٦٧ — « السائح » ١٩٤٧/٦/٥ ، ص ٩ ، ٢٠ ب .
ألقاها السبت ١٩٤٧/٥/٢٤ ، في ميلفورد بنسلفانيا ، في حفلة دفن السيدة نجلاء ، زوجة قيصر صباغ .

٦٨ — « الصحافة » ، ص ٢٨٨ ، ٧ ب .
الأبيات الختامية لقصيدة ألقاها ١٩٤٩/١/٤ ، في فندق الريجنت في بيروت ، في الحفلة التي علّق فيها فؤاد عمون ، مدير الخارجية العام ، على صدره وسام الأرز الوطني اللبناني من رتبة ضابط .

٦٩ — « ألف باء » ١٩٤٩/١/٧ ، ص ٤ ، ٢ ب . البيت الثالث في ١/٢١ ، ص ٤ .

أبيات خطرت له ، وهو جالس إلى جانب الرئيس شكري القوتلي في حفلة تكريمية أقيمت له الخميس ١٩٤٩/١/٦ ، في مدرج الجامعة السورية بدمشق .

٧٠ — « ألف باء » ١٩٤٩/١/٨ ، ص ٢ ، ٤ ب .
أوحت هذه الأبيات سهرةٌ في « صالة منصور » ببيروت ، توافرت فيها متعة العين والأذن والروح .

٧١ — « ألف باء » ١٩٤٩/١/٢١ ، ص ٤ ، ٢ ب .
طال الأنس في سهرة موسيقية في بيت النائب فخري البارودي ، وباغت الفجر الندامى وهم شبه أعياء ، فغضب الشاعر ، وقال البيتين .

٧٢ — « الأديب » ، فبراير ١٩٦٠ ، ص ٢٩ ، ٣ ب .
أبيات كتبها لتوفيق فخر ، مساعده فى تحرير « السمير » ، عندما قصد هذا القيام برحلة إلى الجمهورية الدومينيكية .

٧٣ — « أدبنا » ، ص ١٦٣ ، ٨ ب .
أنشدها من حاضر الخاطر الرشيد أيوب ، بعد صدور ديوانه « الأيوبيات » (١٩١٦) .

٧٤ — « أدبنا » ، ص ١٦٣ ، ٣ ب .

٧٥ — « أدبنا » ، ص ٢٨٩ ، ٢ ب .

فهرس الموضوعات

الباب الأول

دراسات عنه

الباب الثانى

أشعار مجهولة

صفحة

صفحة

رقم الإيداع	١٩٧٧/١٧٧٤
الترقيم الدولى ٠ – ٦١٢ – ٢٤٦ – ٩٧٧	ISBN

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

إيليا أبو ماضى

عن هذا الشاعر الكبير يحدثنا هذا الكتاب ، الذى يحتوى الباب الأول منه على دراسات عن الشاعر ، نشرها المؤلف الدكتور جورج ديمترى سليم فى كبرى المجلات الأدبية العربية وقد تناول فيها لمحات من حياة الشاعر وأهم ملامح شعره ، وموقفه من أدب المهجر والأدب العربى عموماً ، وكذلك بعض الرسائل وأحاديث عن علاقاته المختلفة بما يعطى خلفية هامة للقارئ تساعده على تذوق وفهم شعره .

أما الباب الثانى فيحتوى على ست وستين قصيدة مجهولة لم تنشر من قبل للشاعر المهجرى ، ويشتمل الكتاب على فهرس للقوافى ، وثبت للمراجع ومصادر للأشعار ، وموجز تاريخى لحياة الشاعر مما يسهل الاستفادة من هذا الكتاب للقراء والدارسين .

٧٥ ص